

الرّوائع المِائة



— ٤ —

لورد بيرن

أسفار تشيلد هارولد

ترجمة

عبد الرحمن بدوي

الثمن ٢٥ م



النـاشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ عدلى باشا بالقاهرة
١٩٤٤



اهداءات ٢٠٠٢

أسرة د/ عبد الرحمن بدوي
جمعية د /عبد الرحمن بدوي للإبداع الثقافي
القاهرة

الروائع المائة

— ٤ —

لورد بيرن

أسفار أشيلد هارولد

ترجمة

عبد الرحمن بدوي

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ عدلى باشا ، بالقاهرة
١٩٤٤

العنوان الأصلى

Lord Byron : *Childe Harold's Pilgrimage*

ظهر لأول مرة :

النشيدان الأول والثانى : سنة ١٨١٢

النشيد الثالث : سنة ١٨١٦

النشيد الرابع : سنة ١٨١٨

تصـــدير عام

« كان فيه احتقار مستمر لـكل شيء ، حتى ليخيل إليك أنه عانى أسوأ ما يمكن أن يكون ؛ وكان يعيش على الأرض غريباً عنها ، وكأنه روح شاردة ألقى بها من عالم آخر ؛ وكان له خيال مظلم يخلق لنفسه الأخطار التى يكون قد أنقذ منها ؛ — ولـكن عبثاً ، فذكراها كانت لنفسه مصدر انتصار وندم معاً .

« وُهِبَ قدرة على الحب لم يتيسر مثلها لـكائن من الناس ؛ فكانت أحلامه فى الفضيلة تتجاوز منذ البدء نطاق الحقيقة والواقع ؛ وشبابه الذى خاب أمله قد تلته رجولة عاصفة . فلم يبق لديه إلا الأسف على كل تلك الأعوام التى بددها فى مطاردة شبح وخيال ، وعلى سوء استخدامه للطاقة التى وهبت لروحه من أجل الاستفادة منها على وجه أحكم وأتم . لقد كان فريسة لوجدانات عنيفة نثرت فى طريقه الخراب والشقاء ، ولم تترك لأجمل عواطفه غير اضطراب باطن وأفـكار قاسية تستثيرها حياةعاصفة مضطربة . ولـكنه كان من الـكبرياء والبطء فى الإدانة بحيث ألقى نصف المسئولية فى هذا على الطبيعة ، وعزا كل أخطائه إلى هذا البدن الذى قضت عليه الطبيعة أن يكون سجناً للروح وقوتاً لدود القبر ؛ حتى انتهى به الأمر إلى الخلط بين الخير والشر ، فقال عن أفعال إرادته إنها أوامر القدر .

« لقد كان أرفع من أن يحمل أثرة العاديين من الناس ، فعرف كيف يضحى بنفسه فى سبيل خير الآخرين ، حينما يقتضي الأمر . أفكان هذا منه عطفاً أو واجباً ؟ كلا ؛ إنما كان بالأحرى نوعاً من الفساد الغريب فى طبعه ، كان يدفع بكبريائه إلى فعل ما لم يجرؤ على فعله غير القليل من الناس . وهذا بعينه قد كان الدافع الذى كان يجعله من قبل يفضّل سُبُل الجريمة : لأنه كان شديد الرغبة فى الانفصال — إن بالخير أو بالشر — عن هؤلاء الذين تلقوا مثله حياة فانية ! إن روحه لم تكن تسمع لغير الكراهية التى يحملها لهم فى نفسه ، فوضعت عرشها بعيداً عن هذا العالم ، فى مملكة خيالية قد خلقتها لنفسها ؛ هنالك ، فى هذه التأملات الباردة لاحتقاره ، كان دمه يبدو كأنه يسيل على نحو من الهدوء أكبر . ما كان أسعده لو أنه لم يحترق بعد بنار الجريمة ! وما كان أسعده لو أنه نِعمَ دائماً بهذه الطمأنينة الباردة .

« أجل ، إنه سلك من السبل ما سلكه كل الناس ؛ أجل إنه بدا فى الظاهر وكأنه يتحدث كما يتحدثون ويفعل ما يفعلون ، دون أن يهين العقل بأى انحراف عن سبيله . إلا أن جنونه كان جنون قلب ، ولم يكن جنون عقل : فلم يكن يهذِى فى أقواله إلا نادراً ، ولم يرفع النقاب عن أعماق نفسه إلا قليلا من أجل إزعاج من كانوا يستمعون إليه » .

فى هذا التحليل الدقيق لشخصية بطله لارا [1] قدم لنا بيرُن أصدق صورة عن نفسه . فقد كانت روحه عاصفة من الأحساس المضطربة والوجدانات الهائجة التى كانت تدور دائماً حول نفسها ، مرتطمة حيناً بصخرة البشر الجرداء الباردة التى لاتلبث أن ترتد عنها قانطة من بنى الإنسان ، ناظرة إليهم بإزدراء متهانف ؛ ومنطوية على نفسها حيناً آخر لواذاً بالوُحدة من تفاهة الناس . وفى كلتا الحالين وحدة ، الأولى إيجابية معتدية ، والأخرى سلبية ليس فيها معنى الكراهية ، « لأن تجنب بنى الإنسان ليس معناه بالضرورة كراهيتهم ؛ فليس كل امرئ مهيأ للدخول فى غمرتهم ومزاحمتهم فى مشاغلهم . وليس من الزراية بهم أن تحتفظ بقلبك عميقاً فى ينبوعه ، خوفاً من أن يفيض غلياناً فى حميم الطغام ، حيث نصير فريسة لداء عياء ، إلى أن نندب ، متأخراً ولزمان طويل ، ضرورة كفاحنا ضد العدوى ، وننتقل من خطأ إلى خطأ ومن شقاء إلى شقاء ، وسط عالَم تشيع فيه روح معادية لا نقوى على صدها والتغلب عليها (« اتشيلد هارولد » ، ٣ : ٦٩ ، ص ١٥٧ من هذا الكتاب). ذلك أن روحه المتوثبة المجاهدة لا تستطيع أن تستمر فى جهادها العملى حتى النهاية ، لأن سلاحه فيه غير سلاح أعدائه من البشر من ناحية؛ ومن ناحية أخرى ، لأن روح النضال

---

(١) « لارا » : ١ : ١٨ .

عنده ليست روح نضال فى مملكة الواقع ، بل فى مملكة الفكر ؛ ومثلها إذا استيأس من الواقع ، لاذ بنفسه . ومن هذا اللّواذ المستمر بالذات تولّدت فى نفسه نزعة ذاتية هدامة للباطن ، قد أحالته إلى أتّون من اللهيب الوجدانى الذى يحرق نفسه ، ويكتوى بنيران ذاته ؛ مما أوجد من نفسه دَوّامة مَرَضية ، إن صح هذا التعبير ، تمزق النفس بأحوالها المختلفة ، مما من شأنه أن يجعل التناقض طابعاً أصيلا فى تكوينها . ولهذا التناقض من الحدة ما يجعل السيطرة على النفس مستحيلة ، وتنظيم الوجدان فيما بينها و بين بعض عسيرا ؛ لأنه لم تعد توجد بعد هذه السلطة المركزية التى تستطيع الهيمنة على كل هذه القوى المتضاربة . ومن شأن هذا كله أن يجعل صاحب هذه النفس « يعيش على الأرض غريباً عنها ، وكأنه روح شاردة أُلقِيَ بها من عالم آخر » ؛ لأن المشاركة فى أحوال الناس لا تتم إلا بواسطة التوفيق والمساومة والانسجام بين مختلف القوى النفسية فى داخل الذات الواحدة من ناحية ، ثم فى صلتها بالناس والعالم الخارجى من ناحية أخرى . أما الذين يعجزون عن هذا التوفيق ، فيبدون غرباء فى أوطانهم ، يشذ وينأى عنهم أقرباؤهم من بنى الإنسان . وليس له بعد هذا إلا أن يحيا فى وحدة هائلة مع نفسه ؛ وحدة هى فى الآن نفسه اجتماع إلى أعلى درجة ، لأن نفسه ستكون حينئذ عالماً بأكمله ، إذ هو خليط هائل من الأنفس المتعددة

المنقسمة على نفسها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الوَحدة مع النفس الخاصة هي فى الوقت عينه وَحْدة مع الكون بأسره . لهذا ترى صاحبها يشعر بدخول الوجود كله فى نفسه ، حتى تصير « الجبال والأمواج والسموات بُضْعة منى ومن روحى ، كما أنى أنا بُضْعَة منها » (« اتشيد هارولد » ، ٣ : ٧٥ ، ص ١٦٠ من هذا الكتاب) . فإلى هذا الشعور بوحدة الوجود تفضي الوحدة السلبية .

أما الوحدة الإيجابيه فستحيل إلى ازدراء متعالٍ يخيِّل إلى صاحبه فيه أنه فوق مستوى الكل ، وأنه لم يعد فى حاجة إلى أن يتلقى عن الآخرين درساً أو تجربة ، لأنه يتوهم فى نفسه أنه قد عانى كل التجارب ، وأنه « عاش طويلاً فى عالم الأحزان ، وتعمّق الحياة حتى القاع بالأفعال لا بالسنوات ، حتى لم يعد يدهشه شيء ، ولم تَعُدْ سهامُ الحب أو الألم أو الشهرة أو الطموح أو الكفاح تصيب قلبه بنصل الاحتمال الصامت الحاد » (٣ : ٥) ؛ فيلوذ حينئذ بقلعة من الكبرياء المتمرّدة ؛ مما يشيع فى نفسه الهدوء البارد الذى هو أقرب ما يكون إلى اليأس . ولكنه يأس حى ، لأن « فى يأسنا حياةً وأى حياة ، ألا وهي حياة السّم : إنه جذر حيّ يغذى هذه الأغصان الذابلة ، لأن اليأس لن يكون شيئاً ذا بال إن أماتنا » (٣ : ٣٤) . إنه يأس قد علته « بسمة كالحة ، بسمة إن تكن وحشية . . . فإنها مع هذا توحى بابتهاج

لم يفكّر فى طرده عن نفسه » (٣ : ١٦) . وقد يخيّل إليه حينئذ ، بعد أن تحصّن بعدم الاكتراث ، « أنه يستطيع أن يعاشر الناس من جديد . . . وأن روحه قد صارت اليوم من المناعة والأمان بحيث لم تعد تخشي أن يصيبها ما يحزنها ، وإن لم يأتها ما يسرّها » (٣ : ١٠) ؛ « غير أنه سرعان ما يتبين أنه أقل الناس قدرة على استبطان سواد الناس ، ممن لا تجمع بينهم وبينه وشيجة ولا مشابهة . فإن روحه لم تعرف مطلقاً كيف تخضع أفكارها لأفكار الآخرين ، ولم تكن تستطيع أن تخضع إلا لنفسها . إنما كانت ثائرة على كل إيحاء أجنبى ، نخوراً بقنوطها ، قد حملتها الكبرياء على عدم الانقياد إلى أى مخلوق كائناً من كان » (٣ : ١٢) . فيضطر حينئذ أن يعود إلى الطبيعة الحية كيما يجد فيها الأصدقاء له ، بعد أن يئس من بنى الإنسان .

غير أنه لا يستطيع أن يستسلم لهذه الطمأنينة الباردة ، لأن « الهدوء جحيم بالنسبة إلى النفوس المتوثبة ... إن ثمة ناراً وحركة فى النفوس التى تأبى أن تنحصر فى دائرة وجودها الضيقة ، بل تصبو إلى ما وراء حدود الرغبة المتوسطة المعتدلة . إنها حين تشتعل مرة بهذه النار العسيرة الإطفاء ، لتتحرق عطشاً ولُواحاً إلى المخاطر العالية ، ولا تتعب من شيء إلا من الراحة » (٣ : ٤٢) . لهذا نجد فى طبيعة هؤلاء نزوعاً مستمراً نحو آفاق جديدة وأفكار ممتازة ، يخلقونها لأنفسهم إذا لم يتيسر لهم أن يحصلوا عليها فعلا ؛

أو بالأحرى هم لا ينشدونها إلا فى مملكة خيالهم ، لأنهم فى الواقع إنما يجرون دائماً وراء شبحٍ يحاولون اقتناصه وهو يفرّ منهم أبدا ، مما يكوّن فى نفوسهم ذلك القلق العنيف الوثاب الذى يميزهم من دون الناس .

ومن أهم ما يمتاز به هذا النفر من الناس محاولتهم الانفراد عن سواد الناس ، كنتيجة لهذه العزلة التى يأوون إليها أو يخلقونها لأنفسهم خلقاً . فتراه يأتى من الأفعال ما يميزه منهم على أى نحو حتى لو خالف ذلك مبدأه . فعلى الرغم من أنه يكره الناس ، فانه مع هذا لا يشعر بأثرة ؛ بل هو متأهب للتضحية بنفسه فى سبيل الآخرين عند الحاجة . وما هذا منه كواجب أو من باب العطف على الناس ؛ إنما ذلك لأن الناس نادراً ما يؤثرون غيرهم على أنفسهم ، فيريد هو أن يمتاز منهم بهذا الإيثار النادر الوجود . وقد يبلغ به هذا الميل إلى التميز من الناس حد إتيان الجريمة لا لسبب غير هذا . وهى حالة نفسية معروفة تشاهد عند كبار المجرمين المصابين بجنون العظمة الذى يستحيل أحياناً أو يبدو على هيئة رغبة فى إيذاء الآخرين واضطهادهم .

ولأن الحب الحقيقى ليس من هذا العالم الأرضي فى شيء ، فان هذه العاطفة تراها نامية عنده إلى أقصي درجة ، مما يدفع به إلى نشدان أوهام تجور به عن سبيل الوقائع وتقوده إلى خيبة أمل تعصف بحياته . فاتشيلد هارولد قد وهب قدرة على الحب

كبيرة غير متيسرة لأحد من الناس ، فاتجه بها أولا إلى ابنة عمه ماريا اتْشُوورت ، وخيل إليه أن حبه سيتوج بالنجاح ، لكن « هذه التى عشقها وهام غراماً بها ، لم يستطع ، ويا للتعاسة ، أن يظفر بها » (١ : ٥) ، فكانت له عن هذا تجربة مُرّة كان لها فى نفسه أبلغُ الأثر ، مما دفع به إلى التجوال الطائر بين الغادات الحسان دون أن يشعر بالحب نحو إحداهن . ثم كانت له تجربة ثانية أشد من الأولى مرارة وتعاسة ، هى تجربة زواجه البائس ، الذى كان كارثة عظمى فى حياته ، لأن وضاعة امرأة متحذلقة متزمّتة قددفعت بغيرتها إلى التعلق بأوهام كاذبة ، فراحت تكيل التهم لزوجها المسكين ؛ وساعدها فى هذا الاتهام الآثم لذاتها من بنات جنسها اللائى وجدن الفرصة سانحة للانتقام الرهيب من هذا الذى احتقرهن وأمعن فى هذا الاحتقار كلما ازددن تعلقاً به . وما أعنف شهوة الانتقام فى المرأة حين تُحْتَقَر ! فكان لبيرن عن هذه التجارب الأليمة خيبة أمل هائلة فى الحب ، فقنط من الظفر به فى هذا العالم الدنىء : « أيها الحب ! لست من سكان هذه الأرض ؛ أنت مَلَك خفىّ نؤمن به ؛ وأنت دين شهداؤه القلوب المحطمة ؛ ولكن العين المجردة لم ترَك ولن تراك كما يجب أن تكون . إن روح الإنسان هى التى أبدعتك ، كما أبدعت عِلّيين ، بواسطة أحلام تخيلاتها وأهوائها » (٤ : ١٢١) .

فإذا كان الحب هو الآخر على هذا النحو ، فماذا بقى له بعد ؟

لم تبق إلا الطبيعة ، ثم نفسه : « أيتها السماء والجبال والنهر والرياح والبحيرة ، إن لى روحاً قادرة على أن تفهمكم ؛ وفى وسع الليل والسحاب وبروق الصواعق أن يلهمنى ؛ وإن أنغام أصواتك الراحلة لهى كالصليل لكل ما فى نفسي من قلق » (٣ : ٩٦) .
إن الطبيعة هى الأم الحنون التى يستطيع أن يرقد على صدرها ويقتات من حليب ثديها ؛ وهى المعبد الذى يقدّم فيه صلواته ؛ وهو لن يحيا بعد فى نفسه بقدر ما يصير جزءاً مما حواليه .

غير أن هـذه الطبيعة ليست الطبيعة الخارجية بقدر ما هى صورتها الخيالية عنده . فهو لا يريد أن يفنى فيها ، بقدر ما يريد هو منها أن تفنى فيه . لأن العامل الفعّال فى كل أفكاره هو ذاته الخاصة . والنزعة الذاتية المغالية هى ما يميز حبه للطبيعة من حب غيره لها ، خصوصاً الأقدمين من اليونان والرومان . ذلك أن بيرن يريد أن يمتد بنفسه إلى ما وراء كل حد ونهاية ، حتى تنتظم الوجودَ بأسره ، فلا يكون له قانون غير قانونه هو . وهذا الامتداد غازٍ معتدٍ يدفع بجيوشه الجرارة من عواطف ملتهبة ووجدانات مشبوبة وانفعالات حادة إلى اكتساح كل العالم بروحه وخياله . ومن هنا يمتاز هذا العلاء بالنفس عند بيرن منه عند غيره بأنه عنـد الآخرين ، وبخاصة المتصوفة والفلاسفة ، مُسالم وهمى يجرى كله فى قمة العقل الباردة ، ولذا يتّسم بالهدوء ؛ أما عند بيرن فهو عنيف أهوج صاخب ، فيه حرارة وفيه اضطراب ،

تحدوه قوة زَخّارة هدامة شيطانية تحاول أن تنـال كل شيء بالتحطيم لا بالتسليم ، وبالهدم لا بالسلم . لذا تشاهد على جبينه ندوباً وأثاراً حارة لعواصف عاتية تضطرم فى داخل مملـكة خياله . وهذا من شأنه أن يعطى للشعور بالوحدة عنده طابعاً من القسوة والتعالى برغم الآخرين ويبهظ كاهلهم .

كل تلك خصائص نفسية لها نظائرها الفنية . فصفة الازدراء والفردية عنده قد جعلتاه يرغم الطبيعة والموضوعات الخارجية على الدخول فى قوالبه هو الخاصة ، بدلاً من أن يتكيف هو وإياها ويستخلص روحها ؛ فكان يفرض عليها نفسَه وروحه ، ويطبعها بمزاجه الخاص . وما فى طبيعته من اضطراب عاصف قد جعل آثاره الفنية مضطربة النظم ، لم يسيطر على تـكوينها عقل هادئ ينمّيها خطوة فخطوة ، ويحاول أن يوفق بين أجزائها ، ويبنيها حجراً حجراً ، حتى يتكون عن هذا بناء متلاحم متماسك الأجزاء . إنما كان محموماً فى كتابته ، غير منتظم فى تأليفه ، سريعاً فى الانجاز لأنه لا يصبر على التنميق والتوفيق وإحكام الربط بين الأجزاء . ومن هنا لم يبرع فى الموضوعات التى تحتاج إلى تركيب وبناء واتساق نظم ؛ إنما برّز خصوصاً حيث لا يقيده تسلسل ولا تقوده فـكرة تنظيمية موجِّهة لبناء كلى . فلا تجده يسرد الأفـكار بطريقة متصلة ، إنما يقذف بها على هيئة خواطر مستقلّة ، كأنهـا لَمَحات ولوائح ولوامع تهجم على عقله فترتد

بوادهَ شاردةً كأنها البروق . ومن هنا جاء ميله إلى اتخاذ أسلوب الفقرات المنفصلة ، كما يشاهد خصوصاً فى أروع آثاره : «اتشيلد هارولد» ، و « دون چوان » : فالأول مكون من الفقرة المعروفة باسم فقرة اسپنسر ، وتتكون من تسعة أبيات كلها ذوات طول واحد (٥ أقدام) ما عدا البيت الأخير الذى يزيد عنها بقدم سادس ، ويسمى باسم الإسكندرى . والثانى مكوّن من فقرات كل منها ذات أبيات ثمانية . فأسلوب الفقرات هذا قد يسّر له أن يعبر عن خواطره المتناثرة غير متقيد بتسلسل أو اتساق ؛ وإن كان قد خرج عن هـذا الاستقلال بين الفقرات فى بعض الأحيان ، خصوصاً فى النشيد الأخير من « اتشيلد هارولد » .

ولهذا أيضاً لم يبرع إلا فى النواحى الغنائية . فعلى الرغم من أنه طرق كل أنواع الشعر : من قصيدة غنائية ورواية مسرحية وملحمة وشعر قصصي ، فإنها كلها تمتاز بهذا الطابع الغنائى ، لأنها دائماً تعبيرات عن خوالج نفسية متناثرة لا تلتئم لتكوين وحدة كاملة متسقة كما تقتضيه طبيعة المسرحية والملحمة على وجه التخصيص . ذلك أن الفردية المطلقة تستلزم الغنائية فى الشعر ، وتحول إذن بين الفنان و بين السرد المتصل . لذا لا نستطيع أن نعـد مسرحياته وملاحمه وقصصه الشعرية قصصاً وملاحم ومسرحيات بالمعنى الصحيح. ففارق هائل بين مسرحية لشكسپير أو موليير أو راسين أو جيته أو شِلَر ، و بين مسرحية لبيرن . فى

الأولى وَحْدة واتساق بين الأجزاء وإفضاء من البداية إلى النهاية وإحكام لوضع الأجزاء ونموّ مستمر ؛ بينما لا نشاهد فى هذه الأنواع من الشعر عند بيرن غير الانفصال والتمزق والارتجال والاستطرادات التى تجور بالسرد عن غايته . وهذا راجع أيضاً إلى كون هذه الأبنية الأدبية لا يُحكم بناءها إلا صاحبُ العقل المسيطر على العواطف والانفعالات ؛ أما الذى ينساق وراء أى انفعال طارئ وتتجاذبه الوجدانات المتضاربة ، فلا يقدر على البناء والتركيب وإحكام النسج .

وعَرامة الوجدان عند بيرن هى التى تضفى على أوصافه ألوانا زاهية براقة وتشيع فيها روحاً عنيفة قوية . فأكثر أوصافه عادى لا يرتفع إلى ما فوق مستوى المتوسطين من الشعراء ؛ وصوره كثيراً ما تخلو من الطرافة ؛ والخواطر التى يعبر عنها نادراً ما تجد فيها جديداً أو عميقاً ؛ وإحساسه بالطبيعة لا يبلغ من العمق مبلغ إحساس رجل كشلى أو وردزورث فى الشعراء الإنجليز ، أوتيك ونوفالس فى الشعراء الألمان ؛ ولكنه يمتاز من هؤلاء جميعاً بأنه يشيع فى كل أوصافه وصوره وخواطره وإحساسه اضطرابا وعنفاً يهز النفس ويملأ القلب رِعدة وقشعريرة ، لا تجد منها شيئاً عند هؤلاء . والغالبية العظمى من أفكاره مبتذلة مشاعة لا جديد فيها ولا طريف ؛ غير أنها ذات طابع خاص ، لا تستطيع أن تسميه إلا باسم الطابع البيْرنى ، لأنه نسيج وحده ، وإن لم

تقدر على وصفه بوضوح .

واللحن السائد فى كل أشعاره هو لحن الحزن . وهنا لا يكاد يضارعه شاعر آخر ، إن قصدنا بالحزن هنا الحزن الإيجابى الوثاب ، لا ذلك الحزن المستسلم المريض الذى نجده عند بقية الرومنتيك ، وبخاصة فى المدرسة الرومنتيكية الفرنسية . لذا مهر فى وصف هذه الشخصيات الأسيانة التى تناضل فى الحياة مع أعظم القوى الشريرة . فمن النادر أن تجد شاعراً آخر قد رسم هذا القدر من الشخصيات مثل اتشيلد هارولد ولارا ومَنْفرِد وكونراد (بطل قصة « القرصان ») وقابيل . وهذه المهارة إنما ترجع إلى أن هذه الشخصيات المختلفة إنما تمثّل الجوانب المتعدّدة لشخصيته هو : ففيها أكبر توكيد لذاتيته : فهارولد هو بيرن نفسه ، بكل حياته وآماله وأسفاره وتجاربه فى الحياة . وعبثاً حاول بيرن أن يتنصل فى مقدمة النشيدين الأول والثانى من هذه الهوية بين كليهما . إذ سرعان ما وجد القراء فى هارولد شخصية بيرن بأكملها ، حتى عدّوهما شخصاً واحداً منذ البداية ، وحتى اضطر بيرن نفسه إلى الاعتراف بهذا فى النهاية ، إذ ما لبث فى النشيدين الثالث والرابع أن هتك قناعه نهائياً وتبدى سافراً ؛ ولم يعد اسم اتشيلد هارولد غير ذكرى لاسم استعاره لنفسه . ولارا وكونراد يعبران عن جانب الطموح والنزوع إلى الأعمال والميل إلى المخاطرة فى طبيعة بيرن ، على الأقل كما حلم بها أن تكون .

ومَنْفرد يمثّل جانب السموّ والتعالى إلى مرتبة الإله والحنين إلى اللانهائى واللامحدود فى شخصية بيرن ؛ إذ كان يود أن يكون فاوستَ آخر يسعى إلى اكتناه أسرار الوجود والقبض على مفاتيح الحياة وحَلّ لغز الكون . كما نشاهد طبيعة العنف المتحرر والثورة المجدّفة والعصيان العَرِم فى تصوير بيرن لقابيل : فهنا قد أراد أن يعبر عن تمرّده على الخالق ، نظراً لما يراه فى الكون من شر وفساد ، الإنسان المسكين منهما برئ . وتراه يخيِّل إلى نفسه أنه إبليس آخر يود أن ينتقم للإنسان البائس من باريه الذى يعذّبه ويرهقه دون ما ذنب أتاه . وأخيراً نجد شخصية دون چوان تمثل الجانب الحسي الشهوانى فى بيرن ؛ كما تمثل تهكمه القاتل وسخريته الهدامة التى تهزأ بكل ما الوجود ، بعد أن يئست من الظفر بشيء فيه . فإذا كان اتشيلد هارولد يصوّر بيرن الشاب المتوثب إلى تجارب جديدة ، الظامئ إلى الانتهال من ينبوع الحياة قدر المستطاع ، فإن دون چوان يمثل بيرن اليائس الساخر غير المكترث بشيء ولا بحى من الأحياء ؛ فكأن الأول يمثله إذن قبل هجرته النهائية عن وطنه (سنة ١٨١٦) ، ودون چوان يمثل بيرن فى الدور الأخير من حياته بعد هذه الهجرة .

لكن أصدق الشخصيات تعبيراً عن نفسه بأكملها هى شخصية اتشيلد هارولد . فهى تصور بيرن الشاب العاكف على اللذات ؛

لـكن بدرجة أقل مما حدث لهارولد — الذى ورث اسماً ماجداً وقصراً عتيقاً كان مأوى للفضيلة من قبل ، وصار على يديه ملاذاً للعربدة والفجور . فلما بلغ منه الملال ، وخيبت آماله التجارب القاسية لأحوال الناس — من نفاق وخداع — ، فارق قصر أبيه معتزماً التجوال فى القارة الأوربية ، غير آسف على شيء من الأشياء ولا على حى من الأحياء الذين خلفهم من ورائه . وركب سفينة أقلّته إلى أسپانيا ، حيث كانت الحرب الضروس قائمة بين ناپليون من جانب ، والأسبان والإنجليز من جانب آخر . فجاس خلال هذا الاقليم الرائع الجمال وتغنى ببطولة أبنائه وجمال بناته ، وأنحى بأعنف اللوم على المستضعفين منهم الذين لم يحملوا السلاح لطرد الغازى المغتصِب ، ووصف المعارك الطاحنة التى دارت بين كلا الفريقين ، وعرّج على الملاهى الوحشية لهذا الشعب الفطرى مثل مصارعة الثيران . ثم لما انتهى من رحلته فى شبة الجزيرة الإيبرية غادرها إلى بلاد اليونان وألبانيا ؛ فتلبث ملياً عند أثينا ، واستلهم ماضيها المجيد تحت وحى آثارها الرائعة ، وبكى على أطلالها الدارسة ، واستعاد ذكرى مواطنها المقدسة للفن والجمال ، وثار على استسلام الشعب اليونانى للأتراك . ثم ارتحل إلى ألبانيا . وهنا أعجب بشعبها الأبىّ الباسل ، الفطرى الغرائز ، الوحشي الطباع ، فى حمية وأنفة ومروءة ، وأشاد بحاكمها على باشا يانينا . ثم عاد يبكى حظ هِلاس وينعى على أبنائها الأذلاء ، مستنفراً

إياهم إلى الحرب فى سبيل الاستقلال والحرية . وبذا تنتهى هذه الرحلة الأولى .

وبالنشيد الثالث تبدأ الرحلة الثانية التى غادر فيها بلاده إلى غير رجعة ؛ أولا إلى بلچيكا حيث زار مسرح القتال الأخير ، فوصف الأردن وساحة ووترلو ؛ وبكى على صديق له مات شهيداً فى هذه المعركة . وهنا تلبث طويلا كيما يمجد ناپليون ، فكرس لوصفه فقرات خالدة هى من أروع ما كتب عن هذا البطل الجبار .

وغادر بلچيكا إلى بلاد الرين ، حيث وصف مفاتن هذا النهر الجليل الذى يقع فى بقعة من أجمل بقاع الدنيا ؛ واستمر يتابع النهر فى مجراه حتى منابعه فى سويسره إلى أن بلغ بحيرة ليمان (بحيرة چنيف) ذات الذكريات الغرامية الشعرية الخالدة ، حيث استعاد نفسه ونصاعة روحه واتحد بالطبيعة الكلية فى أبهى مجاليها ؛ وعطف على روسو يذكره بكلمات أقرب ما تكون إلى وصف نفسه . وأخيراً وصل إلى إيطاليا ، فحياها بكلمة أولى ؛ ثم أخذ فى زيارة بلادها ، مبتدئاً بالبندقية ، عرافة البحر التى انبعثت من أعماق المحيط ، فتغنى بجندولها الخالد و بحرها الفاتن ، وقصورها وكنائسها ، وتاريخها المجيد فى عالم البحار . ومضى منها يستعيد ذكرى بلادها التى كانت مأوى ناعماً لشعراء إيطاليا الممتازين . حتى وصل روما ، فأقام بها طويلاً يشاهد آثارها التى تتحدث بأبلغ عبارة عن أعظم الأمجاد الحربية وأروع الظواهر الدينية .

وفى خلال هذا كله ، كان يعنى بالبكاء على الديار الخالية والرسوم الدارسة التى تشهد بأن مجداً أوجمالاً أو حقاً كان يقطن هنا ، فكاد أن يستعرض أهم أحداث التاريخ : القديم منه والحديث ، مستخلصاً منه فى كل حين درساً وعبرة . وكان أهم ما لفت نظره إبان هذا كله ، هو مجد الماضي وزواله ، وفعل الزمان الجبّار فى كل شيء يخضع لسلطانه ، وتفاهة كل جهودنا الإنسانية التى لا يلبث العدم أن يبتلعها فى هاويته السحيقة ؛ وعجز الإنسان أمام القدر العاتى الذى يحطم له كل ما أبدعه من آثار رائعة وتحف فاتنة . فآب من هذا كله بحزن دائم ونظرة أسيانة إلى الوجود ، لا سبيل إلى الخلاص من ورائها . إذ هي لا تبصر من وراء الأفق شيئاً ؛ و إذا كانت هذه حال العالم ، و إذا كانت هذه هى الحياة ، فلماذا نطلب حياة أخرى وراءها ؟ ولكن تمرد بيرن لم يستمر إلى أبعد من هذا مما سيشاهد بعد فى تمرد «قابيل» ؛ إنما مال إلى نوع من الاستسلام اليائس الحزين . وهذه الخواطر التى يلذ لبيرن أن يولجها فى كل حين و بعد كل منظر ،كان من شأنها أن تدفع به إلى كثير من الاستطرادات ، مما زاد فى تفكك النسج فى هذه الملحمة .

وهى أفكار وخواطر ليس فيها من جديد إلا الإخلاص فى التعبير عنها . والحق أن بيرن لم يكن عميقاً فى أفكاره ، إنما كان حاداً فى انفعاله و إحساسه ، لذا لم يكن مفكراً ممتازاً أو

شبه ممتاز . فكان جيته إذن صادقاً كل الصدق حين قال عنه : « إنه حين يفكر ، يصير طفلا » . إذ أشعاره وكتاباته كلها خالية من سعة الأفق فى النظر ونفوذ الإدراك واكتناه الأسرار المستغلقة ، مما نجده عند شكسپير أو جيته أو شلر أو حتى عند شلى الذى فاقه فى هذه الناحية من غير شك ، كما فاقه أيضاً فى القدرة على وصف الطبيعة . لكن ما يميز بيرن هو تعبيره عن طابع وجودى معين لا نستطيع أن تستخلصه عند غيره ، أو بوضوح . فالطابع أو النموذج البيرونى نموذج نسيج وحده ، له مميزاته الخاصة ، التى حاول أن يتأثر بها شباب أوربا فى ذلك العصر .

هذا النموذج البيرُنى لن تجد فيه عمق ڤرتَر ، ولا خيال سان پريه ، ولا رقة رينيه ، وهم أقرانه الذين قدموا أنفسهم نماذج عليا للشباب الأوربى فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ أوربا التى شملت الثورة الفرنسية بما سبقها وما تلاها من سنوات كانت تمهيداً أو ذيولا لها وختاماً . إنما ستجد فيه نوعاً من اليأس القوى الدافع إلى عدم الاكتراث ، لا غفلةً ، بل ازدراء واحتقاراً . وستجد فيه نزوعاً عارماً إلى نشدان المخاطر ، واكتساب التجارب الحية الجديدة باستمرار ، وتحقيق الأفعال من وراء الخواطر

والأحلام ؛ وستغزو نفسك نزعة وحنين إلى الحياة المضطربة العاصفة الزاخرة بأعنف العواطف وأنبل الانفعالات ؛ وستقف معه وقفات طويلة عند آثار الماضي وتقرأ فى صفحات التاريخ ، فتخلو إلى نفسك تسألها فى كل حين : إلى أين ؟

فإن استطاع أن ينبئك بشيء من أمرك هذا ، فأنا موفق حقاً إلى ما كنت أريد ؟

مايو سنة ١٩٤٤ **عبد الرحمن بدوى**

أسفار اتشيلد هارولد

للورد بَيْرُن

قصة فروسية

« الكونُ سِفر لم يقرأ منه غير الصفحة الأولى من لم يرَ إلا وطنه . وأنا قد تصفحت منه قدراً وافراً ، فوجدته رديئاً تافهاً . ولكن هذا الامتحان لم يكن عقيماً . فقد كنت أبغضت وطنى . ولكن ألوان العنت التى سامتنى إياها مختلف الشعوب التى عشت بين ظهرانيها هدتنى إلى محبة هذا الوطن . فاذا كنت لم أظفر من أسفارى إلا بهذه الفائدة وحدها ، فكنى هنا كيلا آسف على ما حملتنى هذه الأسفار من متاعب ونفقات »

الكوسموبوليت[1]

---

(١) كتاب نادر عنوانه الكامل هو : الكوسموبوليت ، أو المواطن العالمى ؛ وعليه هذه الشارة : « الوطن هو حيث يعيش المرء سعيداً » . وتاريخه سنة ١٧٥٠ ، ولكنه غفل من اسم المؤلف والناشر . وهو كتاب لاذع السخرية ، من وضع فوجريه دى مونبرون .

مقدمة(1)

تكاد القصيدة التالية أن تكون أوزانها قد ألفت وسط المناظر التى تعرضها : فقد استُهِلّت فى ألبانيا وأنشئت الفقر المتصلة منها باسپانيا والبرتغال وفقاً لمذكرات كتبت إبان زيارة هذين الاقليمين .

تلك ملاحظات لانسوقها هنا عبثا ، إنما هى ضمان لصدق ما بها من أوصاف : أوصاف تتصل الموجودة منها فى النشيد الأول باسپانيا والبرتغال وإپيروس وأكرنانيا واليونان . وهنا تقف القصيدة مؤقتاً : فإن ظفرت من الجمهور بحسن القبول ، فلعل المؤلف أن يجازف باقتياد قرائه حتى يبلغ بهم عاصمة الشرق ، ماراً بأيونيا وافريجيا . وسيُعينه النشيدان اللذان ينشرهما الآن على سؤال الرأى العام .

ولم يكنُ بدٌ من أن ندخل فى القصيدة شخصية خيالية كيما تكون جميع أجزائها على اتصال واتّساق ؛ وعلى الرغم من هذا كله ، فإنى لم أدّع بهذا انى أضفيتُ على كتابى هذا طابع الانتظام المميّز للملاحم . وكان نفر من خِلاّنى الذين أكبرُ

---

(1) هذه المقدمة خاصة بالنشيدين الأولين من الأناشيد الأربعة المكونة لقصيدة اتشيلد هارولد .

أحكامهم فى عينى قد نبهونى إلى ما عساى أن أنزلق إليه من خطر اتهامى بأنى شئتُ أن أرسم خُلْقا واقعياً فى شخص اتشيلد هارولد الخيالى . لهذا أنشد السماح لى بأن أقول بصراحة قولة نهائية إن هارولد من بنات خيالى ، وإنه شخص ابتدعته من أجل قصيدتى . أما فيما يتصل ببعضٍ من التفاصيل المشتركة فيما بيننا ، فلعل من الخير تذكرها ؛ ولكنى آمل ألا يكون المرء فى حاجة إلى هذا التذكر فيما يتصل بالقطع الرئيسية .

ومن نافلة القول أن نذكر أن اسم « اتشيلد » مثل « اتشيلد ووترز » ، و « اتشيلد تشيلدرز » قد استعمل لأنه أكثر تلاؤما مع الإيقاع أو الوزن الذى اتخذته لأبياتى . و « التوديعات » الواردة فى مستهل النشيد الأول قد أوحى بها إلىّ « عِمْ مساء » للورد ماكسوِل ، فى الأشعار الاسكتلندية العتيقة (بوردر منسترلزى) التى نشرها اسكوت . ولعل القارىء أن يجد فى النشيد الأول بعضاً من الفِقَر التى تبدو كأنها ذكريات باقية عن قصائد مختلفة تدور حول اسبانيا ؛ ولكن هذا إنما تم بمحض الاتفاق ، لأنه ، فيما عدا قليلاً من الفقر الشعرية ، قد كتب الجزء الأكبر من « اتشيلد هارولد » فى البحر المتوسط .

والفقرة الشعرية عند اسبنسر تنطوى على عدد هائل من النغمات ، كما حكم بهذا واحد من أشهر شعرائنا . فقد كتب الدكتور بياتى يقول : « لم يمض زمان طويل منذ أن ابتدأت

أنشيء قصيدة على أسلوب اسپنسر وأوزانه ؛ وفيها لذ لى أن أدع السبيل مفتوحاً أمام ذوقى فى الانتقال دوراً فدوراً من اللهجة الفكهة إلى اللهجة المُشْجية ، ومن الوصف إلى العاطفة ، ومما هو رقيق حنون إلى ما هو لاذع مُقْذِع ، وفقاً لما عسي أن يلهمنى إياه مزاجي ؛ لأن الوزن الذى التزمته يحتمل كل هذه الأنواع على السواء (« رسائل بياتى ») . فلما تأيد رأيي برأى حجة كهذا ، ورأى بعض من الشعراء الإيطاليين من الطراز الأول ، لم تَعُد بى حاجة إلى تبرئة نفسي وتبرير مسلكى بإزاء ما وددت اصطناعه من اتخاذ لهجات مختلفة الشيات ، عديدة الأنواع ، ما دمت واثقاً من إننى إذا لم أنجح فى تحقيق ما تصبو إليه نفسي ، فالخطأ إنما يعود إلى فشلى فى تحقيق هذه الغاية ، أولى من أن يكون راجعاً إلى اتخاذ وزن زانه ورفع مناره أريوستو وتومسون و بياتى .

لندن ، فبراير سنة ١٨١٢

فصل تقديم

أعود اليوم فأمسك القلم بعد أن شاركت كل صحفنا الدورية بنصيبها فى نقد كتابى . وليس لدى ما أقوله ضد عدالة ملاحظاتهم بوجه عام . وسأكون متجانفاً إلى الندامة لو أننى صرخت فى وجه انتقاداتهم الخفيفة كل الخفة ؛ فلعلهم كانوا سيكونون أوفر

حظاً من الصدق فى القول ، لو أنهم ، على العكس من هذا ، لم يظهروا نحوى كل هذا العطف . فليتقبلوا جميعاً ، فرداً فرداً ، منى إذن كل دلائل الشكر على هذا الكرم . غير أن ثمة نقطة واحدة أود التجاسر على سوق ملاحظة بإزائها . فمن بين الانتقادات العادلة التى وجهت إلى خُلُق رَحالتى (الذى أقرر دائماً أنه شخص خيالى ، على الرغم من كل ما يقال بخلاف هذا) الغريب الأطوار ، قيل إنه إلى جانب الخطأ التاريخى ، فإن اتشيلد هارولد لم يكن فارساً مطلقاً ، لأن عصر الفروسية كان عصر غرام وشرف الخ الخ . غير أننا نعلم اليوم أن هذه العهود التى ازدهر فيها « الحب المنتسب إلى العهد العتيق السعيد » ، « الحب العتيق » ، كانت عصور الفساد الأكبر . وليس على من يشك فى هذا إلا أن يتصفح بضع صفحات من سان پاليه ، وأن يتلبّث مليًّا عند ص ٦٩ من المجلد الثانى . فالأيمان التى كان يأخذها الفرسان على أنفسهم لم تكن تراعى أكثر مما كانت تراعى الأيمان الأخرى ؛ وأغانى التروبادور لم تكن أكثر عفافاً وعذرّية من أغانى أوڤيد ؛ ولم تكن أخف وقعاً منها أو أكثر تهذّباً . و « قصور الغرام ، ومجالس الحب ، أو الرقة والتهذب » كان فيها من الغرام أكثر مما كان بها من التهذب . وما عليك إلا تنظر فى هذا الصدد رولان وسان پاليه . وأيّاً ما كان الاعتراض الذى تسوقه ضد شخص اتشيد هارولد غير المحبوب ، فإنك لن تستطيع أن تنكر عليه

أنه كان يتحلى بصفات الفروسية — « لم يكن خائلاً ، بل كان من الداوية » (« الصعاليك ، أو الاتفاق المزدوج ») . وإنى لأخشي ألا يكون ترستان ولانصلو خيراً مما كان يجب أن يكوناه ، وإن كانا مع ذلك شخصين ذوى نزعة شعرية سامية ، وفارسين مغوارين « لايهيبهما شيء » ، دون أن « يخلوا من النقائص » .
وإذا كانت قصة نشاة نظام « رباط الجورب » حقيقة وليست بأسطورة ، فإن فرسان هذه الطريقة قد حملوا طوال عدة قرون شُرُط كونتيسة من كونتيسات سالزبُرى ، لا تعنى الناس ذكراها : فما أشرف الفروسية بهذا ! وما كان لبيرك أن يندب هذا النظام ، على الرغم من أن الملكة مارى انطوانيت التى كان يدافع عن قضيتها كانت فى منزلة من الفضيلة تعدل منزلة غالبية السيدات اللائى تكسرت من أجلهن الرماح وجندلت بسببهن الفرُسان .

وقبل أيام بايار إلى أيام سير جوزف بانكس (وهى أكثر الأيام القديمة والحديثة طهراً وعفافاً) ، قليلة هى الشواذ التى تخالف ما قلناه ؛ ويساورنى الخوف من أن قليلا من البحث سيكفى كى يعلمنا ألاّ نأسف على هذه المومياوات الشنيعة التى تعزى إلى العصور الوسطى .

وهأنذا أدع « اتشيلد هارولد » تحيا ما وسعتها الحياة . وقد كان من الأيسر والألذ إلى نفسي أن أصوّر خُلقاً محبوبا ؛ وكان

فى الوسع اسبال القناع على معايبه من غير ما مشقة ، وجعله أكثر أفعالاً وأقل مقالا . ولكنى لم أقصد من تقديمه أن يكون نموذجاً يحتذى ؛ بل كل ما قصدت إليه هو أن أبيّن كيف أن الفساد المبكّر للروح والأخلاق يجرّ إلى السآمة من اللذات الماضية واليأس من اللذات المقبلة ؛ وأن جمال الطبيعة ومباهجها نفسها والبواعث على العمل (اللهم إلا الطموح ، فإنه أقوى المستثيرات) مفقودة التأثير فى مثل هذه النفس الضالة الشاردة . ولو أنى استمررت بقصيدتى مع اتشيلد هارولد ، اذاً لازداد عمق هذا الخُلْق كلما أوفى على النهاية ؛ لأن الصورة الإجمالية التى كان فى عزمى أن أحققها يوماً ما ، كانت فى مجملها ، مع اختلاف قليل ، صورة لتيمون جديد ، أو زاليتوس مصوغاً فى قالب الشعر .

لندن ، سنة ١٨١٣

الإهداء

إلى إيانته[1]

فى الأجواء التى هِمْتُ فيها منذ قليل ، على الرغم مما يقال من أن الجمال كان يعتبر هناك من غير منافس ولا شريك ؛ وفى هذه الرؤى الخيالية التى تسوق إلى القلب ألواناً من الجمال يأسي عليها متنهداً زافراً لأنه لم يرها إلا فى الأحلام ؛ فى هذا كله لم تَبْدُ لى مَنْ تدانيك إن فى الواقع أو فى الخيال . لهذا لن أحاول ، بعد أن رأيتك ، أن أصوّر هذا الألوان من السحر والفتنة التى تعددت وازدهرت . إن كلماتى ستكون إذن عاجزة عن أن تصف من جمالك شيئاً لمن لم يعرفك بعد ! وبأى لسان يستطيع أن يتحدث من رأوك ؟

آه ! ليتك بقيت دائماً كما أنت الآن ؛ فلا تخيبى الآمال التى تشع من ربيعك ! وليتك بقيت هكذا رائعة الجمال ، فيك حرارة ومع ذلك فليس فى قلبك إلا الطهر ، تقدمين إلينا صورة « الحب » العارى من الجناح على هذه الأرض ، وتخلبين ألبابنا بما فيك من براءة عذبة ! أجل إن تلك التى ترعى سنيك فى

---

(١) إيانته هذه هى الفتاة الصغيرة، الليدى شارلوت هارلى (التى صارت فيما بعد ليدى شارلوت بيكون) ؛ وكانت سنها حين تقديم هذا الإهداء إليها الحادية عشرة تقريبا .

شبابك برقة وحنان ، لترى فيك الآن ، وعليك سنا الفتنة ، قوسَ قُزَح سنيها المقبلة ، فتنجاب أحزانها أمام هذه الألوان السماوية والأطياف الملائكية .

أنت يا حورية الغربِ الفتاة ! إن عمرى قد تقضي منه ضعفُ عمرك من السنين ؛ إن عيونى لتستطيع أن ترنو إليك دون أن تحترق بلهيب الغرام ؛ وتتأمل فى غير ما خطرٍ بهاء جمالك الناضج الفتان . وما أسعدنى ألا أراه يوماً يذبل أو يحول ؛ وما أكثر سعادتى حين أرى أنه بينما تَدْمى سائرُ القلوب الشابة من كلومها القاسية ، فإن قلبي سينجو من المصير المقدر لهؤلاء الذين تقضي عيونُك عليهم بالإعجاب بك ، مع ما يجره هذا من عذاب هائل حتى فى أعز ساعات الحب .

أوه ! دعى تلك العين ، الوحشية كعين الغزال ، المضيئة فى روعة وجسارة ؛ دعيها تلك العين التى تأسرنا فى شرودها ، وترحالها ، وتملؤنا بالذهول فى حِلّها وثوائها ؛ دعيها إذن تلقى نظرة إلى هذه الصفحات ، ولا تجعليها تحرم شعرى من هذه البسمة التى يزفر صدرى تحرقاً إليها ، لو أننى كنت لك شيئاً أكثر من صديق. نشدتك الله ، يا غادتى العزيزة ، إلا فعلتِ ما رجوتُ ؛ ولا تسأليني لماذا أتوجه بأناشيدى هذه إلى جمال فتيّ كجمالك ؛ بل دعينى استوكف عطفك كى تسمحى لى بأن أضم زنبقة ناصعة البياض إلى أزهار إكليلي .

إيانته ! هكذا سأمزُج اسمك فى غدائر أشعارى ! وفى كل مرة تُلقى عينٌ حنونٌ نظرة إلى رحلات هارولد ، سيكون اسم إيانته أول ما يتبدى أمام ناظريه ، كما سيكون آخر ما ينساه .
آه ! حينما ينقضي عمرى وتعدُّ سِنِىّ ، أود لو أن هذه التحية القديمة تجتذب بنانك الرَّخْص إلى القيثارة ، قيثارة من تَغَنَّى بك وبما لك من فتنة وإغراء : فهذا أقصي ما تتمناه ذكراى . ولكن إذا كان هذا فوق الرجاء ، فهل للصداقة أن تتطلب أقل منه ؟

النشيد الأول

— ١ —

أنتِ أيتها الموسا[١]، يا من تمثلتك هِلأسُ من أصلاب الآلهة ! أنتِ يا من أبدعك خيال الشعراء ، لطالما أخجلتك قياثير شعرائنا المُحْدَثين حتى لم تعد قيثارتى تجسر على الإهابة بك من فوق رابيتك المقدسة : غير أنى تجولت هنالك على ضفاف ينبوعك[٢] الذائع الصيت . أجل ! لقد أرسلتُ أمواج الزفرات نوحاً على مذابح

(١) الموسا هى آلهات الشعر والموسيقى والرقص وكل الفنون الحرة . وكن بنات زيوس ومنيموزنيه . وعدهن تسع : كليو ، وتشرف على التاريخ ؛ ويوتربا ، وتشرف على الموسيقى ؛ وطاليا ، وتشرف على الملاهى ؛ وملپومنيه ، وتشرف على المآسى ؛ وترپسكورا وتشرف على الرقص ؛ واراتو ، وتشرف على الشعر الغنائى الرقيق الغزل ؛ وپوليهمنيا ، وتشرف على الغناء والخطابة ؛ وكليوپا ، وتشرف على شعر البطولة والملاحم ؛ وأخيراً أورانيا ، وتشرف على الفلك . وكن جميعا تحت قيادة أپولو ، ولذا سمى بقائد الموسا (موساجيتس) ؛ وإن سمى هرقل بهذا الاسم . وكان النخيل والغار وكل ينابيع پندوس وهليكون پرناسوس مقدسة لهن ويمثلن عادة على صورة عذراوات يعلوهن الحياء ويتسمن بالشباب والجمال . ولم تكن تقدم لهن ضحايا ، وكل ما هنالك أعياد تقام باسمهن فى أنحاء مختلفة من بلاد اليونان (هيلاس) ، خصوصا فى تسپيا ، القرية القائمة عند سفح جبل هليكون ، كل خمس سنوات .

(٢) الينبوع الذى يشير إليه بيرون هنا هو كستاليا ، أحد ينابيع جبل البرناس . وقد امتدت رحلة اتشيلد هارولد حتى دِلْف المذكورة بعد .

دلفِ المهجورة من بعيد الزمان ، فى هذا المكان الذى لا يقطع من صمته الأسيان غيرُ همسات ينبوعك العزيز . ولكنى لن أوقظ الأخوات التسع من أجل أن يباركن قصة بسيطة متواضعة وأغنية ساذجة كأغنيتى هاتيك .

— ٢ —

فتى عاش فى جزيرة ألبيون[1] ، لم تستهوه سُبُل الفضيلة أدنى استهواء . فأمضي أيامه فى عربدة فاجرة فادحة ؛ وعكرت عليه اللذات الصاخبة صفوَ الوسن الهادىء فى الليل الساجى ، حتى استكت منها مسامع الليل الغافية . يالله ! لقد انطلق بلا أدنى تأثم ينتهب ألوان الفجور وينتشي بأفحش اللذات الحسية الشهوانية؛ ولم يكن يأسر قلبه من شئون الدنيا غيرُ القيان الفواجر وخلاّن السُّوء الداعرين ، وأبناء الحظ المتباهين ، من أى طبقة كانوا .

— ٣ —

اتشيلد هارولد ، هكذا كان اسمه . أما أصله ومن أين جاء اسمه ، فهذا ما لا يخلق بى ذكره . بل يكفينى أن أقول إنهم كانوا من ذوى الصيت ، وكانوا فى زمانهم مُبَجَّلين ماجدين . ولكن ابناً حقيراً فاسداً يكفى وحده لكى يدنس إلى الأبد اسماً لامعاً بارزاً ، مهما يكن من شدة برقانه فى الماضي ، ومهما تكن

---

(١) جزيرة البيون هى بريطانيا ؛ والمعنى الاشتقاقى لهذا الاسم يدل على البياض ، فسميت به لبياض صخور دوڤر المواجهة للقارة الأوربية .

جلالته آنذاك . ولن يستطيع النَّسَّابون بكل ما فى وسعهم استخراجه من الطين المقبور ، ولا النثر المُبَرْقش أو أكاذيب الشعر المعسولة ، لن يستطيع شيء من هذا كله أن يَسِم بالنُّبْل أفعالا شريرة ، أو أن يضفى المجد على جريمة .

— ٤ —

لقد استضحى اتشيلد هارولد فى شمس الظهيرة لنهار اللذات ، متمليًا منها بما يهوى كالفراشة الهائمة ، ولم يحسب حسابًا لما عسي أن يأتى به الليل القارس من شقاء و إرهاق بعد هذا النهار القصير من حياته . ولكنه لم يكد يقضي من عمره ثُلُثه حتى حلت به الكوارث . فقد أحس بتمام الملال والنفور : فكره الثواء بوطنه ، إذ تبدى له أكثر إيحاشًا وقفرًا من صومعة الراهب الكئيبة .

— ٥ —

فقد جاس خلال أتاويه الشر الطويلة ؛ ولم يشأ التكفير عما اقترف من إثم . و بعث بأحر الزفرات إلى الكثيرات ، مع أنه لم يحب منهن غير واحدة[١] ؛ وهذه التى عشقها وهام غرامًا بها ، لم يستطع ، ويا للتعاسة ، أن يظفر بها . آه ! ما أسعدها أن تنجو من فم هذا الذى كانت قبلاته ستدنس ثغرها الطاهر ! هذا الذى كان سَرْعان ما يهجر جمالها الإلٰهى الرائع ، جريًا وراء شهوات

---

(١) هى مس ماريا انشوورث ، وكانت حينئذ متزوجة .

مبتذلة وضيعة ، ويبدد أموالها وعقارها كى يُجْهز على سؤار مالها في الحياة ؛ هذا الذى لم يشأ يوماً أن ينعم بسلام البيت وهدوء المنزل.

— ٦ —

ولـكن ها هو ذا اتشيلد هارولد الآن ، وقد بَرَّحت بقلبه العلل والآلام ، يريد أن يغادر رفاق العربدة ، وينأى عنهم بعيداً . أجل ، لقد كانت العبرات أحياناً على بتاتٍ أن تنهمر من عينيه ، ولـكن سرعان ما كانت تجمدها الـكبرياء في مكانها ويخلو وحده إلى أشجانه الحالمة . ثم قر رأيه على مغادرة بلاده وزيارة الأجواء المحرقة عِبر البحر . فلما بلغ منه المرح واللذات ، اشتاق أو كاد إلى الحزن والشقاء ، حتى لم يكن ليجد حرجاً في النزول إلى مأوى الظلال (القبر) ، لو كان في ذلك السبيل الوحيد إلى تغيير الجو الذى يحيا فيه .

— ٧ —

فارق اتشيلد قصر أبيه[١] ؛ وكان بناء شامخاً يعلوه الجلال ؛ قد بلغ منه القِدَمُ مبلغاً جعله يبدو على وشك السقوط . ولـكن أجنحته كانت لا تزال تسرى فيها المتانة والأَسْر . لقد كان من قبل مأوى مقدساً ، فصار اليوم محلا للدنس والفجور ؛ في هذا المـكان الذى أوى إليه من قبل الإيمان الساذج ، أصبحت بنات

---

(١) هو قصر نيوستد أبى .

بافوس[١] تغنى وتدير البسمات المغرية . لقد كان مقدساً إلى حد أن كان فى وُسْع الرهبان أن يتخيلوا فيه عدد الأيام السعيدة الخالية ، إذا كانت القصص القديمة صادقة فيما تروى ولم يكن هؤلاء الأولياء الأبرار صادقين .

— ٨ —

ولـكن جبين اتشيلد هارولد كان كثيراً ما تجلله الغيوم الحزينة ، وسط عواصف المرح المفرط الصخب ، وكأن ذكرى حادث رهيب أو عاصفة بائسة قد رقدت فى أعماقه ثم استيقظت فجأة فى تلك اللحظات . ولـكن هذا لم يعرفه أحد ، أو لم يحفل أحد من رفاقه بالتقصي عنه ؛ لأن طبيعته لم تكن تلك الطبيعة المتفتحة الخالية من الصنعة ، التى تجد السلوى فى إطلاق تيار الأشجان ؛ ولم يكن يبحث عن رفيق يعزيه أو يواسيه ، مهما يكن من أمر هذا الحزن المستولى على نفسه .

— ٩ —

ولم يكن أحد يحبه ، على الرغم من أنه كان يدعو إلى قصره

---

(١) بنات بافوس : بافوس مدينة شهيرة فى جزيرة قبرص أنشئت فيما يقال حوالى سنة ١١٨٤ ق . م . وكانت تعبد فيها ڤينوس ، ربة الجمال ، فتضحى لها على مذابحها كل ذكور الحيوانات ، فكان ينبعث عنه عبير فاغم كعبير المر وأعواد البخور . وكان أهلوها مخنثين داعرين إلى أقصى حد ، حتى كانت القوانين المحلية فيها تسمح للعذراوات بأن يحصلن على بائنتهن عن طريق الدعارة .

الشباب العربيد من كل الأنحاء ؛ إنما كان هؤلاء يتملقونه إبان المآدب والحفلات وحدها ، لأنهم كانوا طفيليين لا يدعوهم إليه إلا المرح الحاضر . أواه ! لم يحبه منهم أحد ، ولم تشعر واحدة من القيان بعاطفة الحب نحوه ؛ غير أن النسوة لا يعنيهن إلا الفخفخة والجاه ، فهذان هما وحدهما معبودا النساء . إنهن كالفَراش لا يجتذبهن إلا البريق واللمعان ؛ وإن مامون (إله الثروة والغنى) ينتصر حيث تُخْفِق الملائكة .

— ١٠ —

وكانت لاتشيلد هارولد أمٌّ ؛ لم ينسها قلبُه ؛ ولكنه لم يشأ أن يودعها قبل الرحيل . وكانت له أُخت يُعزها ، ولكنه لم يرها قبل بدء سفره . وإذا كان له أصدقاء ، فإنه لم يقبل منهم أحداً قبلة التوديع . ومع هذا فلا تحسبن من هذا المسلك أنه كان ذا قلب من الصخر الصَّلْد : أيْ هؤلاء الذين تعرفون ما معنى الحب ! إنكم تشعرون تماماً بما يجره على قلبكم من عذابٍ هذا التوديع الأليم ؛ إنه ليحطّم القلب الذى تود هذه النفوس الحبيبة أن تأسو جراحه .

— ١١ —

قصره وممتلكاته ، وإرثه ، والغوانى الباسمات اللائى آنس عندهن السرور ، واللواتى تستطيع عيونهن الزُّرْق النُّجْل ، وغدائرهن الجُفال الناعمة ، وأكفهن الناصعات البياض كالثلج ،

أن تزعزع قداسة الراهب القـانت ؛ هؤلاء اللائى غذّين شهوته الواسعة الفتية . ثم كؤوسه المترعة بأنفس الصهباء وأرق التسنيم ؛ ثم كل هذه الأشياء الداعية إياه إلى انتهاب اللذات ؛ كل هذا قد فارقه دون أن يزفر زفرة أسف على فراقه ؛ ولم يعد يفكر إلا فى اجتياز البحار ، واجتياب بلاد الوثنيين (الشرق) ، والعبور بخط الاستواء ، متلظياً بشمسه المحرقة .

— ١٢ —

انبسط الشراع ، وهبّت ريح رقيقة وكأنها سُرّت بحمله من بلاده عـبر البحار . وسَرعان ما اختفت الصخور البيض أمام ناظريه ، وفنيت فى زَبَد أثاره الموج فى عُرْض الأفق . ولعله تحسّر هنالك على أنه ودّ الرحيل ، ولـكن هذا الخاطر ظل صامتاً مطوياً فى أعماق صدره ، فلم تنبس شفتاه بأية شكاة ، بينا ذَرّف باقى الراكبين الدموع ، شاكين إسراع وفد الريح فى هياج مفرط صخّاب .

— ١٣ —

وما أوفت الشمس على الانحدار إلى أعمـاق الماء ، حتى اجتذب طُنبوره الذى كان يحسن عليه العزف ، وضرب عليه نغمات غير متقنة ، حين خُيّل إليه أنه ليس ثمة أذن غريبة تصغى إليه : وها هى ذى أنامله تعبث بأوتارها ، مردّدة وداعه فى وقت الأصيل الشاحب الـكئيب . وكانت السفينة تطير على الجُودى

بجناحها الناصع كالثلج ، وتراءت لناظريه الشطآن وهى تتراجع بسرعة . فأرسل اتشيلد هارولد لحن « وداعه » الأخير :

— ١ —

وداعاً ! وداعاً ! بلاد الحِمى ... على المـاء تخفين تحت الزَّبَدْ
زياح المسـاء لهـا زفرة ... وللموج قرعٌ طويل الأمَدْ
ويصرخ طيرٌ ؛ وشمسٌ بدت ... تهرول نحو مغيبٍ وَعَدَ :
سلاماً إليـك وأرضِ الحمى ... سلاماً يُرَدَّدُ حتى الأبَدْ !

— ب —

وعما قليـلٍ يعود السَّنا ... سَنَا الصُّبْح يعلو الذُّرى والوِهادْ
أحيِّى الميـاه ، أحيي السما ... ولست أحيي الحمى والبلاد !
وقصرى الجميل ، لقد أقفرت ... مقاصيرهُ وخبا الأَتقـــاد
وعشبٌ غريب علا وجهَهُ ... وكلبِيَ ينبح عنـد الوِصاد

— ج —

هَلُمَّ ، هَلُمَّ ، رفيق الأمين[1] ! ... لماذا البكاء ، علامَ الأنين ؟
أتخشي من الموج طوفانه ؟ ... أم الريح تخشى لديها المنون ؟
دعِ الدمع ينضب فى نبعهِ ... فإن السفين رشـيق متين
يكادُ ينـافس فى سـيره ... من الطير كل سريعٍ مُبين »

---

(١) أخذ بيرون معه أحد أبناء مزارعيه ؛ ولـكنه رده إلى وطنه ثانية فى طارق ، بعد أن مرض شوقا إلى وطنه كما مرض من دوار البحر .

— د —

«— دَعِ الريحَ تهزم في موجها ! فلا الموجَ أخشى ولا ذى الرياحْ :
ولـكنْ ، رئيسى َ ، لا تعجَبنْ إذا كنت أبدو مهيض الجناح
فإنِّى تركتَ أباً حانياً وأماً لها كلٌّ حُبى متاح
وما من صديق لدىَّ سوا هما غـيركم وإله الصبـاح

— هـ —

« حبانى أبى خالصـاً عطفه وبارك حولى بصبر عتيد
ولـكنّ أمىَ ، يا ويلها ! ستشكو وتنحب حتى أعود »
«— كفى يا غلام ، كفى كل ذا خليقٌ بعينيك دمعٌ يجود
إذا كان قلبى بريئا كقلـ بك البرّ ماجف دمعى الصديد

— و —

«هلُمِ، هلُمّ، ولبّي المطيع! لماذا أراك شديد الشحوب ؟
أتخشي الفرنسيس[1] أعداءنا؛ أتفزع من هول ريح هبوب ؟»
« — أتحسب أنِّىَ يا سيدى من الموت أجزع؟ لست الهيُوب
ولـكن زوجاً على عِرْسه يظـل حزينـا إذا ما تغيب

— ز —

ألا إن زوجي وأبناءنا لدى قصركم ، سيدى ، يقطنون
بقرب البحيرة ؛ إن يسألوا عن الأبّ ، أى جواب يكون؟»

---

(١) كانت انجلترا آنذاك (سنة ١٨٠٩) فى حرب مع فرنسا أيام نابليون .

«ـ كفاك، كفاك وليّ المطيع   فمن ذا يلوم على ذى الشجون ؟
ولكننى مرحٌ هازل   أُسَرُّ لهـذا القرار المبين »

— ح —

فمن ذا ، بأنّةِ محبوبةٍ   وزوجٍ ، تكون لديه الثقة ؟
فعما قليـلٍ يجَفُّ من   دموعهما لذّةٌ مُشرقة
وليس أساى على ما مضي   من اللَّهو أو لرؤى مُقْلقه
ولكن همّى أن لا أرى   ورائى شيئاً يحق الملِقه

— ط —

وهأنذا فى الدُّنىٰ مفردٌ   أجوب البحار بريحٍ عَلىّ
لماذا أساى على آخرٍ   ولا فردَ فى الكون يحنو عَلىّ
لعل كلابى تعوى ، إلى   مجىء غريب بخبز شهىّ
فإن غبتُ عنها طويلا نزت   علىّ كأنى لست الوفىّ

— ى —

نفرُّ سريعاً على مُزْبد   من الموج يا مركبى المسرعا
هلُمى إلى أيما موطن   تشائينه ما عدا المخدعا
إليـك سلامىَ يا موجتى !   وإن غبتَ يا موطنى البلقعا
إليـكِ وداعى ! يا قفرتى   كهوفى وقصرى ، وداعاً معا

— ١٤ —

غابت الأرض . وطار المركب تتقاذفه الرياح الموج فى خليج بسكاى العاصف . وها هى ذى أيام أربعة قد انقضت ؛ وما أطل

الخامس ، حتى تبدّى شاطىء جديداً أشاع النشوة فى كل القلوب. فها هى ذى قُنّة جبل السَّنترا[١] تحييهم وهم فى طريقهم ، بينما نهر التاج[٢] يدفع الجزية للبحر من مائه الذهبى المتدافع إلى الأعماق ؛ وسرعان ما وثب ملاح برتغالى على ظهر السفينة كيما يقودها خلال شواطىء تتنزى بها قوى الخصب والنماء ، ويقوم فيها نفر من الفلاحين بالحصاد .

— ١٥ —

بأى سحر تتأمل العين كل ما أبدعته السماء من أجل هذا الجو الجميل ! وأى فاكهة شهية تتراقص عليها الألوان فوق كل الأشجار ! أى مناظر غنية تتراءى من فوق أعالى الروابى ! ما هذه الأيدى الدَّنِسة التى أتت كيما تخرب هذا الاقليم البديع ؟ آه ! حينما يضرب الله العلىّ بيده الجبارة هؤلاء الذين يتحدون قوانينه ، ويخرقون أوامره العليا، سيقذف بسُهمانه النارية جحافل الغال[٣] ، منتقماً منهم أشنع انتقام ، ومطهراً الأرض من أعدائه القُساة .

(١) سنترا مدينة بالبرتغال على مسافة ١٥ ميلا شمال غربى لشبونه .

(٢) نهر التاج يصب فى المحيط الأطلسى ويخترق البرتغال واسبانيا . ويوجد قليل من الذهب فى رماله ؛ ولكن بنسبة قليله . وتلك حقيقة كان يعرفها الأقدمون من الرومان ، إذ ذكرها پلينى وكاتلوس وأوڤيد ؛ لهذا نرى الشعراء الرومان والمحدثون يتغنون بذهبه .

(٣) يشير هنا إلى زحف الجيش الفرنسى بقيادة چينو على بلاد البرتغال ولكنه صد بفضل سير آرثر ولسلى قبل وصول بيرن إلى لشبونه ببضعة أشهر .

— ١٦ —

أى جمال تكشف عنه لشبونه من النظرة الأولى ! إن صورتها لتسبح فوق هذا التيار النبيل الذى صوّره الشعراء مبسوطاً برمال من الذهب . ولكن أمواجه تحمل الآن آلاف السفن ذوات القوة الهائلة ، منذ أن صارت ألبيون حليفة البرتغال ، هذه الأمة المليئة بالكبرياء والجهل ، والتى تقبل وتكره اليد التى تحمل المهنّد كيما تنقذها من براثن سيد بلاد الغال الذى لا يرحم .

— ١٧ —

ولكن الداخل هذه المدينة التى ترف من بعيد كأنها سماوية ، يحس بالألم وخيبة الأمل وهو يجوس خلالها بين كثير من الأشياء التى تقتحمها عينُ الغريب ، لأن القصر والكوخ كليهما يبدو كريهاً تقذى به العيون . وساكنوها البائسون يخوضون فى الأقذار ، فلا يحفل أحدهم ، كبر مرتبةً أو صغر ، بنظافة قميصه أو سترته ، وحتى لو أصابهم الطاعون ، لظلوا فى أقذارهم والغين غير مكترثين .

— ١٨ —

يا لهم من عبيد بائسين ! وإن كانوا قد ولدوا وسط أجمل المناظر وأسماها — لماذا إذن ، أيتها الطبيعة ، تبددين نِعَمك على أمثال هؤلاء ؟ إن جنّة سنترا الرائعة لتتبدى أمامنا فى مناظر من

الروابى والأوداء باهرة الألوان . أوّاه ! أية يد تستطيع أن تقود القلم أو الريشة كيما تصور ولو نصف ما يتراءى للعين من مناظر أشد اثارة للدهشة والفتنة من تلك التى وصفها الشاعر[١] الذى فتح للناس مبهورين أبواب عِلِّيين .

— ١٩ —

ها هنا صخرة وَعْرة يتوجها دير قوطى ؛ وهنا أشجار الفلين تظلل بأغصانها هاوية تحف بها الشجيرات ؛ وعلى الجبل بساط من طحلب سوّته سماء قائظة ؛ وصغار الشجر يزين وادياً عميقاً لم تنفذ إليه يوماً أشعة الشمس ، وزرقة المحيط المستوية ، وقلائد العقيان وهى تتدلى من أوراق أشجار البرتقال الخضر ، والسيول الهابطة فى توثب من الصخور إلى الأوداء ، والكرم الزاحف على منحدرات الروابى ، والسرو المترجح على شاطئ الينابيع ، كل هذا يساهم فى تجميل هذا المنظر الساحر وتنويعه .

---

(١) كتب بيرون إلى أمه يصف منطقة سنترا قائلا : « إنها أبهى منطقة فى كل أوربا ؛ ففيها جمال من كل وصف ،طبيعى وصناعى . فالقصور والمدائن تقوم وسط الصخور والشلالات والهُوىّ ؛ والأديار تشرف على المرتفعات الشامخة ؛ — ومن بعيد يتراءى البحر ونهر التاج » .

(٢) يرى معظم الشراح أن الاشارة هنا إلى دانته فى الفردوس (القسم الثالث من « الملهاة الالهية ») ؛ وقد تكون الاشارة أيضاً إلى ملتن فى الفردوس المفقود (نشيد ٢٤ أبيات ١٣١ — ٩٦٥) كما يلاحظ ا . مورس (فى نشرة مكملن ، لندن سنة ١٩٠٥ ، ص٧٧ من الجزء الأول)

— ٢٠ —

ثم اصعَدْ الشِّعب الملتوى بأناة، وأدر طرفك مراراً كيما تتأمل ما تراه ، ومن الصخور العالية انفُضْ مناظر رائعة جديدة ، ثم استَرْفِهْ عند معبد « سيدة الآلام »[(١)] ، حيث يعرض عليك الرهبان الزهاد بقايا الصالحين المقدسة ، ويروون للغريب مختلف الأساطير : هنا عوقب الفُسَّاق ، وفى تلك المغارة عاش هونور يوس سنين طوالا ، آملا أن يستحق الجنة بجعله الأرض جحيما .

— ٢١ —

وهنا وهناك وأنت تصعد الشِّعاب تشاهد صلباناً خشنة النحت ، ولكن لا تحسبنَّ أنك بهذا ترى قرابين للتقوى ، إنما هى آثار واهية لغضب سفَّاك . فحيث نزف دم الفريسة البائسة تحت سكين السفَّاك ، نصبت أيدٍ صليباً من الأغصان الجافة . والأَوْداء والخمائل مليئة بهذه الذكريات الحزينة ، فى هذا البلد

---

(١) يقوم دير « سيدة الآلام » (أو العقاب) على قمة صخرة ؛ وعلى مقربة من هذه الصخرة وعند أسفلها يوجد دير كورك ، حيث احتفر القديس هونوريوس مغارة قضى بها السنين الطوال من عمره . والقديس هونوريوس هذا راهب مشهور فى هذه المنطقة ، توفى سنة ١٥٩٦ وهو فى سن التسعين ، وليس هو القديس هونوريوس المشهور أحد كبار آباء الكنيسة .

ولكن بيرن قد أخطأ فى فهم الاسم الاسبانى لهذا الدير إذ معناه « سيدة الصخرة » لا « سيدة العقاب » ؛ وتدارك هذا الخطأ فى تعليقه على الطبقة الثانية ، ولكنه لم يشأ أن يغير النص .

المضرج بالدم ، حيث لا قانون يحمى الحياة [١] .

— ٢٢ —

وعند منحدر الروابى أو أعطاف الوادى ترى قصوراً كانت من قبل مساكن للملوك ، ولكنها اليوم خاوية لا تزهر من حولها إلا النباتات الوحشية البرية ، ولم يعد يتحدث عن مجدها القديم إلا بقايا من الأطلال . هناك يقوم قصر أمير البرتغال الجميلُ . وأنت ، يا ابن البيون الثرى ، فاتك [٢] ! ، هنا أيضاً قد أقمت جنّتك ، ناسياً أننا ، حين يُغدِق علينا الحظ والثراء الأهرجان

---

(١) « من المعروف أنه فى خريف سنة ١٨٠٩ حدثت اغتيالات فى شوارع لشبونه وما حولها ؛ ولم تكن الضحايا من الوطنيين وحدهم ، بل إن بعضا من الأنجليز قد اغتيلوا أيضا . وبدلا من القضاء على هذه الجرائم نصح لنا بعدم الاشتراك فى المنازعات التى نشهدها ، حتى لو رأينا أحداً من أبناء وطننا يهاجم . وقد حدث ذات مرة وأنا ذاهب إلى المسرح أننى أوقفت فى الساعة الثانية مساء . وهى ساعة تغص فيها الشوارع بالناس ، وكنا أمام دكان مفتوح ، وكنا اثنين فى العربة . ولحسن الحظ كان معنا سلاحنا ؛ وإلا كنا نحن موضوعا لقصة ، بدلا من أن نكون رواة لها . وليس أمر الاغتيال قاصراً على البرتغال ؛ بل فى صقلية ومالطة يخنق الانجليز إبان الليل ، ولا يعاقب أحد من الصقليين أو المالطيين » (تعليقة بيرن)

(٢) يشير هنا إلى قصة « فاتك » لوليم بكفوردالتى كتبها فى الأصل بالفرنسية ثم ترجمت إلى الانجليزية . وهى قصة شرقية قصيرة ، يصفها بيرن فى تعليقته الأخيرة على « جياور » فيقول إنها تفوق كل تقليداتها فى أوربا ، بما فيها من دقة فى الأسلوب وجمال فى الوصف ، وقوة فى الخيال » .

كنوزها ، لا نستطيع أن ننعم بالسلام السعيد الوديع إلا إذا تجنبنا مغريات الشهوةِ الغدارةَ .

— ٢٣ —

وهنا أنشأت تضع تصميمات اللهو ، تحت رَيْد هذا الجبل المتشح دواماً بالجمال . ولكن قصرك اليوم قد عاد خالياً وحيداً مثلك ، وكأنه مناخ غير مبارك فيه للانسان : فالأشواك الكثيفة لا تكاد تسمح ببلوغ مخادعك المهجورة ، أو أبوابك المفتوحة دائماً . وفى هذا عبرة جديدة لقلب متّعظ : ما أشد بطلان اللذات على الأرض ، ما دام الزمان الذى لا يرحم يغوص بها فى سيله الجارف !

— ٢٤ —

تأمل البهو الذى اجتمع فيه الزعماء منذ حين ! أواه ! إنه قبة تقذى به عين كل بريطانى[1] ! فمن هذا العدو القزّم السافر باستمرار ، الذى يحمل تاج الحماقة ؟ إنه يجلس هناك متدثراً بثوب من البرشمان و إلى جواره قد علّق خاتم وسجلّ أسود كتب عليه أسماء فرسان معروفين ، وتوقيعات عديدة يشير إليها هذا القزم

(١) وقعت اتفاقية سنترا فى قصر مركيزمريلفا . فبعد أن هزم چينو قائد الفرنسيين فى فميرا على يد ولسلى ، حاول الفرنسيون أن يحصلوا على شروط معتدلة من خلفه سير هيو دالرمبل ، فوقعوا معه اتفاقية سنترا هذه التى أثارت ثائرة الانجليز ، لأن فيها تساهلا مع الفرنسيين .

الما كر ضاحكا ساخراً منها بكل قواه .

— ٢٥ —

«العهد» هو الجنى القَزَم الذى سخر من الفرسان المجتمين فى قصر مَرْيلقا : فقد استطاع أن يسلبهم عقولهم (لو كانت لهم حقاً عقول)، وأن يحيل السرور الطافح للأمة إلى حزن وحداد . فجندلت الحماقةُ تاج الظافر ، وكسبت السياسة ما خسره السلاح . فليت الغار يزكو عبثاً لرؤساء كرؤسائنا هؤلاء ! وويل للظافرين لا للمقهورين ، ما دام النصر قد أُهِين على سواحل البرتغال .

— ٢٦ —

ومنذ اجتماع هـذا المؤتمر العسكرى ، تفزع بريطانيا من اسمك ، أى سِنْترا ! والذين بيدهم مقاليد الأمورصاروا يقشعرون فزعاً وتشرَق ألوانُهم ، لو كان فى نفوسهم موضع لحياء . ما ذا سيسمى أبناؤنا هذا العمل الشائن المحمل بالعار ؟ أو لن ينظروا هم وأبناء أحلافنا إلى هؤلاء القواد المحرومين من كل أمجادهم نظرة احتقار وازدراء ؟ إن الأعـداء المهزومين فى المعركة قد صاروا منتصرين فى هذا القصر ، الذى أصبحنا فيه هدفاً لسخرية الأمم فى مستقبل الزمان .

— ٢٧ —

تلك كانت خواطر اتشيلد هارولد ، وهو يسير خلال الجبال متأملا فى وحدة . وإن جمال هذه البقاع ليبعث فيه نشوة السحر ؛

ولكن ها هو ذا يفكر فى القرار منها ، فانه قُلّب فى قلقه أكثر من السُّنُونُو المحلق فى الهواء . وها هو ذا فريسة لخواطر حزينة . فإن هارولد لم يفرض الصمت على التأمل البارد : بل لامه صوتٌ باطن على تبديد شبابه فى حماقات شائنة . ولكنه حينما أراد تأمل الحقيقة ، غشّت على مقلتيه المُخْضَلّتين بالدمع سحابةٌ سوداء.

— ٢٨ —

إلى الجواد ! إلى الجواد ! وها هو ذا يفارق إلى الأبد بقعة سلام[١] ، مع أنها بلسم لروحه : فقد استيقظ من أحلامه، ولكن هذا ليس من أجل أن ينشد الشهوة أو الكأس . إنه يفر ، غير عالم بعد أى مأوى سيلجأ إليه كيما يستريح من أسفاره . ولا بد له من المرور بآلاف المناظر قبل أن يشبع نهمه للترحال ، أو قبل أن يسود الهدوء فى صدره ، أو قبل أن تحنّكه التجارب .

— ٢٩ —

ولكن مَفْرا[٢] تستحق منه أن يتوقف قليلا ، هنا حيث

(١) بعد أن أقام بيرن عشرة أيام فى لشبونه ، أرسل أمتعته إلى جبل طارق عن طريق البحر هى وبعض الخدم ؛ وركب هو ورفاقه وخيولهم متنحين ناحية اشبيلية .

(٢) مفرا مدينة على مسافة ٣٠ ميلا شمال غربى لشبونه ؛ وتحتوى على قصر ودير وكنيسة فخمة . « والأرغنات الستة التى رأيتها فى هذه الكنيسة هى أجمل ما رأيت . ولكن لم يكن فى استطاعتنا سماعها ؛ إنما أكدوا لنا أن أصواتها جديرة بجمالها وفخامتها . ومفرا تدعى اسكوريال البرتغال » (من تعليقة بيرن) .

أقامت قديماً ملكة البرتغال البائسة[١] ، وحيث اختلطت الكنيسة بالبلاط ، وتبودل القداس والرقص المعربد ، والتحم جمع شاذ من الرهبان والأعيان . ولكن فاجرة بابل[٢] قد أقامت هنا قصراً بلغ من الفخامة حداً جعل الناس ينسون الدم الذى أهدرته ، ويركعون أمامها ، أمام تلك التى عرفت كيف تُضفى على جرائمها طلاء من الذهب .

— ٣٠ —

سَرَّح اتشيلد هارولد طَرْفه المجذوب فى أكناف هذه الأودية الخصبة والروابى الحالمة . آه ! لماذا هذه البقاع الفاتنة لا تؤوى إلا شعباً من العبيد! للجبناء الغارقين فى البطالة والرخاوة أن ينعتوا الرحلات بأنها حماقة ، ولهم أن يُدْهَشوا من أن ثمة نفرا جسوراً يغادر الحشايا الناعمة كيما يجابه المتاعب ويواجه مشاق الأسفار الطوال ! إن فى هواء الجبال لعذوبة ورقة وجمالا لن يعرفها مطلقاً الكَسِلُ الوسنان .

— ٣١ —

ذُرَى الجبال يعلوها البياض وتغنى فى الأفق البعيد ..

---

(١) كانت قد أصيبت حينئذ بالجنون .

(٢) الاشارة هنا إلى « نبوءة يوحنا » ، اصحاح ١٧ : ٥ « وعلى جبينها كتب اسم ، سره : بابل العظيمة ، أم الزانيات وينبوع الفسق فى الأرض » . والكلام هنا عن روما الوثنية .

٣١

والأوداء الأقل خصوبة ، ولكنها أشد بهجة ، تتراءى أمام آتشيلد هارولد : إن هذه السهول الشاسعة لا يحوها إلا الأفق. وعلى مدى الإبصار ، تدرك العين مملكة الأسبان حيث يقود الرعاة هذه القطعان المشهورة بصوفها الفاخر. لكن يجب على الراعي اليوم أن يتسلح كيما يستطيع حماية حُمْلانه. إن عدوّاً مخيفاً قد اجتاح اسبانيا : فعلى جميع سكانها أن يناضلوا ، أو يتحملوا أهوال الاستبداد.

— ٣٢ —

فى المِنْطقة التى تلتقى فيها البرتغال بأختها (اسبانيا) ، أتعرف أى حدود تفصل بين المملكتين المتنافستين ؟ وهل فصل التاج بتياره الجارف الهائل قبل أن تنفصل هاتان المملكتان الغيوران ؟ أو هل هى سلسلة جبال سيرا مورينا المتكبرة التى تشمخ بصخورها العاتية ؟ أم هو حد أقامته الصناعة ، كسور الصين العظيم ؟ كلا ! إنه ليس سورا أقامه الناس ، ولا نهرا واسعاً عميقاً ، ولا صخوراً مريعة ، ولا جبالاً شامخة كتلك التى تفصل شبه الجزيرة عن بلاد الغال.

— ٣٣ —

كلا ؛ إنه نهر صغير ذو موج فضي يكاد أن لا يحمل اسما ، وشطئانه الزاهرة تنتسب إلى كلتا المملكتين. هنا ينحنى الراعى على عصاه متأملا فى فراغه الأمواج الهادئة وهى تجرى بين الشعبين

المتعاديين . وأقل الفلاحين الأسبان له من العزة والكبرياء ما لأنبل الدوقات ، فيعرف الفارق بينه وبين العبد من أهل البرتغال ، هؤلاء الذين هم أشد العبيد وضاعة ومسكنة[١] .

— ٣٤ —

وغير بعيد عن هذا الحد الواهى، يدير نهر جواديانا الصاخب قوته فى أمواج داكنة مزمزماً واسعاً ، كما تغنت به من قبل أناشيد الأقدمين . وعلى شاطئيه احتشدت جيوش المغاربة والفرسان وعليهم دروعهم اللامعة . وهنا توقف أسرع الغزاة[٢] وسقط الأبطال ، وانحدرت عمامة المسلم وخوذة النصرانى فى النهر الدامى الطافح بالجثث الطافية .

— ٣٥ —

إيه اسبانيا العزيزة ! أيها البلد الحالم المشهور ! أين اللواء الذى حمله بيلاچيو ، حينما دعا والد كافا[٣] الخائن عصبة المحار بين الذين

(١) فى سنة ١٨١٢ أضاف بيرن هذه الحاشية : « لقد وصفت البرتغاليين كما رأيتهم آنذاك . ولكنهم تقدموا منذ ذلك الحين ، على الأقل من ناحية الشجاعة . فالأعمال الأخيرة التى قام بها لورد ولنجتن قد محت مخازى سنترا . أجل لقد فعل المعجزات ، فلعله قد غير من أخلاق هذه الأمة ، ووراءه بين الخرافات المتنابذة ، وقهر عدواً لم ينسحب مطلقا أمام آخرين » .

(٢) هو نابليون .

(٣) كافا « هى ابنة الكونت چوليان ، هيلانة اسبانيا . لقد حافظ بيلاچيو على استقلاله معتصما بجبال استوريا ، وبعد بضعة قرون رأت ذرية رفاقه مجهوداته وقد تكللت بغزو غرناطة » (تعليقة بيرن) .

ضرجوا بدماء القوط جداول جبالك ؟ أين هذه البنود الدامية التى نشرت فوق رؤوس أبنائك ، والتى توَّجها النصر فطردوا المهاجمين المعتدين حتى سواحلهم السود ؟ لقد أحاطت بالصليب هالة من الأرجوان ؛ وعلا الهلال شحوب ، حينما رددت أصداء أفريقيا صرخات الأمهات الأليمة فى مراكش .

— ٣٦ —

إن الملاحم الشعبية لتروى بعدُ هذه الأعمالَ المجيدة . وهذا ، ويالللأسف ! أجمل مصير يلقاه المحارب : فحين يتهدم المرمر ، وتُفقَد سجلات التاريخ ، تخلد أناشيدُ الرعاة ذكرى على وشك أن تموت . أيها الرجل المتكبر التيّاه ، تجاسَرْ على تأمُّل نفسك : انظر كيف يبلغ الأبطالُ مسامع الخَلَف فى أغنية . أو تأمُّل أن تخلد الكتب والأعمدة والتماثيل ذكراك وأمجادك ؟ وهل تحسب أنك لا بد واثق بلسان الرواية البسيط ، حينما يرقد معك فى قبرك متملقوك ، ولا يفيك التاريخ مالك من حقوق ؟

— ٣٧ —

هبوا إذن يا أبناء اسبانيا ! ألا فلتهبوا ! إلى الأمام ! أصيخوا

= والاشارة هنا إلى كيفية فتح العرب لاسبانيا ، بأن استنجد الكونت جوليان بالعرب لكى ينصروه على رودريك الذى هتك عرض ابنته فلورنده ؛ إذ ما كاد يسمع جوليان بالعار الذى لحق ابنته بينما كان يدافع هو عن سبته ضد العرب ، حتى تحالف مع موسى ابن نصير وعاونه على غزو العرب لشبه الجزيرة الاسبانية .

إلى الفروسية ، إلاهتكم القديمة ، وهى تستنفركم . إنها لم تعد تحرك بعد ، كما كانت تفعل من قبل ، رمحها العطشان ، وإن نبضتها لم تعد مزينة بريشها القرمزى فى الهواء : إنها اليوم تطير فى دخان صواعقكم الملتهبة ، وتتحدث بلغة الرعد فى زئير هذه الآلة . وهى تصيح فى كل زمجرة قائلة : « هبوا ! هبوا ! » . فهل صوتها أشد ضعفاً منه حينما كانت أناشيدها الحربية تتردد على سواحل الأندلس ؟

— ٣٨ —

أصغ ! أولا تسمع صوت هذه السنابك بنغمتها المخيفة وقعقعة السلاح على المروج ؟ أولا ترى هؤلاء الذين يرديهم حد الظباة الدامية ؟ ألا تنفر كيما تنقذ إخوانك قبل أن يسقطوا صرعى للطغاة وعبيداً لهم ؟ إن نيران الموت والقنابل الملتهبة تتطاير من كل مكان . وإن كل طلقة لتتردد من صخرة إلى صخرة منبئة بأن آلافاً قد فارقوا الحياة . آه ! إن الموت ليركب متن الريح الشرقية المحملة بالكبريت ، وإن « المعركة » الحمراء لتطبع قدميها ، والأمم تنتابها هذه الصدمة العاتية .

— ٣٩ —

انظر إلى هذا المارد الجبار (إله الحرب) قائماً فوق الجبل ؛ إن ذوائبه مضرجة بالدم القانى فى الشمس المتوهجة ؛ وفى يديه سهمان الموت ترف فى قوة واختيال ؛ وعينه تذيب كل ما تقع

عليه ، وتدور فى غير انقطاع ، حينا ثابتة ، وحيناً ترمى بالشرر .
وعند رجليه قد جلس « الخراب » كيما يسجل ما يحدث من
ويلات : فإن ثلاث دول قوية ستتلاقى هذا الصباح[1] كيما
تصب على مذبحه الدم الذى يتبينه ويراه أعذب ما يريد .

— ٤٠ —

يا للسماء ! ما أجمل هـذا المنظر عند من ليس له فيهم أخ
ولا صديق ، وكم يلذ له أن يتأمل ألويتهم المختلفة الألوان ،
وأسلحتهم البراقة فى نور النهار ! يا لهم من كلاب حرب هبت
من مغارتها وأحدت أنيابها ، وهى تصيح من أجل فريستها !
كلهم يشارك فى الصيد ، وقليلون من يظفرون بحظهم من الانتصار ؛
وسيضم القبر خيرتهم ، ولا يكاد إله الذابح أن يستطيع إحصاء
قتلاهم من فرط سروره .

— ٤١ —

ثلاثة جحافل تحتشد لتقديم هـذه الضحايا الدامية ؛ ثلاثة
ألسنة ترسل أغرب الصيحات إلى أعلى السماء ؛ وثلاثة ألوية
زاهية ترفرف تحت قبة السماء الشاحبة ؛ وتتعالى صيحات فرنسا

---

(١) فى معركة تلفيرا التى التقت فيها جيوش ولسلى الأنجليزية بالجيوش
الفرنسية . فقد قامت الجيوش الفرنسية بهجوم هائل على مواقع الأنجليز
فى ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٩ ، ولكنه صد . وكانت معركة مخيفة قتل فيها
سبعة آلاف من الأنجليز . ولم يشهد بيرن المعركة ، مع أن رحلته من
لشبونه إلى اشبيلية تقع فى نفس الشهر ، ولكنه لم يكن قريبا كل القرب
من ميدانها .

وأسبانيا وانجلترا هاتفة كلٌ بالانتصار !

لقد اجتمع العدو والفريسة ، والحليفة العزيزة التى تحارب من أجل الكل ، ولكن عبثا — كل هؤلاء قد احتشد جمعهم فى سهل تَلْفيرا ، وكأن الموت لم يكن ليأخذهم فى مساكنهم — كيما يكونوا غذاء لجوارح الطير ، وكيما يخصبوا الحقول التى يصطرعون من أجل الاستيلاء عليها .

— ٤٢ —

فرائس الطمع هؤلاء — إنهم هنا سيصيرون فرائس للدود ! أجل إن الشرف سيجلل المرج المشتمل على رفاتهم ! يا له من دَجْل عجيب ! إننى لا أرى فى هؤلاء غير آلات بائسة حقيرة يضحى الطغاة[1] بالآلاف منها ، حينما يتجاسرون على أن يعبّدوا بالقلوب الإنسانية طريقهم — إلى ماذا ؟ — إلى حُلْم فحسب . هل يستطيع الطغاة أن يحيطوا بما يدين لهم بالولاء ؟ أو هل يستطيعون أن يدّعوا حقاً أن بقعة من الأرض لهم ، غير تلك التى أفعموها بالعظام فوق العظام ؟

— ٤٣ —

إيه يا ألبويرا[2] ! أى ميدان الأحزان المشهور ! حينما دفع

(١) يشير هنا إلى نابليون ؛ ولعله يشير أيضا الى وليم بت ، رئيس وزراء انجلترا حينئذ .

(٢) وقعت هذه المعركة فى مايو سنة ١٨١١ ؛ ولهذا فان هذه الفقرة لا تنتسب إلى الصيغة الأولى لهذه القصيدة ، إنما أضيفت اليها بعد عود بيرن الى انجلترا .

الرحالة (آتشيلد هارولد) بجواد، فوق سهلك المنبسط ، من كان يظن أو يتنبأ أنك ستصير عما قليل مسرحاً يتلاقى فيه المتعادون كيما يتفاخروا و ينزفوا دماءهم ؟ سلام على أرواح المقتولين ! ألا ليت الدموع المذروفة على هؤلاء المحاربين تخلد ذكرى أمجادهم ! إن اسمك يا ألبويرا سيظل تردده الجموع المشدوهة ، وسيظل يرف في أغانٍ زائلة ، حتى تقع ضحايا أخرى فى ميادين أخرى .

— ٤٤ —

كفى هذا عن عبيد الحروب ! دعهم يقامرون بحياتهم ، و يزهقون أرواحهم فى سبيل الشهرة : الشهرة التى لا تكاد تقدر على إحياء بقاياهم فى التراب ، ولو أن الآلاف يسقطون فى حومة الوغى كيما يرفعوا اسم واحد فحسب . ولكن من القسوة أن نزجر هؤلاء الذين سقطوا من أجل خير وطنهم ، وأن نلومهم على غايتهم النبيلة ، وهم يموتون لأن الحياة كانت ستصبح عاراً بالنسبة إليهم ، لو أنهم قتلوا فى ثورة داخلية ، أو سلكوا سبيل النّهب الوحشىّ الضيقَ .

— ٤٥ —

ثم تابع هارولد طريقه المتوحدة مهرولاً بشدة نحو البقاع التى أنفت فيها أشبيلية الخضوع للغزاة[١] . إنها لا تزال حرة ،

(١) لم يدخل الفرنسيون أشبيلية إلا بعد زيارة بيرن لها بستة أشهر، فتحققت حينئذ نبوءته .

هذه المدينة التى رام هؤلاء أن يجعلوا منها فريسة لهم طيبة .
ولكن الغزو سرعان ما سيشق طريقه إليها ، وسرعان ما سيجلل
قصورها الناصعة بآثاره الجارفة الهدامة . ساعة لا مفر منها !
عبثا يحاول المرء الكفاح ضد القدر ، حينما يأتى الخراب فيحل
هو وأبناؤه الجائعون مكاناً آمنا . ولو كان فى الوسع تجنب
أحكامه ، لما حل الدمار بإليون [1] وصور ، ولا انتصرت الفضيلة
على كل العقبات ، ولدالت دولة الاغتيال .

— ٤٦ —

ولكن أهلها غير شاعرين بهذا المصير ، فتراهم فى الأعياد
والأغانى والملاهي غارقين . والساعات تمضي وسط ألوان من العربدة
غريبة . إنهم لا تدمى قلوبهم لجراح وطنهم . فلا يسمع صوت
نفير الحرب ، بل لحن قيثار الأحبة . هنا المجون قد استعبد مريديه ؛
والدعارة ذات العينين الفتيتين تتجول جولاتها الليلية ؛ والشهوة
تسود وتبسط سلطانها حتى نهاية أسوار أشبيلية المتداعية ، وفى
رفقتها جرائم العواصم السرية .

(١) إليون ، قلعة فى طروادة بناها إلوس ، أحد ملوك طروادة ،
ومن هنا سميت بهذا الاسم ؛ ولكنها تستعمل غالبا للدلالة على طروادة
نفسها ، كما هنا . ويظن بعض المؤرخين أن المدينة كانت تسمى إليون ،
وأن المنطقة المجاورة هى التى كانت تسمى طروادة .

أما صور فمدينة قديمة من مدن الفينيقيين ، بناها أهل صيدا ؛ وقد
حافظت على استقلالها حتى زمن الاسكندر الأكبر التى استولى عليها
عنوة بعد حصار دام سبعة أشهر فى ٢٠ أغسطس سنة ٣٣٢ ق . م .

— ٤٧ —

على خلاف هذا ، الحالُ فى الريف ؛ فرجل القرية يختفى فى حمى أمين هو وحبيبته ، ويخشي أن يمد طرفه الباكى إلى بعيد ، خوفاً من أن يرى كرومه وقد خربت أو دمرت من فعل نيران الأعادى . آه ! لم يعد الوقت وقت رقص فى ضوء نجمة المساء ، رقص « الفندنجو »[١] بمسايرة الصُّنُج المرِح . آه ، أيها السلاطين ، لو أنكم تستطيعون تذوق اللهو الذى تفسدونه ، إذن لما ذهبتم وراء المجد تكدّون فى تحصيله ، وإذن لما عكّر صوت الطبل الأصحل القبيح صفوَ النوم ، ولنعِم الإنسان بالسعادة والسلام.

— ٤٨ —

بماذا يتغنى المُكارى الشديدة الأسْر ؟ أيتغنى بالحب والمغامرات أو العبادة ، كيما يرفه عن نفسه فى طريقه الشاق الطويل ، على صوت الجلاجل المعلقة فى رقبة بغله ؟ كلا ، إنه لا يتغنى بعد إلا بهذه الصيحة « يحيا الملك » ![٢] ، ثم يتوقف عن الصياح

(١) رقصة اسبانية بطيئة الخطوات من ٦ الى ٨ ، ترقص بمسايرة صنجات ؛ ويظهر أنها من أصل مغربى عربى .

(٢) « يحيا الملك فرناندو ! » هذا هو القرار الذى يتكرر فى معظم الأغانى الوطنية فى اسبانيا ؛ وهى أناشيد تكاد كلها أن تكون موجهة ضد الملك القديم شارل ، والملكة زوجته وأمير السلام . وأنا قد سمعت منها الكثير ، وكانت عذبة الألحان . أما جودواى ، أمير السلام ، فقد ولد فى باداخوث على حدود البرتغال ؛ وكان فى البدء فى الحرس ، فلفت نظر الملكة ، فصار دوق الئوديا ، الخ . والاسبان يعزون خراب وطنهم الى جودواى هذا » (بيرن)

كيما يلعن جودواى ، والملك القديم شارل ، واليوم الذى رأت فيـه ملـكة أسبانيا الفتى ذا العيون السود ، ونشأت الخيانة الملطخة الوجه بالدم من غرامها الفاجر .

— ٤٩ —

فى هذا السهل المنبسط الفسيح التى تتوّج الصخورُ مشارفه ، هنا حيث أقام المسلمون أبراجهم ، شققت سنابك الخيل الأرضَ الدامية ؛ والمرج الـكابى من فعل النار يشهد بأن العدو قد حل إقليم الأندلس : فها هنا قد نصب مُعَسكره ، وأذكى نيران الحراسة ، وأقام الجحافل والطلائع ؛ وها هنا عصف الفلاح الشجاع بغار المراقب الـكامن فى مَرْبأته ؛ وهو لا يزال ينظر إلى هذا المـكان بأنفة وشموخ ، ويشير إلى هذه الصخور التى كثيراً ما فُقِدت واستردت .

— ٥٠ —

كل من تلقى خلال الطرقات يحمل فى قبعته شـارة [١] قِرْمِزِية اللون ، تنبئك عما إذا كان صاحبها عدواً أو صديقاً . وويل لمن يجرؤ على الظهور أمام الناس دون هذا الرمز الصادق على الإخلاص ! إذن سرعان ما يُشْحَذُ الخنجر ، وتنهال عليه الطعنات . ولو أن الخناجر الختّالة المخفاة تحت المعاطف استطاعت

(١) الشارة الحمراء التى كتب عليها اسم الملك فرنندو .

أن تفُل السيوف أو تبدد دخان المدافع ، إذن لكان العدو الغالى (فرنسا) قد طرد شر طردة .

— ٥١ —

وعلى مدى النظر ترى كل صخرة من صخور مورينا تحمل ثلة من المدافع ؛ وإلى أقصي مدى يبلغه البصر ، تشاهد القنابل والطرقات المقطوعة ، والحواجز الشائكة ، والشقوق المغمورة بالمياه ، والكتائب المدججة السلاح ، والحراسة الساهرة باستمرار ومستودعات السلاح والذخيرة وقد شُقّت فى الصخر ، والجواد المسرج تحت ظل تعريشة ، والقذائف المتراكمة على هيئة أهرام [1] ؛ والنيران الموقدة على الدوام تنبئ عن أنهم فى انتظار الأعداء .

— ٥٢ —

وهذا الذى نظرةٌ منه كافية كيما تهوى بالملوك عن عروشها قد تلبث لحظة قبل أن يرفع صولجانه ؛ وعما قليل ستستطيع فيالقه أن تشق لنفسها طريقاً خلال هذه العقبات الواهية ؛ وسيضطر الغرب إلى المثول أمام داهية العالم . آه ! أى أسبانيا ! كم سيكون كئيباً ذلك اليوم المخيف الذى سترين فيه أبناءك

---

(١) « كل من رأوا ثلة مدافع (بطارية) يذكرون أن القنابل تنتظم على هيئة هرم . وقد كانت سيرامورينا مغطاة باستحكامات فى كل المضايق والشعاب التى مررت بها فى طريقى إلى أشبيلية . » (تعليقة بيرن) .

يسّاقطون جماعات فى هاوية الفناء ، بينما تبسط حِدَأة الغال أجنحتها المريعة .

— ٥٣ —

أوَ يجب أن يسقطوا صرعى ، هؤلاء الشبان الجسورون الباهر والجلال من أجل أن يشبعوا نهمة طاغية منتفخ بشهوة السيادة والسلطان ؟ أليس ثمة طريق بين العبودية والقبر ؟ بين قيام السلب والنهب وبين سقوط أسبانيا ؟ وهل «القوة» التى يعبدها الناس تأمر بإفنائهم ، ولا ترعى توسل المستغيث ؟ وهل كل ما تفعله القيمة العليا والشجاعة العنيدة يذهب أدراج الرياح ؟ وهل تذهب عبثاً حكمة الحكماء ، و الغَيرة الوطنية ومهارة الكبار ، وحماسة الصغار ، وقلب الرجولة الفولاذى ؟

— ٥٤ —

أمن أجل هذا علقت الفتاة الأسبانية ، بعد أن استيقظت ، قيثارتَها المرتخية الأوتار على شجرة الصفصاف ؛ ونسيت جنسها ، فحملت خنجراً وأنشدت أنشودة عالية ، وقذفت بنفسها فى أتُّون الحرب ؟ وهذه التى كانت تمتلئ رُعْباً من مجرد رؤية جُرْح ، وتستشعر الرَّوْع من نعيب البوم ، أصبحت اليوم لا تكاد تتأثر من رؤية لمعان السيوف واصطراع حراب البنادق ، وصارت تطأ بقدميها الجنود المحتَضَرين ، وتسير بخطا مينرفا حيث يرتاع إله الحرب نفسه من المسير .

— ٥٥ —

وأنتم يا من ستعجبون حينما تستمعون إلى قصتها [1] ، لو عرفتموها فى ساعاتها العذبة ، ولاحظتم سواد عينها الذى يفوق سواد نقابها الفاحم وسمعتم أنغامها العذبة الحية تتجاوب بها خمائل الغرام ، ورأيتم غدائرها الطوال التى تتحدى قوة الفنان ، وقوامها السحرى وجاذبيتها التى فوق كل أنوثة ، لو عرفتموها فى كل تلك الأحوال ، هل كنتم تظنون أن أبراج سَرَقسطة ستراها يوماً تبسم عند اقتراب الخطر وفى وجهه الرهيب ، وتتأمَّر على صفوف المحاربين ، وتقود قنصَ المجد المريعَ ؟

— ٥٦ —

حبيبها يسقط صريعا — فلا تذرف دمعة ليس هذا أوانها ؛ رئيسها يقتل — فتشغل مكانه الملىء بالأخطار ؛ رفاقها يولون الأدبار — فتعترض سبيل فرارهم الخائر الرعديد؛ العدو ينسحب — فتندفع على رأس الظافرين . فمن يستطيع خيراً منها أن يهدىء

(١) الاشارة هنا إلى فتاة سرقسطه؛ وهى فتاة جميلة فى الحادية والعشرين؛ لما رأت جيشها سقط فى حومة القتال ، أخذت مكانه عند المدفع ، وكان ذلك فى الحصار الذى أقيم سنة ١٨٠٨ ، ثم رفع ؛ ولكن الفرنسيين أعادوا الكرة بقوة أكبر ، حتى استولوا على سرقسطه فى سنة ١٨٠٩ .
وبيرن يقول فى التعليق : « فتاة سرقسطة التى رفعتها شجاعتها إلى أعلى مراتب البطولة . وحينما كان المؤلف فى اشبيلية ، كانت تتمشى يوميا على شاطىء البرادو ، مزينة بالأوسمة والمداليات التى أهدتها الحكومة اليها » .

ثائرة شبح الحبيب ؟ من ذا يستطيع مثلها أن ينتقم لسقوط القائد ؟ من يقدر مثلها أن يبعث الأمل فى نفوس اليائسين ؟ من ذا الذى طارد العدو الهارب (فرنسا) الذى صرعته يد امرأة ، وألجأه إلى سور ، وانهال عليه عنده بأعنف الضربات ؟

— ٥٧ —

ولكن فتيات أسبانيا لسن جنساً من الأمَزونات [١] ، ولكنهن خلقن لكل أنواع الحب الساحرة : فعلى الرغم من أنهن ينافسن أبناء أسبانيا فى حمل السلاح وخوض غمار الوغى ، ويتخذن مكانهن وسط صفوف الكتائب المسلحة ، فإن حماستهن الحربية ليست إلا عنف الحمامة الحنون التى تنقر اليد التى تمتد إلى رفيقها . إنهن أسمى من فتيات بقية البلدان بما فيهن من رقة وشجاعة معاً ، بينما الأخريات لسن مشهورات إلا بثرثرتهن الجالبة للأوصاب . إن عقول فتيات أسبانيا أعظم نبلا ، وسحرهن أعظم قدراً ونفوذاً .

(١) الأمزونات جنس من النسوة المشهورات ، كن يسكن قرب نهر ثرمودون فى كابودوكيا ؛ وكن يقضين حياتهن كلها فى حروب وتمرينات رياضية عسكرية ؛ وكن لا يتصلن بالرجال ؛ ولكنهن كن ، من أجل الذرية وحدها ، يزرن سكان المناطق المجاورة لبضعة أيام قلائل . وما يلدن من ذكور كن يبعثن بهم إلى آبائهم ، وبعضهم يقول إنهم كانوا يقتلون بمجرد الميلاد ؛ أما الأناث فكن يربين فى المنزل خير تربية . ولهن مغامرات حربية عظيمة فى آسيا الصغرى مع اليونان وبقية الشعوب حتى كانت لهن امبراطورية ضخمة . وبنين مدناً عظيمة منها أزمير ومغنسيا وأفسوس.

— ٥٨ —

إن النُّونة التى طبعها بنان الحب (١) على خدها الأسيل لتكشف عن نعومة الذقن التى تحمل شفاها تشتاق قبلاتها لمغادرة عشها ، وتأمر الحبيب أن يكون شجاعاً مقداماً حتى يكون جديراً بها . يا لوحشية جمال نظراتها ! عبثاً حاولت الشمس أن تسلب بَشَرتها بضاضتها ، وخدها حرارته وهو يتوهج بلطف من مَسها الغرامى . فمن ذا ينشد بعد هذا غادات الشمال الشاحبات ؟ كم تتبدى صورهن شاحبة إلى جوارهن ! وكم يترائين واهنـات ناحلات ذابلات !

— ٥٩ —

وأنت أيتها الأجواء التى لذ للشعراء التغنى بهـا ! أنت ، يا حريم البلاد ! أنتِ يا من فيك أضرب الآن على قيثارتى (٢) مُحيّياً من بعيد هذا الجمال الذى لا يستطيع انكاره جاحد غير مكترث . وهذه الحوريات ، اللائى لا تـكادون تسمحون لهن بتنسم الهواء الحر الطليق مخافة أن يطير إليهن الحب على أجنحة

(١) كتب بيرن إلى أمه يقول : « إن الشعور السود الطوال ، والعيون السود الفاترة اللحظ ، ولونا زيتونيا ناصعا ، وأشكالا كلها رشاقة فى الحركات لا يستطيع ادراكها الانجليز الذين تعودوا المظهر الناعس الفاتر لبيئات وطنهم ، ثم كل هذه الهبات الطبيعية التى زاد من جمالها أروع الزينة وأعفها معاً ، كل هذا يجعل جمال الفتاة الإسبانية فيه لإغراء لا يقاوم » .

(٢) « كتبت هذه الفقرة فى تركيا » (بيرن) .

الرياح ، هل يمكن أن يقارن بفتيات أسبانيا ذوات العيون السود ؟ ألا فلتعترفوا بأن هناك (فى أسبانيا) الجنةَ التى وعد بها نبيُّكم الحكيم ، ففيها الحوريات ذوات العيون السود اللائى يشبهن الملائكة .

— ٦٠ —

وأنت يا جبل [1] البرناس ، يا من أراه ماثلاً أمامى الآن ، لا فى أطياف الخيال ورؤيا الأحلام ، ولا فى المناظر الخلابة التى تزوّرها قصيدة شاعر ، ولكنى أراك بكل جلالك محلقاً تُجَلّلُك الثلوج فى سماء وطنك ، وعليك فخامة وحشية وروعة جبلية ! فهل من عجب إذن فى أن أحاول الآن الغناء ؟ إن أشد حُجاجك تواضعاً لا يستطيع أن يمر بك دون أن يهز أوتاره كيما يناغى أصداءك ، على الرغم من أنه لم تعد ثمة موسا واحدة ترفرف بأجنحتها فوق أعاليك .

(١) هذه الفقرات التالية قد ألفت فى كاسترى (دلف) عند حضيض جبل البرناس الذى يحمل اليوم اسم لياكورا . « فبينما كنت أصعد البرناس لزيارة ينبوع دلف (كاسترى) فى سنة ١٨٠٩ ، رأيت سرباً من اثنى عشر نسرا (ويزعم هوبهوس انها كانت حدأة) فتفاءلت بها خيرا . وفى المساء أنشأت الأشعار الموجهة إلى البرناس فى اتشيلد هارولد ، فرؤية الطير جعلتنى آمل أن يتقبل أبولون صلواتى . ذلك أننى قد ذاع عنى أننى شاعر ، فى الفترة الشعرية بين العشرين والثلاثين من عمرى ؟ فهل يستمر هذا ؟ تلك مسألة أخرى . ولكنى قمت بحجة إلى الإله (ابولون) والى مقامه ، ولأقرارى بما أسدى إلى من خير حتى اليوم ، أضع مستقبلى بين يديه كما وضعت ماضى » (بيرون ، « اليوميات » ، سنة ١٨٢١) .

— ٦١ —

كم ليلةٍ طَوَّفتَ فى أحلامى ! إن من يجهل اسمك الماجد ، يجهل أسمى حكمة الإنسان . وهأنذا أراك الآن ، ولكن ، ويا أسفاه ! لا أستطيع عبادتك والصلاة لك إلا بنغمات ضعيفة عاجزة حتى امتلأت نفسي خجلا . إننى حين أذكر عُبّادك الأقدمين ، أقشعر وأرتعد ، ولا أقوى إلا على الركوع أمامك ؛ فلا أقدر على رفع صوتى ، ولا أتجاسر عبثاً على التحليق ، إنما أظل أحدق تحت أسجافك من السحاب ، يغمرنى سرور صامت لأنى أرى نفسي أخيراً ماثلاً بين يديك !

— ٦٢ —

إنى فى هذه اللحظة أعظم سعادة من كل هؤلاء الشعراء الممتازين الذين قيدهم القدر فى أماكن بعيدة ؛ فهل أرى هذه الأماكن المقدسة والمناظر الخالدة التى لم يستطع الآخرون أن يروها إلا فى الأحلام والأمانى دون أن يبصروها عياناً — هل أراها دون أن تمتلىء نفسي تأثراً ؟ فعلى الرغم من أن أبولُّون لم يعد يسكن بعد مغارته [١] ، وأنك ، يا من كنت من قبل مقام

(١) كان معبد أبولون فى دلف يحتوى على مغارة ، كانت تنبت منها أبخرة كبريتية منها كانت بيثيا ، كاهنة أبولون فى دلف ، تستمد وحيها ؛ فقد كانت تجلس على كرسى ذى ثلاثة أرجل فيه ثقب منه يأتى بخار تستنشقه الكاهنة ، فيصيبها الوحى ، وتلمع أعينها فجأة ، ويقف شعرها ، وتسرى فى كل بدنها قشعريرة هائلة ؛ وفى هذه الحالة تنطق عن وحى الإله أبولون .

الموسا ، لم تعد بعد غير قبرها ، — فان روحاً نورانية لطيفة لاتزال تشيع فى هذا المقام ، تزفر مع النسيم وتصمت فى الكهوف وتنزلق بقدم زُجاجى على [١] موجك الصادح .

— ٦٣ —

سأعود إليك مرة أخرى . لقد قطعت نشيدى كيما أقدم إليك فروض عبادتى لك فى هذا المقام . لقد نسيت أسبانيا بأرضها وأبنائها وفتياتها ومصيرها الحبيب إلى كل نفس حرة وقلب أبِىّ ، وأرسلت إليك بالتحية أيها الرجل الرائع ، مُـذْرفاً عَبْرة . فعوداً إلى موضوعى إذن ؛ ولكن اسمح لى بأن أحمل معى من مقامك المقدس الطاهر ذكرى وتذكاراً ، فهبنى ورقة من شجرة دَفنيه الخالدة [٢] ، ولا تدع أمَل من يدعوك يذهب سُدًى .

— ٦٤ —

ولكنك أيها الجبل الرائع ، لم ترفى أجمل أيام اليونان

---

(١) يقصد به ينبوع كستاليا ، وهو ينبوع فى جبل البرناس ، مقدس للموسا ؛ وكانت مياهه عذبة باردة ، لها القدرة على إلهام من يشربون منها وفيهم نار الشعر المقدسة . وقد نسبت الموسا إليها فلقبت باسم الكستاليات .

(٢) دفنيه ، هى ابنة النهر پنيؤس أو النهر لادون (فى اركاديا) من الإلهة ترا (الأرض) أحبها أپولون ، وطارحها أحاديث الغرام ، ففزعت كل الفزع ، وحاولت التخلص من مضايقاته بالفرار ؛ فطاردها ، فلما خشيت من أن يلحق بها ، توسلت إلى الآلهة سائلة معونتها ، فأحالوها إلى شجرة غار . فتوج أپولون هامته بأوراق شجرة الغار هذه ، وأمر بأن تصبح هذه الشجرة مقدسة أبداً لعبادته .

جوقة تحف بقاعدتك الهائلة لها مثل هذا الجمال ؛ ولم تر دِلف ، أيام أن كانت كاهنتها تغنى أغنيتها البيثاوية تحت إلهام قدسي ، زمرة من العذراوات أخلق بإلهام أنشودة الغرام من فتيات الأندلس اللائى نُشئّن فى جو من اللذات العذبة الناعمة . آه ! ألا ليتهن يسكنَّ هذه الظلال الآمنة التى لا تزال تحويها بلاداليونان ، على الرغم من أن المجد قد نفى منها .

— ٦٥ —

ما أبهج إشبيلة الباسلة ! دع وطنها يمجد قوتها وثروتها وأصلها العتيق [١] . غير أن قادس ، التى تقوم على الساحل البعيد ، تستحق إطراء أعذب ولـكنها أقل نبلا . آه ! أيتها الرذيلة ، يالشدة إغراء سبلك الشهوانية ! من ذا يستطيع ، حين يجرى فيه دم الشباب حاراً فائراً ، أن يفر من فتنة نظراتك الساحرة ؟ إنك تطاردينا على هيئة حية ذات محيا كمحيا المَلاك ، وتتشكلين بأشكال عديدة وفقاً لأذواقنا معشر البشر .

— ٦٦ —

حينما سقطت بافوس صريعة للزمان — الزمان الملعون ! الذى يجب أن تعنوله رقبة الملـكة التى يعنو لها العالم بأسره — فرت اللذات كيما تنشد جواً حاراً كهذا الجو ؛ وفينوس التى لم

(١) أنشأ اشبيلية الفينيقيون ؛ واستولى عليها قيصر ؛ وكانت عاصمة القوط قبل طليطلة .

تـكن مخلصة يوما لشيء ، قد أخلصت للبحر الذى ولدت منه ،
فتنازلت وسمحت بأن تختار قادس مقاماً لها ، وأن تقيم عبادتها فى
المدينة ذات الأسوار البيض : إن أسرارها وطقوسها يحتفل بها فى
كل المعابد ، وتقدس لها آلاف المذابح التى يحرق لها فيها النار
المقدسة على الدوام (١) .

— ٦٧ —

فمن مطلع الصباح حتى منتصف الليل ، ومن الليل حتى
اللحظة التى يضيء فيها الفجر الخجول المضرج الخد بالحمرة جماعاتِ
اللهو المرحة ، تُسمع المغامرات الغرامية الرقيقة ، وتضفَّر أكاليل
الورد ، وتهيء الألعاب الجميلة الفُرَاهات المتجددة . ألا فلتقولوا
وداعاً لزمان طويل للذات الحكيم الهادئة ، أنتم يا من أتيتم
للإقامة بقادس . لا شيء يقطع حبل المسرات الصاخبة ؛ و بدلا
من التقوى الحقيقية ، يحرق البخور الدَّيْرانى وحده ، ويجتمع
الحب والصلاة متناوبين السيادة فى النهار .

(١) « قادس ، أى قادس العزيزة ؛ إنها أبهج ما على الأرض . وإن
جمال شوارعها ومنازلها لا يفوقه إلا جمال ساكنيها . وإن حسناوات
قادس ، التى تشبه كوتيرا (وهى جزيرة على ساحل لاكونيا فى البلوپونيز،
مقدسة خصوصاً للإلهة ڤينوس ، فإن هذه قد انبعثت من البحر بالقرب
من شواطئها ، فيما يزعم البعض ؛ ولهذا أصبحت مشهورة باعتبارها مقام
الجمال) ، وتضم أجمل نساء أسبانيا ، أقول إن حسناوات قادس هن
ساحرات لا تكسر فى وطنهن » (تعليقة بيرن) .

— ٦٨ —

جاء يوم الراحة . فعلى أى نحو يحتفل على هذا الساحل المسيحى باليوم المكرس للراحة التقية ؟ إنه مكرس لعيد جليل . أصغْ ! أولا تسمع زئير ملك الغابة ؟ إنه يحطم الرماح ، ويجندل بقرونه الإنسان والجواد ، مستنشقاً نافجة الدم المنزوف ؛ والجمع المحتَشد يصفق مطالباً بالمزيد . إن هذه الجماعة المجنونة تصفق مسرورة برؤية الأحشاء النابضة وقد تمزقت ؛ والمرأة لا تُشيح بوجهها ولا تغض طرفها عن هذا المنظر ، بل ولا تتظاهر بالتألم له .

— ٦٩ —

هذا هو اليوم السابع ، يوم العيد للانسان . أىْ لَنْدَن ! إنك تعرفين جيداً يوم الصلوات هذا ! هنالك ينسي متاعب الأسبوع ساكنوك المزيَّنون ، وصنَّاعك المتدثرون بأبهى ملابسهم هم ومعاونوهم ؛ وعرباتك وشرابك من الوسكى والعربات ذوات المقعد الواحد وجراراتك المتواضعة وهي تسير فى المناطق المحيطة بك من مشارف وأرباض : إلى هَمْبِسْتِد وبرَنْتفورد وهَرو[1] ، حتى يبلغ الإعياء بالجواد حداً لا تدور معه العجلات ، فيبقى واقفاً فى مكانه مثيراً سخرية من جانب المارة السائرين .

— ٧٠ —

ومراكب التاميز تحمل حسناوات مزينات بالشُّرُط الزاهية ؛

(١) ضاحية بالقرب من لندن ؛ وقد أمضى بيرن فى هرو — على — الجبل شطراً من دراسته الأولية .

وآخرون يفضلون السير فى الطرقات ؛ وفريق ثالث يصعد رابية رِنْشُمند ؛ و بعضٌ يحاوله الذهاب إلى و ير ، و بعض آخر إلى منحدر هايجيت . فهل تسألين ، يا ظَلَال بوئيتيا ، عن العلة فى هذا [(١)] ؟ إنه من أجل عبادة القرن الجليل ، المقبوض عليه بيد السر المقدسة ، والذى يقسم باسمه المخيف الرجال والنساء على السواء ، مسجلين أقسامهم بالشراب والرقص حتى الصباح [(٢)] .

— ٧١ —

لـكلٍ حماقاته ؛ وحماقاتك لا تشبه حماقاتنا ، أى قادس الجميلة ، المنبثقة فوق البحر الأزرق القاتم ! لا يكاد ناقوس الصباح يدق الساعة التاسعة ، حتى يَعُدَّ سكانُكِ الأتقياء حبات سُبُحاتهم . إنهم يَدْعون العذراء (وأحسب أن العذراء الوحيدة إنما توجد هناك فحسب) كيما تخلصهم من ذنوب لا تقل فى عددها عن المصلين لها . ومن هنا يُهْرَعون إلى الملعب المزدحِم ، لا فرق فى

---

(١) « كنت فى طيبة حينما كتبت هذا ؛ ولهذا كنت فى خير مكان أستطيع فيه أن أضع هذا السؤال وأن أتلقى عنه الجواب : وإنى لا أعتبر طيبة هنا وطن پندار ، ولـكن أنظر إليها باعتبارها عاصمة بوئيتيا ، التى اقترح فيها أول اللغز وفسّر » (تعليقة بيرن) .

(٢) يوجد فى حانات قرية هايجيت قرنان مقدسان ، والغريب الذى يأتى هذه القرية لأول مرة يجبر على أن يحلف على هذه الشارة الرمزية هذا القسم : « أقسم بألا أعانق الخادمة إذا كنت أستطيع معانقة سيدتها ؛ وبألا أشرب الجعة الحقيرة إذا كنت أستطيع أن أشرب الجعة الممتازة ... » . ويسبق هذا القسم بمراسم غريبة .

هذا بين الشاب والعجوز والكبير والحقير ، كلهم يشارك فى هذا اللهو الخطير .

— ٧٢ —

الملعب مفتوح والساحة الواسعة مُهَيَّأة والآلاف المؤلفة جالسة أكواماً من حولها ؛ وقبل أن يسمع صوت النفير الأول ، لا يبقى مكان خالياً لمن يأتى متأخراً . هنا قد احتشد الدونات والكبراء ، وخصوصاً السيدات البارعات فى إرسال النظرات الغرامية الماكرة ، وإن كن مع ذلك متأهبات لشفاء الجراح التى تحدثها نظراتهن : فلا يُقَدر لامرىء أن يموت من هذا الاحتقار البارد الذى يشكوه غالباً الشعراء المجانين الذين يتغنّون بقسوة سهام الغرام .

— ٧٣ —

أطرق الكل وصمتت الألسنة. وأربعة فرسان زُيِّنت هاماتهم بشريط ناصع البياض ، وفى أرجلهم مهمازات ذهبية ، وبأيديهم رماح خفيفة ، ركبوا خيولاً جياداً وتهيأوا لهذه الأعمال الخطرة ؛ وها هم يتقدمون فى الساحة بانحناءة رشيقة ، وأوشحتهم الثمينة ترفرف فى الرياح ، وجيادهم تتواثب بلطف وبراعة . فان برَّزوا اليوم فى هذه اللُّعبة الخطرة ، تهاوت عليهم صيحات الجمع الحاشد ونظراتُ السيداتِ الفاتنةُ : فيالها من مكافأة جميلة على فعال ممتازة ، مكافأة طالما تاق الملوك والمحاربون إلى الحصول عليها .

— ٧٤ —

ومُصَارِعُ الثيران الزَوْل يلبس فاخراً من الثياب ومعطفاً زاهياً ، ولـكنه واقف على قدميه دائماً فى منتصف الساحة ، يتحرق شوقاً إلى مهاجمة سيد القطعان الخائرة (الثور) . ولـكنه يبدأ بالتجوال فى الساحة بقدم حذرة متفطّنة ، مخافة أن يعوق جريه السريعَ عائق غير مُتوقَّع : أما سلاحه فمِزْراق ، ولا يصارع إلا من بُعْد ، فان الإِنسان لا يستطيع أن يفعل أكثر من هذا بدون الجواد المخلص الذى يدعه الإِنسان ، ويا أسفاه ! يتحمل وحده الجراح .

— ٧٥ —

ردد البوق ثلاثا ، وتبدت الإشـارة ، وفتح غار الثور ، وتلفّت التوقع الصامت حول السـاحة الخرساء بأسوارها الغاصة بالناس . وها هو ذا الحيوان المخيف يثب وثبـة هائلة مفاجئة ، وينظر حواليه بنظرات وحشـية ، واطئاً الساحة الرملية بظلف ساخر . إنه لا ينقضُّ على خصمه بطريقة عمياء ، بل يهدده أولاً بجبهته ذات القرون السـامقة كيما يُحْكم هجومه الأول ، ويثبت الضربة التى سيصرعه بهـا ، مُنَزْنِزاً ذيله الغضوب ذات اليمين وذات الشمال ، وفى عينيه نار تتأجج .

— ٧٦ —

وفجأة يقف ، ويرامق خصمه بمُؤْخر عينيه. الفرارَ، الفرارَ،

أيهـا الفتى المتهور ، لذ بالفرار أو هىء مزراقك : هـذه اللحظة للموت ، أولإظهار مهارة فى وسعها بعدُ أن تنجيك من غضبه ! إن الفرسـان الأزوال يجيدون تفادى ضرباته فى اللحظة المناسبة . وها هو ذا الثور يُزْبد ، ولـكنه لا يتراجع أمام الضربات التى تنهال عليه ؛ وفيض من السيل القانى (الدم) يسيل على جوانبه ؛ وإنه ليفرّ ، ويضطرب محموماً من آلام جراحه ؛ فتتهاوى عليه المزاريق وتنوشه الرماح ، الرماح ؛ وينبعث منـهُ خوار رَجّاس يعبر عن آلامه الهائلة .

— ٧٧ —

وها هو ذا يعود ؛ فلا مزراق ولا رمح يفيد ، ولا تخلصات الجواد المعذب . وعبثاً يهاجمه الرجال بقوتهم وسلاحهم ، فسلاحهم لايجدى وقوتهم ليس فيها غناء . وجواد من جيادهم قد خر صريعاً يفرش الأرض بجثتـه المجندلة ؛ وجواد آخر قد شق جانبه ، وياللمنظر المريع ! وكشفت أضلاعه المحطمة عن أحشائه وينبوع حياته ؛ ولـكنه على الرغم من هذا الجرح القاتل ، يتحمل بدنه الواهن الخائر ، حاملاً ، وهو يتمرغ ، سـيفه وقد أنقذ من موت محقق .

— ٧٨ —

أما الثور فقد وقف فى منتصف الساحة متأهباً للمصارعة من جديد ، على الرغم من أنه يتصبب دماء ، وهو مبهور الأنفاس ؛

ولـكنه متحدّم جياش بالغضب حتى النهاية ، متلبّباً مترصـداً وسط الجراح والمزاريق الرنانة والرماح المحطمة، والأعداء العاجزين فى هذه المعركة الوحشية . وها هم مصارعو الثيران يدورون حوله الآن ، محرّكين معاطفهم الحمر ومزاريقهم المتأهبـة . وها هو ذا يشق طريقه الرجّاس وسطهم جميعاً مرة أخرى . ولـكنها فورة غضب لا نفع فيها ! فإن يداً خائنـة قد أطلقت المعطف ونشرته فغطى عينيه المتأججتين . فـكانت نهايتـه : واذا به مجندل على الرمال .

— ٧٩ —

بقى حديد المزراق المسموم مغروزاً فى مجتمع العنق الفِلْطاحة مع الرأس . إنه يتوقف ، إنه يترنح ، متأ بياً أن يتقهقر ؛ وها هو ذا يسقط وسط عاصفة من الصياح بالنصر ، دون أن يرسل زفرة أخيرة ، ويموت دون حشرجة . واذا بعربة مزينة أنخم زينـة تتقدم ، فيوضع عليها جثمان الثور الثقيل . ياله من منظر رائع يروق فى عيون الدهماء ! وأربعـة جياد لها من السرعة بقدر ما لها من الهلع تعض على لُجُمها ، حاملة هذه الـكتلة الثقيلة التى لا تـكاد ترى وسط هذا الزحام .

— ٨٠ —

تلك هى الرياضة الوحشية التى تجمع غالباً فتيات الأسبان ، وتسر الراعى الأسبانى . هـذا الراعى الذى أَلِف منذ بعيد رؤية

الدم يسيل ، لذا يهتز قلبه غبطة ، فرحاً بالانتقام ، ويرى ، دون أن يتأثر ، آلام الناس . كم من منازعات شخصية ضرجت بالدم منازلهم الهادئة ! وعلى الرغم من أن جيشاً عرمرماً قد احتشد ضد الغاصب، فقد بقي كثير من الأسبان بعيدين عن معسكرات القتال ، كيما يشحذوا فى السر الخنجرَ الذى يعاقب بالقتل أهون إساءة .

— ٨١ —

ولكن سلطان الغَيْرة قد دال ؛ فالشبَّاك الحديدية والمتارس والحارسات العجائز والمُشْرفات المُبَجّلات قد زالت . فكل هذه الأشياء التى تثير ثائرة كل نفس نبيلة والتى كان يستخدمها الزوج الغيور الكالح كيما يحبس فيها زوجته السجين ، قد ذهبت فى ظلام العُصُر الخالى . فأية امرأة كانت أكثر حرية من المرأة الأسبانية الجميلة التى رآها الناس ، حين ثار بركان الحرب ثورته الهائلة ، ممشطة الشعر مقصّبة الذوائب ، وهى تطأ المروج الخضر ، بينما كانت النجمة الصديقة للعشاق تنير رقصها بشعاعها الفضي ؟

— ٨٢ —

آه ! كم من مرة أحب فيها هارولد ، أو على الأقل اعتقد أنه أحب ، ما دامت نشوة الحب ليست إلا حُلُما ! ولكن قلبه الحزين قد صار اليوم لا يتأثر ، لأنه لم يشرب بعد من نهر النسيان [١] ؛ ولم يعرف إلا أخيراً أن الحب ليست له من هبة

---

(١) أواللِيثيه ، أحد أنهار الجحيم ، التى تشرب منه أرواح الموتى =

أثمن من أجنحته ، فمهما كان من جمال المحبين وعذو بتهم ونَضْرة شبابهم ، فإنه ينبعث دائماً من ينابيع اللذة العذبة سم ناقع يسيل بمرارته على الأزهار[١] .

— ٨٣ —

وعلى هذا فلم تَعْمَ عيناه عن فتون الجمال ؛ لـكنه أعجب بها كما يعجب العاقل الحـكيم : لا لأن الفلسفة والحـكمة قد تنازلت فتعطفت بنظراتهـا العفيفة الجديرة بالإجلال على عقلٍ كعقله ، ولـكن لأن سَوْرة الوجدان تنتهى بالسكون أو النسيان والفرار . والرذيلة ، التى تحفر لنفسها قبرها الشهوانى ، قد دفنت منذ زمان آماله ، وبددتها إلى غير رجعة . يا له من فريسة للذة بائسة ! إن ظلمة الحياة المريعة قد كتبت على جبينه الشاحب تلك اللعنة التى أصابت قابيل ذا المصير البائس المضطرب .

— ٨٤ —

تأمل ما تأمل غير متأثر بما شاهد ولا مشاركٍ الدهماء فيما هم فيه ؛ انما نظر إلى هذا كله نظرة ليس فيها حقد الـكاره للبشر .

= بعد أن تظل محبوسة زمنا فى الترتاروس (أحر مناطق الجحيم التى يعاقب فيها أشد الناس إتيانا الذنوب والـكبائر) ؛ ولمياهه القدرة على أن تجعلهم ينسون أى شىء فعلوه أو رأوه أو سمعوا به ، ومن هنـا جاءت الـكلمة اليونانية « ليثيه » أى النسيان .

(٢) « من أعماق ينبوع اللذات ينبثق صابٌ يخنق الأزهار » (لوكريتيوس) .

ولعله قد كان يتشوق إلى المشاركة فى الرقص والغناء ، لو كان القدر الجاثم فوقه قد سمح له بالابتسام . لم يكن ثمة شيء فيما رآه قادراً على أن يسكّن من أحزانه . غير أنه كان عليه يوماً أن يكافح ضد شيطان اللذات . ولما جلس مطرق الرأس يفكر إلى جانب فتاة جميلة ، ارتجل هذه الأبيات التى وجهها إلى مفاتن لا تقل روعة عن تلك التى خلبت لبه فى سالف الأيام السعيدة :

إلى إيـــنز

— ا —

امسحى البَسْمَةَ عن هذا الجبين
ليس فى الوسع ابتسامى من جديد
ووقاكِ الله من كل حزين
أو دموعٍ جاريات لا تفيد

— ب —

تسألينى سِرَّ ما حُمِّل قلبى
مِنْ هموم قوَّضَتْ صرحَ الشبابِ ؟
فلِمَ التسْـآل عن جُرْحى وخَطْبى
أنت لا تدرين تخفيفَ عذابى

— ح —

ليس حبى ، ليس بُغْضي، ليس فقدى
للذى أملّت فى دنيا المطامعْ

هو ما يجعلنى أكره جدى

أو أفرّ الآن مما كان رائع

— ى —

لا أرى حولى سوى داعى الملال :

عن حياتى ، عن زمانى لست أرضي :

لم أعد أحظى بمعنىً فى الجمال ،

وفقدت السحر من عينيك أيضاً

— هـ —

قَلِقٌ مِثْلُ اليهودىّ المُعَنَّى

فى ضلال ، ليس ما يشفى جراحه

فوراء القبر لا أبصر معنى ،

غير أنى قبلُ لا آمُل راحه

— و —

أىُّ مَنْفِىٍّ ترى يَنْبِذُ نَفْسَه ؟

رَغْم تَجوالى بآفاق بعيدة

ظلّ شيطانى يساقى القلب كأسه

كأسه المملوء أفكاراً شريدة

— ز —

إنّ غيرى فى حِمَى اللذات يرعى

مستسيغاً كلَّ ما نفسي تعافه

آه ! ليت الكُلَّ في الأحلام يسعى
دون أن يُوقَظ ، مثلي ، من سُلافه

— ح —

أرْغِمَتْ نفسي على التجوال دَوْماً
وعليها لَعْنَةُ الذكرى تَحَوَّى
وعزائي بعد هذا صار علماً :
أن ما ألقاه قد عانيت أسوا

— ط —

لا تسل عن ذلك الأسوء ! كَلاً
يا حبيبي لا تسل ، أنت رحيمْ
ابتسمَ دوماً ولا تَسْعَ إلى
كشفِ قلبي ، كي ترى فيه الجحيمْ

— ٨٥ —

وداعاً ، قادس العزيزة ! وداعاً لزمان طويل ! من ذا يستطيع أن ينسي كيف قاومت استحكاماتك بعزم وثبات ؟ لقد بقيت أنت وحدك مخلصة بينما خان سائرَ الأسبان إيمانُهم ؛ وكنت أنت أول من تحرر وآخر من قُهِر ؛ وإذا كان دم سكانك قد سال في حماك في هذه الأيام المليئة بالجرائم والمخاطر ، فان خائناً واحداً[1]

(١) « الإشارة هنا إلى سلوك وموت سولانو ، حاكم قادس ، في مايو سنة ١٨٠٩ » (بيرن) والواقع أن ذلك كان في سنة ١٨٠٨ =

قدسقط صريع الخنجر . أما الـكل فكانوا نبلاء ، فيما عدا النبلاء أنفسهم ؛ ولم يتعلق أحد من أهليك بعربة الغازى الفاتح ، اللهم إلا فرساناً منحلين .

— ٨٦ —

هؤلاء أبناء أسبانيا . ما أعجب حظهم ويا أسفاه ! إنهم يجاهدون فى سبيل الاستقلال ، وهم لم يكونوا يوماً أحراراً [١] . إن شعباً حُرِم مَلِـكه ليذود عن مَلَـكية قد دُنّست ؛ وبينما يفر السادة ، يموت الأتباع مخلصين لجبناء وخونة ، معزّزين وطناً لم يتمتعوا فيه إلا بمجرد البقاء ؛ ولـكن الأنفة والحمية قد هدياهم سبيل الحرية ؛ فإن صدوا ، واصلوا الهجوم ؛ إنهم ليصيحون دائماً : الحربَ الحربَ ! الحربَ على الدوام ! سنخوض غمارها بالخناجر [٢] .

— ٨٧ — [٣]

وأنتم يا من تريدون أن تعرفوا أسبانيا والأسبانيين ، اذهبوا

= لا سنة ١٨٠٩ . وكان سولانو هذا قد رحّب بدخول الفرنسيين أسبانيا ، ولـكنه قتل من بعد فى ثورة .

(١) الاشارة هنا استبداد الملـكية فى إسبانيا .

(٢) « قتالا بالخناجر » ، هذا كان رد بَـلَـفوكس على الجنرال الفرنسى فى حصار سرقسطة (عن بيرن) .

(٣) يذكر ت . مور أن لورد بيرن قد حذف هنا فقرة هجائية فيها إشارة مباشرة إلى أشخاص ، ولهجتها أكثر ألفة وتبسّطاً من وصف =

فأقرءوا تاريخ معاركهم الدامى : إن كل ما يَستطيع الانتقامُ الوحشي أن يوحى به ضد عدو أجنبى قد استعمل ضد جيوش فرنسا : فمن السيف البراق إلى السكين الخائنة ، ثم تدع الحرب سلاحاً لم تضعه فى أيدى الأسبانى . ألا ليته يستطيع هكذا أن ينقذ أخته ورفيقته ! وأن يروى أرض بلاده بدماء الغاصبين ! وألا ليت المعتدين الظالمين فى كل مكان ينالون مثل هذا المصير !

— ٨٨ —

تسأل : هل ثمة دمعةُ رحمة على الموتى ؟ ألا فلننظر إذن إلى السهل الذى حل به الدمار ، وإلى أكُفّ النسوة وهى مخضبة بالدم القانى : لقد تركت الجثث التى لم توار فى التراب إلى الكلاب ، وظَلّت نهباً للحدأة ، وإن كانت غير جديرة حتى بالطيور الجارحة . دع العظام المُبْيَضة وآثار الدم غير المُبْيَضَّة تنشر على ميدان القتال ذكرى مريعة ، حتى يكون فى وسع أبنائنا أن يدركوا المناظر التى رأيناها .

— ٨٩ —

ولكن هذا العمل المخيف لم ينته بعد ، ويا أسفاه ! فثمة فيالق جديدة تنحدر من جبال البرانس ؛ وإنها لتتوغل شيئاً فشيئاً ، ولم تكد الحرب تبدأ ؛ فليس فى وسع إنسان أن يتنبأ :

= يوم الأحد فى لندن ، الذى يتضمن الكثير من التفاهة المشوّهة لجمال القصيدة . وكانت هذه الفقرة ، التى كانت مكان الفقرة رقم ٨٧ ، تحتوى تهكماً موجهاً ضد الرحالة المشهور سير چون كار .

أين ومتى تكون النهاية . إن الدول المقهورة لترنو بأبصارها إلى أسبانيا ؛ فإن تحررت ، حررت من النفوس أكثرمما قيد رَجُلُها القاسي بيثارو [1] وإخوته . جزاء عجيب ! إن سعادة المناطق التى اكتشفها كولبس تصلح المصائب التى حلت بأبناء كوتيو ، بينما الوطن الأصلى (أسبانيا) قد أصبح فريسة للخراب والقتل .

— ٩٠ —

ولكن ، لا الدم المسفوك فى تلَكَفيرا ، ولا معجزات النضال فى باروسًا ، ولا الموتى الذين ملأوا ألبويرا ، قد استطاع أن يرد إلى أسبانيا حقوقها المهضومة المقدسة . متى يزدهر من جديد غصن الزيتون فيها ؟ متى تتنفس بعد هذا النضال الشاق الباسل ؟ وكم من الليالى ستمر وتفنى فيها الأيام المليئة بالمخاطر ، قبل أن يعود الغاصب الفرنسي تاركا فريسته وقبل أن تُظل دوحة الحرية الغريبة الدار ، البلادَ التى أنبتتها ؟

— ٩١ —

وأنت أيها الصديق الرقيق [2] ! ما دام حزنى غير المجدى

(١) فرنسسكو بيثارو هو المخاطر الأسبانى المشهور .(١٤٧٥ — ١٥٤١) الذى استطاع بمساعدة أخويه جوثالسى (١٥٠٢ — ١٥٤٨) وهرندو (المتوفى سنة ١٥٦٧) غزو مملكة بيرو وتحطيم عرش الإنكا هناك ، مما أدى إلى قيام الحكم الاسبانى فى أمريكا . أما كيتو فهى عاصمة بيرو القديمة ؛ وقد ثارت على إسبانيا فى سنة ١٨٠٩ حينما هاجم الفرنسيون أسبانيا .

(٢) هذا الصديق هو الأوتورابل جون ونجفيلد ، فى الحرس الملكى ؛ =

ينبثق من أعماق قلبي ويمتزج بأناشيدى ؛ لو أن السيف قد جندلك فى زمرة الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى ، اذن لكانت الكبرياء قد حرّمت الشكوى على الصداقة ؛ ولكنك تهوى إلى القبر وليس على جبينك إكليل من الغار ، مَنْسِيّاً من الجميع ، اللهم إلا من قلبي المتوحد الشاكى ؛ إنك لا تستطيع أن تحشر فى زمرة هذه الظلال الشامخة للمحار بين المقتولين وأن تريهم جراحك . و بينما توج المجدُ كثيراً من الرءوس التى هى أقل من رأسك قدراً ، ماذا فعلت أنت كيما تستحق موتاً هادئاً كهذا ؟

— ٩٢ —

أى صديقتى العزيزة القديمة [١] : أنتِ يا من بعثتِ السلوى

= وقدمات بالحمى فى كوعبرا . وقد عرفته طوال عشر سنوات ، كانت النصف الأجمل من حياته ، والشطر الأسعد من حياتى أنا . أواه ! لقد فقدت فى مدى شهر تلك التى أتت بى إلى هـذا الوجود ، كما فقدت معظم الذين جعلونى أحتمل أعباء الحياة . وفى وسعى أن أطبق على نفسى بالدقة أبيات يونج هـذه : « أيها الرامى الذى لا يشبع ، ألا تكفيك فريسة واحدة ؟ لقد أطلقت سهمك ثلاث مرات ، وثلاث مرات قضى على سكينة قلبى ، قبل أن يملأ القمر هلاله ثلاث مرات » . ولربما كان على أن أكرس بضعة أبيات لذكرى شارلز كردت مثيوس ، خريج كلية دوننج فى كمبردج ؛ ولكنه كان فوق كل مدائحى : إن سمو عقله لتشهد به الجوائز التى نالها فى المسابقات مع أمهر مرشحى كمبردج . وعلامات التشريف هذه قد أقامت دعائم شهرته حيث حصلها ، ولا زالت شمائله الجميلة تحيا فى ذكريات أصدقائه الذين سما حبهم له عن أن ينفس عليه سموه وامتيازه » (بيرن) . وقد كان ونجفيلد من زملاء بيرن فى هرو .

(١) الخطاب هنا موجه إلى أمه .

فى قلبي المحروم من كل ما أحببت ، إن كنت فُقِدْتِ من أيامى اليائسة ، فلا تحرميني من رؤيتك فى الأحلام ! إن عودة الصباح ستحملنى على تَذْراف الدمعِ سراً ، حين ينتبه الشعور إلى أحزانه . إن خيالى يعلّق فوق نعشكِ غير المخضب بالدماء ، حتى يعود جسمى الضاوى من حيث أتى ، ويصير الباكى والمبكى عليه يبتغيان معاً راحة القبر الأبدية .

— ٩٣ —

تلك أنشودة من أناشيد أسفار اتشيلد هارولد ! وأنتم يا من تريدون أن تزدادوا به معرفة ، سترون بقية أنبائه فى نشيد آخر إذا استطاع الشاعر أن يتابع إنشاده . أهذا القدر كاف ؟ لا تقل هذا ، أيها الناقد القاسي . ألا صبراً ! فستسمع أنباء ما رآه فى بلاد أخرى ، قُضي عليه بالرحيل إليها ، بلادٍ تشتمل على آثار الأقدمين ، قبل أن تسحق أيدٍ همجيةٌ بلاد اليونان وفنون اليونانيين .

النشيد الثانى

— ١ —

تعالَىْ عذراء السماء ذات العيون الزرقاء[1]!... ولكنك ، ويا أسفاه ! لم تلهمى أية أغنية من أغانِىّ الفانية . إلٰهة الحكمة ! هنا كان معبدك قبلُ ؛ وهو لا يزال هنا على الرغم من تخريبات الحرب وتدميرات النيران[2] ، وعلى الرغم من السنين التى عفّت على عبادتك . ولكن النار والحديد والزمان نفسه لم تُحْدِث من الدمار قدر ما أحدثه الشبح المخيف والسلطان الطاغى لهؤلاء الناس الذين لم يستشعروا مطلقاً الحماسة المقدسة التى تبعثها ذكراك وذكرى معبدك فى قلوب الشعوب المهذّبة .

— ٢ —

أيتها المدينة العتيقة ! أىْ أثينا ! أين ذهب مواطنوك الماجدون، وأشرافك ذوو النفوس العالية ؟ لقد ذهبوا ومضوا — ولم نعد نراهم إلا فى أحلام الماضي السحيق . لقد كانوا السبّاقين فى مضمار المجد ، فبلغوا الغاية وظفروا ثم مضوا — فهل هذا كل شيء ؟ إن أعمالهم قد صارت قصصاً تروى لطلاب المدارس ،

---

(١) الإشارة هنا إلى أثينيه ، إلهة الحكمة والحرب (مينرڤا اللاتينية) ؛ وتنعت بأنها الالهة ذات العيون الزرقاء ، جرياً على الترجمة غير الدقيقة لوصف هوميروس لها بوصف γλαυκῶπις ، ومعناه الحقيقى ذات عين كعين البومة أو ذات العيون البراقة .

وصرنا نعجب بها كل العجب قدر ساعة نمضيها فى سماعها ! ولـكن عبثا ننشد سلاح محار بيك وكراسي السوفسطائيين الذين ينشّئون أبناءك : فعلى أطلال أبراجك التى سوّدها ضباب الأيام ، يحلق ظل شاحب لعظمتك الخالية .

— ٣ —

ألا فلتهُبّ ، يابن الصباح ؛ اقترب إلى هنا . تعال — ولـكن لا تلعن هذه الإجّانة العَزْلاء . تأمل هذا المكان ، إنه ضريح أمّة ! إنه مقام هؤلاء الآلهة التى صارت مذابحهم مهجورة . لقد اضطر الآلهة أنفسهم إلى التسليم . وإن لـكل دين دوره . فقد كان فى البدء لجوپتر ، ثم صار لمحمد ؛ وستولد معتقدات جديدة فى قرون أخرى ، حتى يعلم الإنسان أن بخوره يحرق عبثا وأن دماء الضحايا والقرابين يسيل سُدًى . يا له من ابن للشك والموت ! إن آماله معلقة بعيدان واهية .

— ٤ —

إن الإنسان مشدود إلى الأرض ، ولـكنه يرفع رأسه إلى السماء . أيها الـكائن المسكين ! ألا يكفيك أن تعرف أنك موجود ؟ وهل الحياة هبة ثمينة إلى حد أن تطمح إلى الحياة مرة أخرى ، وأن تذهب ، لستَ تدرى إلى أين ، بل ولست تحفل به ، وإلى أى مكان ليس على الأرض بل فى السماء ؟ ألا تقف أحلامك بسعادة مستقبلة أو شقاء سيكون ؟ تأمل وزِنْ هذا

التراب قبل أن يذهب أدراج الرياح . إن هذه الإجّانة الصغيرة تنبئك بأكثر مما تنبئك به آلاف الأناشيد الدينية .

— ٥ —

أو إن شئت فافتح ، منقباً ، هذه الأكمة التى رقد من تحتها بطل من الغابرين . إنه يرقد على الساحل المتوحش البعيد[١] . لقد خر صريعاً ، فأتت الأمم التى أصيبت فى عمود قوتها تنتحب حول ضريحه . أما اليوم فلم يعد يوجد واحد من سكان هذه البلاد البائسين يبكيه ؛ ولم يعد يسهر هنا محاربٌ واحد ، هنا حيث ظهر أنصاف الآلهة كما تروى الأقاصيص . انتشل هذه الجمجمة من هذه الأكوام المتناثرة : أهذا معبد يمكن أن يسكنه إلٰه ؟ إن الدودة نفسها قد هجرت أخيراً خليتها المُحَطّمة .

— ٦ —

أرأيت إلى هذا الرواق المكسور ، وهذا الجدار الدارس ، وهذه الأبهاء المهجورة وتلك الأبواب المظلمة ؟ أجل،لقد كانت ،

(١) « لم تكن العادة المتبعة دائماً فى بلاد اليونان إحراق الجثث : فأجاكس العظيم خصوصا قد دفن بجسمه كله . ومعظم الأبطال قد صاروا آلهة بعد موتهم ؛ والمحارب الوضيع الشأن هو من لم يكن يحتفل سنويا بألعاب عند قبره ، أو من لم يقم مواطنوه أعياداً لذكراه ، مثل ما كان يفعل بالنسبة إلى آخيل وبراسيدس ، بل وأيضا بالنسبة إلى أنطنيوس هذا الذى كان فى موته من البطولة بقدر ما كان فى حياته من عار وشنار » (بيرن) .

مع هذا ، المقام العالى للطموح ، وقصر الفكر ومعبد الروح . تأمل هذه المحاجر التى نزعت منها عيونها ، هذا المأوى الحى للحكمة والموعظة الحسنة ، والوجدانات العالية التى لم تقبل الخضوع ولا الإذلال . فهل يستطيع كل ما كتبه القديسون والحكماء والسفسطائيون أن يسكن هذا البرج الخاوى أو يرمم هذا المأوى المهجور ؟

— ٧ —

صدقت كل الصدق فيما قلت يا أكبر حكماء أثينا : كل ما نعرفه هو أننا لا نعرف شيئاً . فلماذا نرتاع مُحْجمين عن كل ما لا نستطيع تجنبه ؟ لكلٍ آلامه ؛ ولكن الرجل الضعيف الهيّابة ينوح على آلام خيالية من نسج أوهام دماغه . فلنبحث عما يقول عنه الحظ أو القدر إنه الأحسن ؛ إن السلام ينتظرنا على شاطىء الأشيرون[1] . هناك ، لم تَعُدْ ثمة مأدبة تقام يرغم فيها الضيف الشبِع على الجلوس ؛ ولكن الصمت يهيىء هنا مرقداً لراحة تستهوى النفوس .

---

(١) الأشيرون نهر فى تسپروتيا فى ايپرس ، يصب فى جون أمبرا كيا . ونظراً إلى مظهر مياهه الميت ، دعاه هوميروس أحدَ أنهار الجحيم ؛ وعلى هذا جرى الشعراء التالون ، قائلين إن إله هذا النهر ابن قيرس بلا أب ، وأنه أخفى نفسه فى الجحيم خوفا من التيتان ، واستحال إلى نهر مُرّ المياه ، تحمل عليه فى البدء أرواح الموتى .

— ٨ —

أما إذا كان الأمر كما ظن بعض الحكماء الذين قالوا إن وراء الشاطىء المظلم (القبر) مأوى للأرواح ، مناقضين بهذا رأى الصدوقيين والسوفسطائيين المتباهين حمقاً بشكوكهم — فكم سيكون جميلا أن نمجد إلهاً رحيماً مع هؤلاء الذين خففوا من محننا الإنسانية ! كم سيكون جميلاً أن نستمع إلى هذه الأصوات التى نخشي ألا تسمع بعد ، وأن نعجب بهذا الظلال الفخمة لحكيم بكتريان ، وفيلسوف شامس وكل هؤلاء الذين علموا الخير والفضيلة[1] !

---

(١) كان فى المخطوطة بدلا من هذه ، الفقرة التالية : « لا تحدق فىّ ، مقطبا جبينك بقسوة ، أيها القس القدم ، لأنى لا أنشد حياة حيث لا توجد حياة : إننى لم آت كيا أسخر من أوهامك . إنى أستحق فى نظرك الرثاء ! أواه ! إنك تثير فى نفسى الحسد : أنت ، أيها المخاطر الجسور المكتشف لبحر مجهول ، تكتشف فيه عن جزر سعيدة . وسكان من أسعد الناس . إنى لا أطالبك بأن تصير من الصدوقيين : بل استمر فى حُلمك بهذا الفردوس الذى لا تدرى أنت أين مكانه . ولكنك تحبه إلى حد أنك تدعو أخاك الضال إلى اقتسامه وإياك » . ويتلوها بيرن بتعليقة طويلة يقول فيها : « فى هذا القرن الذى يسوده التعصب الدينى الأعمى ، والذى فيه بدل المتزمت المتطهر والقس موضعة ، وحمل الكاثوليكى المسكين عقاب خطايا آبائه جيلا فجيلا بأبعد مما يحدثنا عنه الكتاب المقدس ، فى هذا القرن ستستدعى الفكرة المعبَّر عنها فى هذه الفقرات كثيراً من اللعنات . ومع هذا فلا يذهبن عنك أن الروح التى أملتها روح شك يائس لا شك ساخر. إن من رأى الخرافات اليونانية والاسلامية تتنازع مذابح الوثنية

— ٩ —

هناك سأراك ، أنت يا من فرحبه وحياته منى معاً ، وتركتني
هنا وحيداً أحب وأحيا فى غير طائل ! هل فى وسعى أن أعدّك
ميتاً ، إذا كانت ذكراك لا تزال تحيا فى قلبي ؟ وتطوف لامِعة
برأسي ؟ أجل ! سأناغى النفس فى الأحلام بلقياكَ من جديد ،
وأهدهد هذه الرؤيا على صدرى الخَلِىّ . فان بقى شيء من
ذكريات الشباب ، فلعلّه أن يكون ضماناً للمستقبل . أوّاه !

القديمة ، وخلف فى وطنه منافقين يشكرون الله أنهم لا يشبهون أصحاب الخطايا ؛ ورأى فى أسبانيا شعبا يبغض المبتدعة الذين يتلقى منهم المعونة — هذا الرجل لا يستطيع إلا أن يضطرب ويحار ويبدأ يعتقد أنه ما دام فريق واحد هو الذى يمكن أن يكون على صواب ، فإن البقية على ضلال . أما عن الأخلاق وأثر الدين فى النوع الإنسانى ، فإنه يظهر من شهادة التاريخ الدائمة ، أنه لم يحمل النـاس على حب إخوانهم بقدر ما حملهم على استثارة أحقادهم العتيقة ، تلك التى رأيناها قائمة بجلاء بين الفرق المسيحية . أما الأتراك وفرقة المجذوبين (الكويكر) فأكثر تسامحا : فإن غير المؤمن إذا أدى الجزية عند الأولين ، استطاع الصلاة كيف وحيث شاء ؛ والإيمان المتسامح والسلوك الورع عنـد الآخرين يجعل من حياتهم أكمل مثل على الإحسان المسيحى الذى دعا إليه المؤلف الإلهى للأناجيل » .

أما حكيم بكتريانا فهو زرادشت ؛ وبكتريانا مقاطعة فى آسيا كانت تـكوّن جزءاً من امبراطورية فارس . أما حكيم شامس فهو فيثاغورس ، الفيلسوف اليونانى المشهور .

ليكفينى سَعْداً أن أعلم أن روحك سعيدة ! [(١)]

— ١٠ —

هنا يلذ لى الجلوس على هذا الحجر الصَلْد [(٢)] ، هذهالقاعدة لعمود من المَرْمر لم يُقَم بعد . هنا كان عرشك المحبوب ، يا ابن زُحَل: أى مَلِك الأولمپ الأقوى ، اننى أنشد البقايا المستورة من معبدك . ولكن عبثاً ! أواه ! إن عين الخيال نفسه لا تقوى على رد ما أبلاه الزمان . ولكن هذه الأعمدة المَزْهُوّة لا تطالب بتنهد عابر : فالمُسْلِم يجلس إليها غير مكترث بها ، واليونانى الخفيف الطياش يَمُرّ وهو يُغَنّى ، علامة عدم احتفال .

— ١١ —

ولكن ، مَنْ — من بين الذين نهبوا ذلك المعبد المُنْشَأ على قمة الأكروبول ، الذى هجرته پلاّس آسفة على مغادرة هذا الأثر الباقى الأخير من آثار سلطانها القديم — أقول مِنْ بينهم كان آخرهم وأسوأهم وأشدهم تخريباً ونُكْراً ؟ ازوَرّى خجلا وعاراً يا كاليدونيا ، [(٣)] لأنه أحد بنيك ! وأنت يا انجلترا ، يسرنى أنه لم يكن من أبنائك، فان مواطنيك الأحرار لا بد أن يحترموا بلداً

---

(١) كتب بيرن هذه الفقرة فى نيوستد (ا كتوبر سنة ١٨١١) ، حينما علم بموت صديقه وزميله فى كمبردج ، الشاب أولستون .

(٢) فى بعض الطبعات : الحجر المغطى بالطحلب .

(٣) كاليدونيا هى إيقوسيا أو اسكتلنده .

كان بالأمس مهد الحرية . فكيف سوّلت لهم أنفسهم أن يدنّسوا معبد الآلهة الخرافى ، وأن يحملوا مذابحهم على الأمواج التى رفضت [(١)] طويلا أن تساعدهم على فَعْلتهم الشائنة هاتيك ؟

— ١٢ —

ولكن حفيد البكتيين المُحدَث يفخر بهذه الفعلة الشائنة التى لم يرتكبها القوط ولا الأتراك ولا الزمان الجبار : [(٢)] إنه يحمل قلباً من الصخر وعقلاً قفراً مثل صخور وطنه ، هذا الذى استطاع أن يفكر وينفذ هذا المشروع البغيض ، مشروع انتهاب أثينا البائسة . وسكانها ، على الرغم من عجزهم عن الدفاع عن أطلالهم المقدسة ، قد شاركوا فى آلام وطنهم : فهم لم يشعروا

---

(١) غرقت السفينة فى الأرخبيل .

(٢) البكتيون كانوا فى الأصل قوماً من اشقوزيا ، سموا بهذا الاسم (ومعناه : المصبوغون) لأنهم كانوا يصبغون أجسامهم بمختلف الألوان ، كما يبدوا أشد خطراً وصولة فى عيون الأعداء . ويحدثنا سرڤيوس ، شارح ڤرچيل ، أن فريقا منهم هاجر إلى الأجزاء الشمالية من بريطانيا ، فى مقاطعة اسكتلنده ، وهناك ظلوا على عاداتهم الفطرية الوحشية . وهم إذن أجداد الاسكتلنديين الحاليين الذين منهم لورد إلْجِن ، قنصل انجلترا فى أثينا ، وهو اسكتلندى الأصل ، وقد نقل روائع الآثار اليونانية إلى انجلترا ؛ وضده يوجه بيرن هذا الهجاء المقذع فى كل هذه الفقرات . وقد وجه مثلها رينان فى « صلوات على الأكروپول » بعد ذلك بزمان طويل . وقصه هذا النهب الفظيع لتلك الروائع اليونانية طويلة مؤثرة ذكرها بيرن فى تعليقاته بالتفصيل .

كاليوم بقسوة النير الذى يئنون تحته ، نير العبودية والاستبداد .

— ١٣ —

ما ذا ! هل قال لسان بريطانى إن ألبيون سعيدة بدموع أثينا ؟ وعلى الرغم من أن هؤلاء الأشرار قد مزقوا صدر أثينا باسمك أنت ، فلا تعترف بهذه الجريمة لأسماع الأوربيين الذين سيرتاعون من هولها . ملكةُ المحيط ، بريطانيا الحرة ، تحمل أشلاء بلاد دامية الجراح ! أجل ، إنها هى ، تلك التى تقدم معونتها السخية للآخرين مُمَجَّدة بهذا اسمها ، هى التى حطمت بيديها الوحشيتين هذه البقايا والأطلال اليونانية التى أبقى عليها الزمان العاتى والطغاة المستبدون .

— ١٤ —

بَلاَّس ! أين كان درعك الذى أوقف ألَرِك القاسي وصد سيل الخراب[١] العرمَ ؟ أين كان ابن پيليوس ، الذى فر ظله من مملكة الموتى ، وظهر فى يوم الخطر هذا ، مُدَجَّجاً بسلاحه الرهيب ؟

---

(١) يذكر زونديموس (وقد عاش فى أيام حكم ثيودسيوس الأصغر ، حوالى سنة ٤١٠ بعد الميلاد) الذى كتب تاريخ الأباطرة الرومان فى بلاد اليونان أن « مينرڤا وآخيل قد طردا ألرك من الأكروپول ؛ ولكن نفراً آخر يذكر أن ملك القوط (ألرك) كان همجيا مثل زميله الايقوسى المعاصر » (عن بيرن) . وألرك هذا هو ملك القوط الذى خرب روما ونهبها فى أيام حكم هونوريوس ؛ وكان من أعظم القواد فى التاريخ بسالة وهمجية . وقد توفى سنة ٤٢٠ ميلادية ، بعد حكم دام ثلاثة عشر عاما .

ما ذا ! ألم يكن فى وسع پلوتون أن يطلق سراح هذا القائد العظيم مرة أخرى كيما يخيف هذا الناهب الآخر ؟ إن آخيل الضالّ على سواحل الاستيكس لم ينهض للدفاع عن الأسوار التى لذّ له من قبل أن يحميها .

— ١٥ —

إيه يا بلاد اليونان ! ما أقسي هذا القلب الذى يستطيع أن يراك دون أن يشعر بما يشعر به العاشق عند تراب معشوقته . من ذا يقوى على رؤية معابدك وقد دنستها أيد بريطانية ، هي والمذابح العتيقة ، أيد كان الواجب عليها بالأحرى أن تنافح عن هذه الأطلال المقدسة — أقول من ذا يقوى على رؤية هذا كله دون أن يذرف مُرّ العبرات ؟ هذه الأطلال، لقد ضاعت إلى غير رجعة ! ألا لعنة الله على الساعة التى أبحروا فيها من جزيرتهم كيما يمزقوا صدرك الدامى مرة أخرى ، و ينقلوا آلهتك البائسة إلى جو الشمال البغيض !

— ١٦ —

ولكن أين هارولد؟ أأنسي اذن متابعة هذا الرحالة الحزين وهو يبحر فوق الأمواج ؟ إنه لم يحفل بشيء مما يثير فى نفوس الآخرين كل حسرة وأسف . فلا حبيبة قد أتته كيما تبهظه بألم مصطنع ، ولا صديق أتى كيما يمد يده توديعاً لهذا الأجنبي البارد الذى صار على بَتَاتِ التجوال فى أجواء أخرى . القلب المقدود من الصخر

هو وحده الذي يمكن أن يظل غير مكترث ولا متأثر بمفاتن الجمال .
ولكن هارولد لم يعد له بعد قلبُ الأمس . فغادر غير آسفٍ بلداً توزعته الحرب والإجرام .

— ١٧ —

إن من أبحر على البحر الأزرق الداكن قد رأى ، فيما أحسب ، منظراً كله فتنة وجمال ، حينما يهب النسيم كأرق ما يكون الهبوب ناشراً الشراع الأبيض الرفاف ، فوق الحرّاقة الرشيقة ؛ فتراجعُ وراءنا أحشاد السوارى والحبال والرمال ، ويمتد البحر الشاسع إلى بعيد مرتقياً حتى حيزوم السفينة ، وتنتشر القافلة كسرب من البلشون البرّى فى طيرانه ، ويبدو أسوأ البحارة شوْلاً مليئاً بالخفة والبراعة ، لأن الأمواج المُزبدة تتلاعب بلطف ومرح حول الجؤجؤ فى كل سفينة .

— ١٨ —

ولكن آه للعالم الصغير الذى تشتمل عليه ! فالبنادق وقد أُحكم شدها ، والشبكة المشدودة على سطح المركب ، والأوامر تلقى بصوت أصحل ، والضجة التى يحدثها البحارة حين يصعدون دفعة واحدة إلى أعلى الساريات : استمع إلى نداء ضابط البحارة ، وإلى صياحهم المرِح ، بينما تنزلق الحبال فى أيديهم ؛ وانظر إلى صبي البحار الذى يبعث بصوته الحادّ مؤيداً أو مؤنّباً ؛ وها هو ذا يستطيع أن يقود ، وهو الضابط التلميذ ، جمع بحارته المطيعين .

— ١٩ —

إن سطح السفينة ليرنُ كالبلور المصقول لم يَمْسَسْهُ أىُّ تشويه ، ومن فوقه تمشّى الضابط المنوطة به الحراسة . ثم انظر أيضاً هذا الجزء من السفينة المخصص للرُّبّان ، الذى يتقدم فى مهابة وجلال . إنه صامت مرهوب من الجميع ، فلا يتحدث إلى أتباعه إلا نادرا ، كيما يحافظ على هذه الأُبّهة والصولة اللتين هما حارس الظفر والمجد . ولـكن البريطانيين قليلاً ما ينحرفون عن القانون ، مهما يكن من قسوته ، ما دام يؤدى إلى تقوية نفوسهم .

— ٢٠ —

هبوباً ! هبوباً ! نسيم البحار ، الدافع بالمركب فى طريقها إلى أمام ! سُقْ السفينة حتى تسحب الشمس الواسعة أشعتها المتضائلة . هنالك يضطر حامل علم القيادة[1] إلى طى الشراع ، حتى تستطيع السفن الأكبر ثقلاً والتى تخلفت فى الوراء أن تلحق به . آه ! يا للشقاء ، وما أقسي هذا التأخير القبيح ! ما آلم أن يَبَدَّدَ النسيمُ الرقيق من أجل هذه المراكب الثقيلة الـكسلى ! كم من الساعات يضيع قبل مطلع الفجر فى تأمل البحر بنظرات مُفكِرة حالمة ، انتظاراً لهذه السفن البليدة ، والشراع المرفرف قد أُرْخى رغما عنه .

---

(١) هـذا علم صغير ، علامة على أن الأميرال أو الـكومودور على سطح المركب .

— ٢١ —

تبدّى البدرُ فى الأفق ؛ ألا ما أروع الليلَ ! فيوضُ النور فى الموج ، تَراقَصُ فيه أو تجرى . فللعشاق فى هذه الساعة أن يزفروا وهم على الشط زفرات الغرام ، وآهات العشق، وللمحبوبات أن تصدق هذه الآهات وتلك الزفرات . ولعل الله أن يجعل حظنا كهذا الحظ حين نعود إلى وطننا . ولكن أنامل أريون[١] غليظ تلعب على أوتار الآلة التى تلذ أنغامها البحارة كثيراً . وهاهم يحيطون به فى مرح وغبطة ؛ و إذا دعاهم دور يعرفونه إلى الرقص ، تواثبوا ضاحكين وكأنه خيل إليهم أنهم لا زالوا بعد على الساحل .

— ٢٢ —

وخلال مضيق كالپه يرى هارولد صخور الشاطىء . هناك تتبادل أفريقيا وأوربا النظرات ! والأرض التى تسكنها الغادة

---

(١) أريون ، شاعرغنائى وموسيقار يونانى مشهور، كان ابن كـكلوس من متومنا فىجزيرة لسبوس . وقد ارتحل إلى إيطاليا مع بِرياندر ، طاغية كورنثوس ، فأصاب من مهنته مالاً وفيراً . وفى أثناء عودته إلى بلاده حاول بحارة السفينة التى أبحر عليها أن يقتلوه كيما يستولوا على النفائس التى حملها معه إلى بلده لسبوس . فلما رآهم أريون مصممين على هـذا الفعل ، سألهم أن يسمحوا له بعزف لحن جميل ؛ ولم يكد ينتهى من العزف حتى قذف بنفسه فى البحر وفى تلك الأثناء كان قطيع من الدُّخَس (الدلافين) قد جذبته حول السفينة عذوبة هذه الموسيقى ، فيقال إن أحدها حمله على ظهره سالما إلى تينارس ، ومنها أسرع بالذهاب إلى قصر بِرياندر الذى أمر بصلب كل البحارة عند عودتهم .

ذات السون السود والمراكشي الأسود تبدو ظاهرة تحت مشعل هيكاتوس الشاحب[١] . ما أجمل انعكاس نوره على الساحل الأسپانى ! إنه يكشف عن صخوره الفتّانة ، ومنحدر روابيه ، ونَضرة غاباته الكثيفة الأوراق . ولكن جبال موريتانيا المظلمة الجبارة تلقى بظلالها من قممها الشامخة التيّاهة حتى أوديتها المعتمة .

— ٢٣ —

ها نحن فى الليل ، حيث يأمرنا التأمل بالإحساس بأننا قد أحببنا مرة ، على الرغم من أن الحب قد هجرنا منذ زمان : والقلب ، هذا الشاكى المتوحّد الباكى على حماسته المقهورة ، ولو أنه عارٍ من الصداقة الآن ، فإنه سيحلم بأنه كان له يوماً صديق . من ذا يود أن يحنى رأسه تحت عبء السنين ، حينما يبقى الشباب نفسه بعد زوال الحب والسرور ؟ أواه ! حينما تنسى نفوسُ مَن

---

(١) كالپه اسم لجبل عال فى أقصى الجزء الجنوبى من أسپانيا ، تجاه جبل أبيله على الشاطىء الأفريقى المقابل ؛ وكان هذان الجبلان يسميان أعمدة هرقل ؛ وكالپه تسمى اليوم جبل طارق .

أما هيكاته فابنة پرسس وأسترِيا ؛ وتسمى أيضا پروسرپينه وديانا : فهى تسمى فى السماء لونا (القمر) ، وعلى الأرض ديانا ، وفى الجحيم هيكاته أوپروسرپينه ؛ وهى إلهة السحر والفتنة ، ولها سلطان على السماء والبحر والأرض والجحيم ؛ وتقدم إليها القرابين والحملان والعسل ، خصوصا فى الشعاب العالية وعند مفارق الطرق .

وموريتانيا هو الاسم القديم لمراكش .

عشقوا رقتها ورحمتها ، فلا يبقى للموت شيء يفنيه إلا التافه القليل !
آه ! أيتها السنوات السعيدة ! من ذا الذى لا يود أن يصير طفلا من جديد ؟

— ٢٤ —

كنا هكذا منحنين على الجوانب المستديرة للسفينة متأملين قرص ديانا (القمر) وهو ينعكس على مرآة المحيط ؛ فنسينا آمالنا وكبرياءنا : وإن روحنا لتستعيد ذكرى الماضي وهى لا تشعر . لم يبلغ البؤس بأحدٍ من الناس حداً يجعله خالياً من كائن عزيز ، أعز إليه من نفسه ، يشغل أفكاره ، ويسأله أن يهبه دمعة ؛ إن هذا السهم حاد ينفذ بقسوة وألم فى القلب المكلوم الذى يحاول عبثاً أن يرد طعنته النجلاء .

— ٢٥ —

الجلوس على الصخر ؛ والحلم عند الأمواج أو على حفافى الهاوية ؛ والتجوال ببطء خلال ظلال الأشجار فى الغابات ؛ ونشدان الأماكن النائية عن سلطان الإنسان ، والتى لم تطأها أو لم تكد تطؤها أقدام كائن فان ؛ وصعود الجبال الخالية من الشعاب دون أن تبصرك عيون ، حيث تسرح وتمرح قطعان بَرّية لا تحتاج إلى حظيرة ؛ والبقاء وحيداً متكئاً على الهُوى عند الشلالات المُزْبِدَة ؛ كل هذا ليس وُحدة ، بل هو حديث عذب مع مفاتن الطبيعة ، وإعجاب بكنوزها العجيبة .

— ٢٦ —

أما الدخول فى حومة الدهماء والضوضاء وتصادم الناس ، والسماع والرؤية والإحساس وامتلاك أثمن العقار ، والتجوال خلال العالم الفسيح كمواطن عالمى وُكِّل به الملال ، دون ما أحدٍ يبارك لنا ويحبنا ، ودون امرئٍ نستطيع أن نحبه ونؤثره ، ورؤية عباد الزهو المتملقين الذين يجفلون من البائسين ؛ وفقدان صديق يجعله العطف عزيزاً لدينا ، العطف العذب المؤلِّف بين قلبينا ، والصديق الذى إن فارقنا الحياة ، بدا حزيناً لا يجد الابتسام إلى جبينه سبيلا ؛ وأن لا يكون لنا صديق واحد من بين جميع هؤلاء الذين يتملقوننا ويتقلّبون فى نعمنا عليهم ، هذا كله هو العزلة ، وتلك هى الوُحْدة حقاً .

— ٢٧ —

وأكبر سعادة إذن هى حياة الراهب المتبتل ، مثل هؤلاء الذين يُرَون فوق جبل آثوس[١] المتوحّد وهم يسهرون فى المساء فوق القمم العالية الجبّارة التى تُطل على أمواج بلغت حداً من الزرقة ، وسماوات لها من السُجُوّ ما يحمل المارّ هناك فى مثل هذه الساعة على قضاء سُؤْر العمر فى هذا المكان الأقدس ؛ وهو لا يستطيع

(١) آثوس ، جبل فى مقدونيا ، بارز فى بحر إيجه ؛ ويسمى اليوم مونته سانتو (الجبل المقدس) ، لأنه مشهور بالأديرة العديدة التى يقال إنها تحتوى على مخطوطات قديمة ثمينة .

مفارقة هذا المنظر الساحر ، دون أن يمتلىء قلبه أسي وأسفا ؛ هنالك يأسي زافراً على أنه لم يَحْيَ حياة هؤلاء النُّسّاك ، ويزدادُ بُغْضاً لعالم كاد أن يكون هو قد نسيه .

— ٢٨ —

لنمرّ مسرعين بالطريق الرتيب الطويل الذى وطئته أقدام الكثيرين دون أن يدعوا فيه أثراً وراءهم ؛ ولنطّرح الحديث عن الهدوء والرياح ، والنسائم الملائمة وتلك المقاومة ، وما للرياح والموج من أهواء ونزوات ؛ ولنضرب صفحاً عن ذكر ألوان السرور والأحزان التى يعانيها النوتية وهم رابضون فى قلعتهم العائمة التى تحف بها الأمواه العالية . إن نُزّاء الرياح والأمواج كثيراً ما يعوق أمانى الملاحين ؛ ولكن لا بد يوماً أن تأتى تلك الساعة فى صباح جذلان ، التى فيها يرون : الأرض ، الأرض ؛ فيتدفق السرورُ من كل الوجوه .

— ٢٩ —

ولكن ليس لنا أن نمر بجزر كاليسو[1] صامتين ، وهى قد

---

(١) كاليسو هى إحدى الأوقيانوسيات ، حوريات البحر ، بنات أوقيانوس (البحر أو المحيط) ، وإن كان البعض يقول إنها بنت أطلس . كانت إلهة الصمت ، ومقر سلطانها فى جزيرة أو جيجيا التى لا نعرف مكانها بل ويشك فى وجودها . ولما غرقت سفينة أوليس ولم ينج غيره ، استقبلته الإلهة خير استقبال ، ووعدته الخلود إن بقى معها كزوج . غير أن أوليس رفض ؛ وبعد إقامة دامت سبعة أعوام ، سمح له بالرحيل من

تجمّعت والتفّتْ كالأخوات وسط المحيط العميق . هناك لا يزال مرفأ يَبْتسِم للاغبين ، ولو أن الإلٰهة الجميلة قد توقفت منذ زمان طويل عن سقى صخورها بالدموع ، انتظار عود من فَضَّل عليها زوجة من الآدميين . وهنا أيضاً حاول ابنه أن يثب الوثبة المريعة حينما دفع به منتور القاسي من الأعالى إلى الأمواج . فلما فقدت ملكة الحوريات الأب والابن ، ظلت تنوح على مصابها المزدوج .

— ٣٠ —

انتهى ملكها ، وباد علاها ؛ لكن لا تُخْلِد إلى هذا بثقتك ، أيها الفتى الغُرانِق الطياش ، بل خذ حِذْرَك ! فإن سلطانة من بنى البشر تحتل عرش الإلهة الخطرة ، وقد تجد فيها كالپسو جديدة . إيه يا فلورانس [١] العزيزة العذبة ! لو استطاع

= الجزيرة . وقد كان له منها أثناء إقامته ولدان : نوسيثوس ، ونوسينوس . فلما ارتحل أوليس ، حزنت كالپسو حزناً بالغاً لم يعزها عنه شىء .

و « الأودسه » لا تذكر إلا أن أتينيه قد اتخذت هيئة منتور ؛ ولكن فنلون فى كتابه « مغامرات تلماك » يذكر أن منتور قد حمل تلماك على أن يثب وثبة مريعة كيما يفر من إغراء كالپسو . وبيرن يقول عن جزيرة كالپسو : « إن جوزو يقال عنها إنها جزيرة كالپسو » .

(١) فلورانس ، هى مسز اسپنسر اسمث التى التقى بها بيرن فى ملطه ؛ وقد قال فيها الكثير من القصائد .

الجمال أن يؤثر بعد فى هذا القلب الذى كان قِدْماً ساذجاً ، ثم عزف من بعد عن الحب ، إذن لما كان هـذا القلب إلا لك أنتِ ؛ ولـكنى ، أنا الذى أبهظنى حزن فادح ، لا أتجاسر على تقديم قربان غير لائق أمام مذبحك ، ولا على أن أسأل صدراً عزيزاً كصدرك أن يشعر بألم من أجلى .

— ٣١ —

هكذا أفـكر هارولد ، حينما ألقى الطرف على عيون هذه السيدة ، وتلقى شعاعها الصافى دون أن يجول فى عقله خاطر آخر غير الإعجاب الناظر فى براءة إليها : بقى الحب بعيداً عاليا ، و إن لم يكن شاسع البُعْد ، وقد عرف كيف كان هارولد يقدم له أغلى القرابين ، ولـكنه اليوم صار لا يعده من بين عبيده ، ورفض أن يلج قلبَه مرة أخرى ، ما دام قد حاول هذا الإله الطفل[1] أن يحمله عبثا على الغرام ، حتى أيقن أن سلطانه القديم قد دالت دولته .

— ٣٢ —

كم كانت دهشة فلورانس الجميلة حينما رأت فتى كان يقال عنه إنه لا يزال يتأوه حباً لـكل ما يراه ، يقف أمام بهاء جمالها غير متأثر ولا مُدَلَّه ، هذا الجمـال الذى طالما حياه الآخرون بتنهدات قد تـكون حقاً وقد تـكون مصطنعة ، ووصفوا فيه أملهم

---

(١) كيوبيد ، إله الحب .

ومصيرهم وجزاءهم ، بل وقانونهم الذى يخضعون لسلطانه ، ورددوا كل مُغَلَّظ من الأيمان يقتضيه الجمال من عبيده وأتباعه . فما أشد ما كانت دهشتها حينما رأت شاباً كهارولد لم يشعر ، بل ولم يتظاهر بالشعور ، بلهيب الغرام الذى تتلقاه المرأة أحياناً بشيء من عدم الاكتراث ، ولكنها لا تتلقاه بغضب إلا نادراً .

— ٣٣ —

هذا القلب الذى حسبته من المرمر ، والذى اعتصم بالصمت أو نأى به الكِبْرُ ، لم يكن جديداً فى عالم الإغواء : فكم من حبالة شهوة نصبها من قبل هنا وهناك فى غير تحفظ ولا تأثُّم . وإذا كان قد عزف عن حِيَله الآثمة ، فإن ذلك لم يكن إلا حين لم يجد بعد شيئاً يليق برغباته وأمانيه . إن هارولد لم يعد يركن إلى مثل هذه الحيل ؛ وإذا كانت عيونها الزرق قد هيجت الحب فى فؤاده ، فإنه لم يدخل فى زُمْرة عشاقها الهائمين .

— ٣٤ —

لا يعرف قلبَ المرأة جيداً من يظن أن حبها يُكتسب بالتنهدات والزفرات . فماذا يعنيها من أمر اكتواء القلوب ، إذا ما امتلكها فؤاد إنسان آخر ؟ لا تُظهر كثيراً من الضراعة والذلة حينما تصف غرامك لمعشوقتك ، بل اعدل فى صلواتك أمام عيون معبودتك ، وإلا احتقرتك وازدرت غرامك ، على الرغم من حرارة أوصافك وبلاغة تعبيرك عنه . وإذا كنت حكيماً ،

فاستر حتى رقتك وعطفك ؛ والثقة السريعة تفيد جيداً فى امتلاك المرأة . هيجْها تارة ، ولاطفها أخرى ، يتُوَّجْ غرامُها سريعاً أحلامَك وأمانيك .

— ٣٥ —

ذلك درس نافع قديم ، أثبت الزمان صدقه ، وأشد الناس إيمانا به وعلما بمضمونه هم فى الآن نفسه أشد من يقاسون منه . فإن المحب إن نال كل ما تمنى ، وجد أن ثمن كل هذه الآلام والزفرات جزاء تافه لا يتناسب و إياها : فضياع الشباب ، وانحطاط العقول ، وفقدان الشرف ، تلك هى ثمارك ، أيها الحب الظافر ! أما إذا شاءت النعمة القاسية أن تخيب الأمل مبكراً ، فإن الجرح يصاب بالسموم ، و يصيراً داء لا دواء له ، حينما ينسي الحبُّ نفسهُ أن يسر .

— ٣٦ —

إليك عنى أيتها الاستطرادات التى تقطع علىَّ غنائى ، لأنه لا يزال أمامنا كثير من الطرق الجبلية التى يجب أن نمر بها ، وكثير من الشواطىء التى يجب علينا أن نساحلها ، يقودنا الحزن المفكر لا القصص الخيالى . سنمر بأجواء لها من الجمال ما لكل ما ابتدعه خيال الإنسان فى أحلامه الساجية ، بل فيها من الحسن ما فى المدن الفاضلة التى تغنى بها المحدثون ، كيما يتعلم الإنسان إلى أى

غاية سامية يجب أن يصبو ، لو قدر لهذا المخلوق الفاسد أن ينتفع بمثل هذه الدروس .

— ٣٧ —

إن الطبيعة العزيزة لا زالت خير أمّ ، على الرغم من تنوع مظاهرها . فدعني أتلقى موضوع إلهامى من قلبها العارى ، أنا الطفل البارّ بها ، وإن لم أكن عندها أعز بنيها . أوه ! إنها لأروع جمالا فى قسماتها الوحشية ، حيث لا تتجاسر أية صناعة فنية أن تدنّس سبلها . لقد تبسّمت لى دائماً ليل نهار ، على رغم كونى قد حفلت بها حيث لا يحفل الآخرون ، ونشدتها أكثر وأكثر ، وازددت بها تعلقاً ، متى ؟ إبان غضبها وثورتها .

— ٣٨ —

يا بلاد الألبان ! يا وطن الإسكندر [١] ، معبود الشباب

---

(١) الاسكندر الأكبر ؛ أما البطل الآخر الذى يشير اليه بعد فهو اسكندربج (لورد اسكندر) . وبيرن يقول : « لست أدرى هل كنت مصيباً فى أن أجعل اسكندربج من مواطنى الاسكندر الذى ولد فى بلاد مقدونيا ؛ ولكنى اتبعت جيرن الذى أعطى نفس اللقب إلى پردس وهو يتحدث عن مغامراته » . ويقول عن طباع الألبانيين : « إن الأرناؤط أو الألبانيين قد أثاروا انتباهى من حيث تشابههم مع ساكنى الجبال فى اسكتلنده : فلابسهم وشكلهم وطرائق حياتهم واحدة ؛ وإن جبال ألبانيا لتشبه كل الشبه جبال كاليدونيا ، لو كان الجو أقل لطفا ... وليس ثمة أمة يكرهها جيرانها ويخشونها مثل الأمة الألبانية » .

ومثّل الشيوخ الحكماء ؛ يا وطن سَمِيه البطل الآخر الذى طالما انتصر على أعدائه بأعمال الفروسية الممتازة . يا بلاد الألبان ! دعينى أتأمل بعيونى أرضك ، أنت أيتها الظئر الصخرية لأناس همجيين ! لقد دالت دولة الصليب ، وارتفعت المآذن العالية ، وتلألأ الهلال الشاحب فى الوادى ، خلال خمائل السَّرْو المحيطة بمشارف كل مدينة .

— ٣٩ —

أبحر اتشيلد هارولد ، وعبر البقعة القاحلة التى أطلت منها پنلوپه (١) الحزينة على الأمواج الزرقاء ؛ ورأى أمامه الجبل العابق بعد بالذكرى ، ملاذ العاشق ، وقبر إلهة لسبوس الشاعرة ، أىْ سافو البائسة ! هلاَّ يستطيع إله الشعر أن يحمى قلباً يشتعل بنار العبقرية المقدسة ! كيف تخلى إذن عن تلك التى وهبَت الخلود وتركها تفنى ، إذا كان حقاً أن القيثارة تضمن لنا مجداً خالداً ، هذا الخلود الذى هو الفردوس الوحيد الذى يمكن لأبناء الأرض أن يصبوا إليه .

---

(١) پنلوپه ، أميرة يونانية مشهورة ، ابنة ايكاريوس وزوجة أوليس ، ملك ايثاكا . وقد احتفل بزفافها إلى أوليس فى نفس الوقت الذى تزوج فيه منلاوس هيلانة . وقد انسلت منه تلماك . ولما اضطر زوجها إلى الاشتراك فى حرب طروادة ، واستمرت هذه الحرب عشر سنوات ، حزنت حزناً شديداً ؛ ولما لم يعد أوليس مع بقية أمراء اليونان عند انتهاء الحرب ، ازدادت مخاوفها . ولها بعد هذا تاريخ طويل حى شائق لامجال لذكره هنا.

— ٤٠ —

كان ذلك فى مساء رقيق من أماسي خريف اليونان ، حين حيّا اتشيلد هارولد رأس لويكاديا [١] من بعيد ، هذا المكان الذى طالما اشتاق إلى رؤياه ، وفارقه آسفاً عليه . لقد تجوّل مراراً فى أماكن كانت شهوداً على معارك خالدة : اكتيوم ، ليپانت [٢] ، وطرف الغار ؛ ولكن قلبه لم يتأثر لما أثارته فى نفسه من ذكريات ، لأنه — وقد وُلِد تحت نجم بعيد غير ميال إلى الأمجاد — لا يسر بأحاديث المغامرات الدامية والمعارك الباسلة؛ إنما هو يُبغض مهنة الشجعان ، ولا يلقى منه نضال المحارين غير ابتسام عريض ساخر .

— ٤١ —

ولكنه حينما رأى نجمة المساء فوق صخرة لويكاديا الناتئة

---

(١) لويكاديا جزيرة فى البحر الأيونى ، تسمى الآن سنت مورا ، بالقرب من ساحل الاپيروس ، وهى مشهورة برأس صخرى يمتد فى البحر اسمه لويكات أولويكاس ، من فوقه كان العشاق البائسون يقذفون بأنفسهم فى البحر . ومن بين هؤلاء سافو ، الشاعرة اليونانية المعروفة التى وثبت هذه الوثبة كيما تتخلص من وجدانها الغرامى العنيف الذى شعرت به نحو فاءون .

(٢) معركة اكتيوم هى التى وقعت بين أوكتاڤيوس من ناحية ومارك أنطونيوس وكليوبتره من ناحية أخرى ، كما هو معروف ؛ ومعركة طرف الغار هى التى جرت بين ناپليون والانجليز ؛ أما معركة ليپانت فأقل شهرة وقد وقعت فى خليج پتراس ، وفيها فقد سرفنتس ، مؤلف دون كيخوته ، يده اليسرى .

الحزينة ، وحينما حيّاً هذا الملاذ الأخير للعشق البائس ، شعر أو خُيِّلَ إليه أنه شعر بإحساس غير عادى : فلما كانت السفينة تنزلق فى روعة وجلال تحت الظل الذى تلقيه هذه الصخرة القديمة بعيداً فوق البحر ، تَتَبَّعَتْ عينه الحزينة الولهى مجرى الأمواج الكاسفة . وعلى الرغم من أنه كان غارقاً فى أحلامه المعتادة ، فقد بدت عيناه أكثر سكوتاً وطمأنينة ، تجلى جبينه الشاحب ناعماً مستوياً .

— ٤٢ —

انبلج الفجر ، وتبدت روابى ألبانيا الكالحة وصخور سولى الكابية ، وقمة پندس النائية وقد تدثر نصفها بالضباب ، وتجللت بروافد من الثلج صبغتها أشعة الصباح الأولى بصبغة من الأرْجُوان الجميل ؛ وتبددت أبخرة الصباح ، فسمحت برؤية مساكن قاطنى الجبال : هنالك تعوى الذئاب ، ويَحد النَّسْرُ منقاراً قوياً ، والطيور والحيوان الوحشي ، والناس الأكثر وحشية ، كل هؤلاء يبدون ؛ وهناك أيضاً تتجمع هذه العواصف المحيطة التى تزلزل الفصل الأخير من العام .

— ٤٣ —

هنا شعر هارولد بأنه قد أصبح الآن وحيداً ، فودع الأمم المسيحية وداعاً طويلا ؛ فها هو ذا قد غامر بدخول بلد مجهول ، يعجب به الكل ، ولكن الكثيرين يخشون من زيارته : إن

قلبه قد تسلّح ضد القدَر ؛ وحاجاته قد قل عددها ؛ أجل إنه لا يسعى إلى الخطر ، ولكنه لم يتقهقر مرة أمامه . ألا إن لهذه الأماكن مظهراً موحشاً ؛ ولكنه منظر جديد على كل حال : وهذه الفكرة تخفف عنده لذع نيران الصيف ، وشدة رياح الشتاء ، ومتاعب السفر المتتالية .

— ٤٤ —

هنا الصليب (أجل الصليب ، فلا زال يوجد شيء منه ، وإن كان ملطخاً بالعار قد فضحه المسلمون) ينسي تلك الكبرياء التي تصاحب فى كل مكان خدمته الحريصين على تقديس حرمته ؛ وهنا يُحتقر القسيس والمسيحى العادى على السواء . أيتها الأسطورة العجيبة ! على أى نحو كنت : صنماً ، أو قديساً ، أو عذراء ، أو نبياً ، أو هلالاً ، أو صليباً ، وأيا ما كان الرمز الذى يقدسك العالم من أجله — فإنك لست كنزاً إلا لرجال الدين ، وإنك لضياعٌ لسائر الناس أجمعين ! من ذا الذى يستطيع أن يستبعد الخبَث من ذهب العبادة الصحيحة فى خليطك المدنّس ؟

— ٤٥ —

تأمل خليج امبراتشيا ، حيث فقد عالَم من أجل امرأة ، امرأة ساحرة بريئة ! فى هذا الخليج المتجعد الموج تصارعت أساطيل القواد الرومانيين واساطيل الملوك الأسيويين[1] فى

(١) قال بيرن فى خطاب إلى أمه سنة ١٨٠٩ : « يقال إنه فى عشية

معركة لاشك فى أنها دامية هائلة ، لكن لا يقين بالنصر فيها لأحد الفريقين . تأمل حيث ضُفِّرت أكاليل النصر لقيصر الثانى (١) ! إنها لتذبل اليوم ، كما ذبلت الأيدى التى أنبتتها ؛ إن هؤلاء الفوضويين الامبراطوريين ليزيدون فى شقاء بنى الإنسان أضعافاً مضاعفة . إلهى ! هل قدر لأرضك أن تكسب هكذا وتفقد ؟

— ٤٦ —

من الصخور العاتية التى تحد هذا المناخ القاسي (ألبانيا) حتى وسط الأوداء الإليرية ، تجوّل اتشيلد هارولد فى جبال عديدة خلال أقاليم لم تكد تذكرها أقاصيص التاريخ . ولكن أمثال هذه الأودية الجميلة لاتكاد تُرى فى أتِّكا المشهورة ؛ بل وليس فى تمبيه مفاتن لا يراها المرء فيها ؛ وجبل البرناس العزيز هو أيضا لا يستطيع أن يُدرك شأو بعض البقاع المستورة خلف هذى الصخور الساحلية ، على الرغم مما له من شهرة عتيقة وقداسة عند أولى الفن .

= اليوم الذى وقعت فيه معركة اكتيوم ، كان مع انطونيوس ثلاثة عشر ملكا عند الصباح . وقد رأيت اليوم (١٢ نوفمبر) أطلال مدينة اكتيوم التى فقد عندها انطونيوس العالم . فى خليج صغير ، كانت حرّاقتان تقومان بإجراء مناورات فيه . وكل ما بقى منها سور على وشك السقوط . ومن الجانب الآخر من الخليج تقوم أطلال نيقوبوليس التى بناها أوغسطس ، كتذكار لانتصاره » .

(١) مدينة نيقوبوليس التى لا تبعد عن اكتيوم إلا قليلا . وقيصر الثانى هو أوكتافيوس .

— ٤٧ —

لقد مرّ بالقرب من بندس ذى الذروة الناصعة البياض ؛ واجتاز بحيرة أخيروزيا [١] ؛ ثم مضي دون أن يعرّج على عاصمة الإقليم ، مُغذا فى سيره كيما يحيّي أمير ألبانيا [٢] ، الذى تحترم أوامره أكثر مما تحترم القوانين ، لأنه يحكم بيد دامية أمة شموساً كأنها قُدّت من صَلْد الصفا . ومع هذا ، فإن ثمة هاهنا وهناك بعض العصابات الجبلية الجسورة التى تستهين بأسه ، وتتحدى من قلعتها الصخرية سلطانَه ، دون أن تستسلم لشيء اللهم إلا الذهب .

— ٤٨ —

زِتْزا ، أيها الجبل الدَيْرانى ، أيها المأوى المقدّس السعيد ، على الرغم من صغرك ، من أية ناحية نظرنا حولنا ، فوقنا ، وتحت جباهك ، فما أجمل ألوان مناظرك التى تشبه ألوان قوس قزح ، وما أشد سحر مفاتنك ! الصخر والنهر والغاب المتوج للجبال وكل ما حولنا ، وما فوقنا من سماوات شديدة الزرقة تُشيع فى الكل انسجاما ؛ وتحتنا ، يحدث صوت السيل البعيد الهدار عن المكان الذى يسّاقط فيه الشلال بين هذه الصخور المعلقة ، التى وإن صدَمت الروح فإنها تشوقها وتسرها .

---

(١) يرى بوكفيل أن هذه البحيرة هى اليوم بحيرة يانينا .

(٢) هو على باشا المشهور .

— ٤٩ —

وأسوار الدير البيض تقوم ظاهرة وسط الغابة المتوجة لتلك الرابية الأريضة التى ترتفع إلى جوارها فى صفوف عالية جبالٌ تسودها ، والتى هي أيضاً بدونها رائعة لا تخلو من جلال . هنا فى داخل تلك الأسوار الرفافة جميلةً فوق الأعالى يسكن الرهبان اليونانيون ، هؤلاء الرقاق الحاشية الذين لا يبخلون بحسن الضيافة والترحاب ؛ فالمسافر يلقى عندهم سعة النَّوَال ؛ ولا يفارق هذا المـكان دون تأثر ، إن كان ممن يلذ لهم تأمل مفاتن الطبيعة .

— ٥٠ —

هنا فى أشد ساعات القيظ دعه يستريح ؛ فالعشب منعش تحت هذه الأشجار العتيقة . هنا الأنسام ذوات الأجنحة البالغة الرقة تروّح على صدره اللاغب ، كيما يستروح النسيم العليل من السماء نفسها : إن السهل بعيد فى أسفل — أوه ؛ دعه يقتنص السرور الصافى قَدْرَ ما فى وسعه ؛ إن الأشعة المحرقة لا تنفذ إلى هنا محملة بالأوبئة . فدع الرحالة المخذول النشاط ، المتمهل فى تجواله ، دعه يتمطى هنا تعباً ، ويعجب حسبما شاء بالفجر ، و بالشمس إبان مسيرها ، و بجمال الليل الساجى .

— ٥١ —

إن جبال كيميرا الـكابية الشامخة المتطاولة إلى أبعد مدى النظر ، لتمتد بعيداً من الشمال إلى اليمين ، وكأنها مسرح الطبيعة

البركانى : تحتها يهتاج وادٍ تدب فيه سَوْرة الحياة ، ففيه قطعان مرحة وأشجار متماوجة وأنهار جارية وصَنَوْبر الجبال وهو يهتز فى أعاليه . ألا فلتنظر إلى أشيرون (١) الأسود ! الذى كان من قبل مقدساً للقبر . أىْ بلوتون ! إذا كان ما أراه هو الجحيم ، فأغلق جنتك إذن ، فظِلّى لن ينشدها .

— ٥٢ —

هذا المنظر لا تشوّه فتنته أية أبراج لمدينة . ويانينا لا تُرى وإن كانت غير بعيدة ، فقد حجبتها ستائر التلال : والناس هنا قليلون ، والقرى نادرة ، والأكواخ الضئيلة متوحّدة . ولكن الماعز وقد تعلق على شفا الهاوية يرعى العشب والشجيرات فى هدوء ؛ والراعى الصغير المتدثر بمعطفه الأبيض ، قد تمدد على صخور وَعْرة ؛ وإنه لينظر إلى قطيعه الشارد بعين مفكرة حائرة ؛ فإذا هبت العاصفة ، لاذ من غضبها الهائل بكهف يحميه .

— ٥٣ —

إيه يا دودونا (٢) ! أين خميلتك العتيقة ، وينبوعك النبَوى

---

(١) أشيرون عند القدماء ، واسمه اليوم كلاس ؛ وهو نهر من أنهار تسپروتيا فى مقاطعة ابيرس يصب فى خليج امبراتشيا ، كما ذكرنا آنفا.

(٢) دودونا ، مدينة فى تسپروتيا بمقاطعة ابيرس ، وفى ظن البعض أنها فى تساليا ، وعند مشارفها تل صغير يسمى طومارس عليه كان يوحى بوحى چوپتر ، وهو وحى مشهور يقال إنه أقدم وحى فى بلاد اليونان

ووحيك الإلهى ؟ أى وادٍ ردد صدى جواب چوپتر ؟ وأى أثر تُراه باقياً من معبد سيد الرعد ؟ كل هذا قدصار نسياً منسياً — فهل يجسر الإنسان على الشكوى ، إذا كانت الروابط الواهية التى تربطه بالحياة ستقطع ؟ صهٍ ، أيها المخلوق الأحمق ، دع الشكوى التى لا نفع فيها ، فلعل مصير الآلهة أن يكون مصيرك : أو تود أن تحيا وتبقى أكثر من المرمر أو البلوط ، إذا كانت الأمم والعوالم خاضعة لضربة الفناء !

— ٥٤ —

خلَّف اتشيلد هارولد حدود أبيرس وراءه ، واختفت الجبال عن ناظريه . إن العين التى يرهقها طولُ تصعيد الطرف إلى أعلى لتشعر بالسكينة والنعيم حينما تبصر وادياً ناعماً كأنعم ما يمكن أن يأتى به الربيع من مرج مُعْشب . إن للسهل أيضاً مفاتنه الكبرى ، حينما يفيض نهر قوى بأمواجه الرائعة ، وتتماوج الأشجار والخمائل

= كلها ، وكان يتم بواسطة الحمام ، فتأتى حمامتان سوداوان ، فيما يحدثنا هيرودوتس نقلا عن المصريين ، من مدينة طيبة فى مصر ، تطير إحداهما الى معبد چوبتر آمون ، والأخرى الى دودونا . وكانت الخميلة الواسعة المحيطة بمعبد چوبتر هنا ذات قدرة على إلقاء الوحى ، وكان غالبا ما يلقى بواسطة البلوط المقدس والحمام القاطن فى الناحية . وفى داخل هذه الخميلة كان يوجد ينبوع ذو ماء قراح ، له القدرة على إضاءة مشعل بمجرد لمسه ؛ وكان هذا الينبوع يجف جفافا تاما فى الظهيرة ، ثم يعود الى الجريان الكامل فى منتصف الليل ، ومنه يبدأ فى النضوب حتى ينضب تماما فى الظهيرة .

على شطئانه ، وتتراقص ظلالها فوق صفحة الماء الصقيلة ، أو تغفو على ضوء القمر فى هجوع منتصف الليل الرائع .

— ٥٥ —

غابت الشمس وراء طومارس الواسع . وتجاوب هديرُ لاؤس الزّخار الجبار ؛ والتأمت ظلال الليل قليلا قليلا فوق الأرض ، حينما رأى اتشيلد هارولد ، وهو ينحدر مع النهر بشطئانه الوعرة الملتوية ، مآذن تيبالن تلمع كأنها شُهُب فى السماء ، وأسوارها تظل على مجرى النهر ؛ فلما اقترب منها ، سمع جلبة عساكر تزيد فى صوت النسيم الزافر فى الوادى الطويل .

— ٥٦ —

مَرّ بالقرب من البرج السكوت ، برج الحريم الأقدس ؛ ودخل من الباب الكبير ذى القباب ، ورأى قصر هذا الزعيم الرهيب الذى دَلّ كل ما حواليه على جبروته وصولته . لقد جلس هذا الطاغية محفوفاً بأبهى مظاهر الفخامة ، وقد وقف العبيد والخصْيان والجنود والضيوف والمشايخ بين يديه . إن مقامه من الداخل قصر ، ومن الخارج قلعة : وإنه ليبدو وكأنه مجمع للناس من كل فج وجو .

— ٥٧ —

وثلة من الجنود الراكبين فوق جياد مُطَهَّمة فاخرة الإسراج قد ربضت فى فِناء القصر متأهّبة لكل عراك . وفى داخل

القصر فِرَق غريبة تملأ الدهاليز . ومن حين إلى حين كان الصدى في القباب يردد كَدَفة جواد امتطى صهوته تترىءٌ ذو عمامة ضخمة . لقد اختلط هنا التركى واليونانى والألبانى والمراكشي في أزياء متنوعة مختلفة الألوان ، بينما أعلن صوت بوق الحرب الرهيب مقدَم الليل .

— ٥٨ —

ما أروع منظر الألبانى الوحشيّ وهو متدثر حتى ركبتيه ، وعلى رأسه قد عُصِب شال ، وفى يده بندقية مزركشة ، وثيابه قد وشّاها تطريز من الذهب ؛ وما أجمل المقدونى بوشاحه القِرْمِزى ؛ و « الدلى » ، وعلى رأسه خوذته العسكرية ، قد حمل سيفه المنحنى؛ واليونانى الزَوْل الماكر ؛ والنوبى الأسود الخِصي؛ والتركى الطويل اللحية الذى لا يتنازل لمخاطبتك إلا نادرا ، وهو شاعر بأنه سيد الجميع ، وله من الصولة مالا يجعله وديعا .

— ٥٩ —

لقد احتفل حَشْدُهم : فمنهم من استلقى على ظهره ، متمليا بالمنظر المتنوع المتبدى أمام عينيه ؛ ومنهم من يلعب أو يشعل نارَجيلته ؛ وفريق من المسلمين الأتقياء يصلى لله ؛ وهناك ألبانى يتمشي بزهو وخُيَلاء ؛ وهنالك يونانى يهمس مثرثراً . صه ! ما هذه الأصوات الجليلة الهاتفة من فوق المسجد فى هدوء الليل ؟ إنه صوت المؤذن وقد هزّ بأذانه المئذنة ، ودوّى هاتفا : « لا إله

إلا الله ! حيّ على الصلاة ! الله أكبر ! »

— ٦٠ —

كنا حينئذ فى شهر رمضان ، شهر الصيام ، الذى يمسك المرء فيه عن الطعام والشراب طوال النهار ؛ حتى إذا ما تولت ساعة الغروب المتوانية ، استعاد التمتعُ بأطايب المأكل والمشرب سلطانه . فإذا بالحركة تدب من جديد فى كل مكان ، والخدم يهيئون الموائد الفخمة ؛ والرواق بدا خالياً من كل إنسان ، إنما جاءت الأصوات من الحُجُرات مختلطة مبهمة ، وكان العبيد يغدون ويروحون باستمرار .

— ٦١ —

ولكن صوت المرأة لا يسمع مطلقاً فى هذا المكان . لقد أُغْلِق عليها فى مكان منفصل ، ولا يسمح لها بأن تخطو خطوة دون أن تكون محجبة مخفورة ، وقلبها وشخصها إنما لإنسان واحد فحسب ؛ حتى ألفت قفصها ، فلم تعد تستشعر رغبة فى الخروج منه . إنها سعيدة بحب سيدها وبمشاغل الأمومة العذبة : المشاغل المباركة التى تسمو فوق كل العواطف والأحساس إلى حد بعيد . إنها تربى بنفسها الولد الذى حملته ، ولا تُبْعده مطلقاً عن صدر لا يعكر سلامه وجدان وضيع .

— ٦٢ —

اضطجع على[1] (باشا) فوق حشايا شهوانية تعبّق بالراحة في مقصورة مرصوفة بالمرمر ، ينبثق في وسطها ينبوع من الماء الحيّ ، تنتشر عن انبثاقاته طراوة منعشة سارّة . إن علياً رجل حرب وشدة ؛ ولكن الرقة تسود جبينه الوقور إلى درجة لا نستطيع أن تستشفّ من خلفه إلى أى حد يلذ لقلبه القاسي أن يفعل فعلات وحشية دامية .

— ٦٣ —

وليس هذا لأن اللحية الهِلَّوْف البيضاء التى تُزَيِّن وجهه لا تتفق وعواطف الشباب ؛ فإن الحب يهزم السن ، كما أثبت هذا حافظ الشيرازى ؛ وبهذا تغنى شاعر تيوس[2] ، فصدَّقَ

---

(١) هو على باشا يانينا الملقب بالأسد ، وقد ولد فى سنة ١٧٤١ فى تيباليتى التى كان أسلافه بكوات فيها ، ولكن أباه فقد هذا المنصب . فلما نشأ علىّ عزم على استرداده ، وبدأ بأن ألف عصابة من اللصوص وقطاع الطرق ، واستطاع بواسطتهم استرداده ؛ وثبتته الحكومة العثمانية فى منصبه . ثم استولى على يانينا فى سنة ١٧٧٨ . وكان هو الحاكم الفعلى المستقل على ألبانيا لأكثر من ثلاثين سنة . ولما خشى السلطان بأسه ، أمر بقتله ، فقتل فى قصره سنة ١٨٢٢ . وبذا تحققت نبوءة بيرن عن مصيره فى ختام الفقرة التالية .

(٢) تيوس أو تايوس ، (وتسمى اليوم سجاجق) مدينة ساحلية على شاطىء أيوليا فى آسيا الصغرى تجاه جزيرة شامس ؛ وقد ولد بها الشاعر أنكريون ، وهو شاعر غنائى يونانى مشهور ، عرف بالمجون والشهوة والعكوف على المسكر ، وكان مدلها بحب غلام اسمه باثيلوس ؛ =

القولَ . ولكن الجرائم التى تستهين بصوت الرحمة الرقيق ، والتى تبدو فظيعة فى أعين جميع الناس ، وبخاصة المتقدمين فى السنّ منهم ، هذه الجرائم قد وسمت على باشا بميسم النمر المفترس . إن الدم يدعو الدم ؛ والذين بدأوا حياتهم بالدم لابد أن يختموها بالدم .

— ٦٤ —

هنا أراح الرحالة أقدامه المكدودة ، متملياً بكثير من الأشياء التى كانت فى الغالب جديدة عليه : على سمعه وعلى بصره . وتأمل حواليه رفاهية المسلمين وترفهم ، حتى إذا ما جَهَدَته سريعاً هذه المناظرُ الفسيحة الفائضة بالثروة والشهوة ، لم يَرُقه بعدُ هذا المقام لعظيم آثر تجنب ضوضاء المدينة . ولو كانت هذه الدار أقل ترفاً وبذخاً ، لكانت أشد عذوبة حقاً . ولكن طمأنينة القلب تبغض المسرات الصناعية ، واللذة إذا مزجتِ الأبهة والفخفخة فقدت طعمها .

— ٦٥ —

قاسية قلوب أبناء ألبانيا ؛ لكن لا تعوزهم الفضائل ، على الرغم من أن هذه الفضائل لا تزال فجة غير ناضجة . فأين هو العدو الذى رأى ظهرهم مرة ؟ وأين هم الجنود الذين يتحملون مثلهم متاعب الحرب ؟ إن حياتهم ليست أقل قناعة فى عهد

= ومقطوعاته الغنائية (أود) لا تزال باقية، وتمتاز بالمنوبة والرقة والأناقة. وقد ازدهر حوالى سنة ٥١٠ ق . م .

السلم منها فى أيام الـكوارث والخطوب . إن انتقامهم قتّال ، ولـكن صداقتهم مأمونة . وإذا دعاهم داعى المروءة أو عرفان الجميل ، اندفعوا غير مبالين إلى حيث يقودهم رئيسهم .

— ٦٦ —

رآهم اتشيلد هارولد فى برج رئيسهم (على باشا) ، وقد هبوا جماعات كيما يخوضوا غمار الحرب فى سبيل المجد ؛ ورآهم أيضاً من بعد حين وقع فى أيديهم ، صريعاً لمهنة عابرة : فى هذه الساعة التى يزداد فيها الأشرار من الناس عتُوّاً على البائسين ، تلقاه الألبانيون بالتجلة والإكرام فآووه ، بينما الناس الأقل منهم وحشية كانوا فى مثل هذه الظروف يتلقونه بإكرام أقل ، و بنو وطنه كانوا ينبذونه . آه ! ما أقل الذين تثبت قلوبهم فى مثـــل هذه المِحَن !

— ٦٧ —

وحدث أن ريحاً معاكسة قد دفعت بمركبه إلى شاطىء سولى الصخرى ، بينما كان الظلام يخيم حواليه ؛ وكان النزول إلى البر خطراً ، وأخطر منه البقاء فوق الأمواج الوحشية الهائجة . تردد النوتية قليلا ، موجسين خيفة أن يكون هاهنا مدعاة غَرَر ومخاتلة . وأخيراً تجاسروا على النزول ، جزعين من أن يقعوا فريسة دامية لهؤلاء الذين يبغضون المسلمين والفرنجة على السواء .

— ٦٨ —

جزع لا داعى له ! لقد مد السوليون إليهم يداً مُرَحِّبة ، وقادوهم خلال الصخور والمستنقعات الخطرة . إنهم أكبر رحمة من العبيد المتحضرين ؛ وإن كانوا أقل منهم زخرفة للمقال ؛ فقد أذكوا نار الموقد ، وجففوا ثيابهم المبتلة ، وملأوا الكأس ، وأوقدوا المصباح الجذلان ، وقدموا إليهم طعاماً ، وإن يكن متواضعاً ، فقد كان أعز ما تملكه أيديهم . إن هذا السلوك ليحمل طابع الرحمة الإنسانية : الترفيه عن المكدود وإراحة المُتْعَب . أى درس للسعداء ، وأى عار على الأشرار !

— ٦٩ —

لكن حدث ، حينما أراد هارولد توديع هذه البلاد الصخرية المضيافة ، أن كان ثمة عصابة من اللصوص وقطاع الطرق الذين أشاعوا الفزع والرعب والخطر فى هذا الطريق ، ونشروا فى كل مكان خرائب الحديد والنار ؛ فأخذ حامية مخلصة ، باسلة فى الحرب ، صلبة فى القتال ، قوية على المتاعب ، واجتاب فى رفقتها غابات أكرنانيا الشاسعة ، ولم ينفصل عنها إلا حينما أبصر أودية إيتوليا[1] ، وأمواج أخيلوس الفضية .

(١) إيتوليا ، مقاطعة تحدها الأپيرس واكرنانيا ولوكريس فى منتصف بلاد اليونان ، فيما يقال . وأهلها معروفون بالجشع وسوء الضيافة .
أما أخيلوس فهو نهر فى أپيرس ، سمى باسم إله يقال إنه تحول اليه بعد انتصار هرقل ؛ وهذا النهر ينبع فى جبل پندس ويصب فى بحر أيونيا ؛ ويقول البعض إن هذا النهر قد انبثق من الأرض بعد الطوفان .

— ٧٠ —

وحيث يشقُّ أتْريكى المتوحّد حوضاً مستديرا فيه ترقد الأمواج اللاغبة كيما تعكس فى صمتٍ أشعة القمر ، تسمرّ أشجار الخميلة الخضراء المجللة للرابية ؛ حينما يغشيها ستار الظلام ، وتتراقص برشاقة ورقة على صدر الأمواج الصامتــة ، بينما أنسام الجنوب تلاطف الصفحة الزرقاء للخليج الذى لا يثنى ريحها الرقيق شيئاً من صفحته . ها هنا استُقبل هارولد بالترحاب ، وقد ملــكه التأثر وهو يتأمل هذه اللوحة الجميلة ، لأن الليــل عنده مصدر لوافر اللذائذ والمسرّات .

— ٧١ —

على الشاطىء الأملس تلألأت نيران الليل : وكانت مأدبة المساء قد انتهت ، ودارت كؤوس الخمر الأرجوانية ؛ وهذا الذى أتى اليهم فجــأة (اتشيلد هارولد) توقف يحدق فيهم بعيون الدهشة . وقبل منتصف الليل ، هذه الساعة المليئة بالسكون ، بدأت الملاهي الوطنية للجمع الحاشد : فألقى كل پليكار[1] حسامه ، ووضع يده فى يد آخر ، وتماسك الــكل وتواثبوا فى إيقاع بديع منشدين أغانيهم .

---

(١) « پليكار ، مأخوذة من اختصار الــكلمة اليونانية παλικαρι ، وهو الاسم المشترك لــكل الجنود الذين يتكلمون الرومية بين الألبانيين . ومعناها الأصلى : فتى » (بيرن)

— ٧٢ —

وقف اتشيلد هارولد على مسافة قليلة ، ورأى فى غير امتعاض هذا العيد والمَرَح ، ولم تعَفْ نفسه هذا المرح البرىء ، و إن كان فطرياً خشنا : أجل ، لم يكن منظراً تافهاً خسيساً ، منظر أفراحهم البربرية ، الخالية مع هذا من الإِفحاش . وحينما تلألأت أشعة النيران فى وجوههم ، ازدادت حركاتهم خفة ونشاطا ، ورفَّت عيونهم السود ، وتهدلت غدائرهم حتى مناطقهم فى فيض من الشعر الوحشي، وغنوا جميعاً هذه الأغنية التى كانوا يرتلون بعضها : و يصيحون بالبعض الآخر[١] :

— ١ —

يا صاحب الطَّبْل ردِّد صوتك العالى
واملأ أسود الوغى من طيب مأمولِ
هبَّت على الصوت أبنـــاء لأجبال
أبناء كيمارَ ، إلـيرا ، إلى سُولى

— ب —

من ذا الذى بذّ هذا الأسود السُّولى
فى المعطف الأبيض المنسوج بالوَبْر
إلى الذئاب يَرُدّ الضأنَ ، والغولِ
وينزل السهل مثل السيل من صَخَرِ

(١) « هذه الفقرات مأخوذة من عدة أغان ألبانية ؛ وقد استعنت بتراجم رومية أو إيطالية » (بيرن) .

— ح —

أبناء كِبار لا يُسْدون غُفْرانا
إلى الصديق ، فهل للخصم إغضاء
هل نترك السيف نحو الوِتْر ظمآنا ؟
بأى مَرْمى ، كصدر الخصم ، إغراء ؟

— ء —

بالصَّيد تُرْسِلُ مَقْدُنيا إلى الحرب ،
فيتركون زمان الكهف والصَّيْد
ثيابهم من نجيع الدمْ فى سكْب
قبل السلام ووضع السيف فى الغمد

— هـ —

وإنّ قرصان يَرْجا[1] عند بحرهمْ
يعلّمون النصارى قسوة الذلْ
ويحملون الأُسارَى عند شَطهم
على الزوارق فى الأصفاد والغُل

— و —

لا أطلب اللهو بالأموال يُجتلبُ ؛
بالسيف أَكسِب ما لا يكسب الفشِل

(١) يرجا ، ميناء على البحر ، بالقرب من سولى .

إلا بمالٍ ؛ وعرْسي بعدُ أكتسبُ ؛
كم من فتاةَ أسرتُ بعدَ مُقتتل !

— ز —

إنى أحب محيا الخوْد مُنْضرةً ،
دعها تناغى بموسيقى تُرَدِّدها
دعها تهيِّىء قيثـــاراً موترةً ،
دعها تغنى وترْثى موت سيدها

— ح —

اذكر سقوط إبْرِڤيزا[1] ثم نكبتها ،
وصيحةَ الظافر الغازى ، وشكواها ؛
كم من بيوت مضت للنار طعْمتها ،
لم تُبْق شيئاً سوى غيدٍ هويناها

— ط —

لايعرف الخوفَ ، من جند الوزير فتى ،
يوماً ، ولا رحمة منـــه لأعدانا
من عهد أن يهْدى الدنيا النبىُّ أتى ،
لم يُبْصر الناس ليثاً مثل باشانا

---

(١) استولى عليها على باشا فى سنة ١٧٩٨ من الفرنسيين الذين كسبوها فى السنة السابقة ، وفقا لمعاهدة .

— ى —

مختارٌ(١) الشهم للدانوب قد بعثا
ابنا قوياً على الأعداء جبّارا
بالجيش يأتى ، لِدَمٍ ليس مكترثا ،
يحطّم الروس ، أعداء وكُفارا

— يا —

يا حامل السيف شهِّرْ سيف قائدنا !
يا ضارب الطبل ، عِدْ بالحرب تأتينا
ويا جبالاً ترانا عند شاطئنا
لن تبصرينا سوى بالنصر آتينا

— ٧٣ —

أىْ بلاد اليونان الجميلة ! أيها الطلل الحزين الباقى لمجد قد باد ! أنت خالدة ، وإن كنت غير موجودة بعد؛ أنت عظيمة ، على الرغم من سقوطك ! من ذا الذى سيقود أبناءك المشتتين الآن كيما يحطم قيود الاستعباد التى ترسفين فيها منذ زمان طويل ؟ وا أسفاه ! لقد باد هؤلاء اليونانيون الصناديد الذين تقحّموا الموت الأكيد ونشدوا قبرهم الماجد الناظر بالفخر فى مضيق ترموپيليه ! أوه ! أين من يستلهم هذه الروح النبيلة الباسلة ؟

(١) مختار باشا هو ابن على باشا الذى أُرسل ضد الروس الذين كانوا بسبيل غزو المقاطعات التركية .

أين من يقفز من شطئان ايروتاس [١] ، داعياً إياك من القبر الذى ترقدين به ؟

— ٧٤ —

أىْ روح الحريّة ! حينما رافقتِ ترازيبيلوس [٢] وصحبه فوق قمة فيليه ، هل قدرت العار والكوارث التى تصيب اليوم نضارة جمال سهلك الأتيكى ؟ إنهم لم يعودوا ثلاثين طاغية هؤلاء الذين يكبّلون أحفاد ترازيبيلوس ، بل فى وسع كل مسلم أن يكون السيد فوق أرضك . إن أبناءك لا يستطيعون النهوض ، بل يقنعون باللعنات الزائفة التى لا تجدى فتيلا ، ترتعد فرائصهم تحت صولة يد الأتراك الحديدية . إنهم عبيد من الميلاد حتى القبر

(١) ايروتاس نهر بنيت إسبرطه على شاطئه ؛ والذين سقطوا فى ثرموبيليه كانوا من الإسبرطيين .

(٢) ترازيبيلوس ، قائد أثينى مشهور ، حاول طرد الطغاة الثلاثين ، ونجح فى هذه المحاولة سنة ٤٠١ ق . م ، وكان صحبه فيها ثلاثين من أصدقائه فحسب . وكان جزاؤه عن هذا العمل الوطنى النبيل تاجا مصنوعا من غصنين من الزيتون .

أما فيليه فقرية فى أتـكا على مقربة من أثينا ، كانت جيدة التحصين ، إذ تقوم على صخرة وعرة شديدة الانحدار فى الطريق من طيبة إلى أثينا . وشهرتها أتت من أنها كانت أول بقعة استولى عليها ترازيبيلوس حينما بدأ تحرير أثينا من طغيان الثلاثين الطغاة (سنة ٤٠٤ ق . م) . وعنها يقول بيرن : « من قلعة فيليه التى تبقت منها أطلال كبيرة ، تبدى للعين مباشرة سهل أثينا وبنتليكوس وهميتوس وايجه والأكروبول ؛ وعندى أن هذا المنظر أروع من سنترا ومن استامبول » .

عبيد فى القول والفعل ، حتى لم يعودوا جديرين باسم الإنسان .

— ٧٥ —

كل شيء قد حال فيهم ، اللهم إلا قسمات الوجه ! ومن ذا الذى يبصر النار التى لا تزال متقدة فى كل عين من عيونهم دون أن يميل إلى الاعتقاد أن قلبهم يحترق من جديد بلهيبك الخالد ، أيتها الحرية المفقودة ؟ كثير منهم لا يزال يحلم بأن الساعة التى سيستعيدون التى فيها تراث آبائهم قريبة ؛ وإنهم ليصبون إلى نجدة من الخارج ، مهيبين بأسلحة أوربا ، غير متجاسرين على ملاقاة العدو وحدهم ، كيما يمحو اسمهم من صفحة العبودية المؤلمة .

— ٧٦ —

وأنتم يا من تملكون ميراثاً غير العبودية ، أفلا تعلمون أن من يريد أن يكون حراً يجب أن يحطم هو بنفسه أغلاله ، وأن ساعده هو وحده الذى يستطيع أن يظفر له بحريته ؟ أفتظنون أنكم تستطيعون الحصول عليها بواسطة الفرنسي أو الروسي ؟ ألا فلتطَّرحوا كل هذه الأوهام ! أجل ، قد يكون فى وسع هؤلاء أن يذلوا أعناق مستعبديكم العتاة ، ولكن نار الحرية المقدسة لن تشتعل على مذبح الحرية من أجلكم أىْ أشباح الهيلوتيين[1] ! انتصروا على عدوكم ! أىْ بلاد اليونان ! إن غيرت سادتك ، لن

(١) الهيلوتيون هم العبيد العموميون فى إسبرطه ، وكانوا يعاملون أسوأ معاملة ، كما كانوا يميزون بملابس خاصة .

تتغير حالك البائسة ؛ إن أيام مجدك قد زالت ، ولكن سنوات عارك لا تزال قائمة .

— ٧٧ —

إن البلد الذى فتح باسم الله وأخذ من أيدى الكفار (النصارى) ، يستطيع هؤلاء الكفار أنفسهم أن يستردوه من بنى عثمان ؛ ولعل أبراج السراى التى لا يمكن النفوذ إليها ، أن تستقبل الفرنجة الذين دخلوها من قبل [١] . إن أبناء عبد الوهاب الثائرين [٢] الذين تجاسروا على انتزاع الهبات التقية التى تبرع بها المسلمون لقبر الرسول ، يستطيعون أيضاً أن يشقوا لهم طريقاً دامياً خلال الشرق ؛ ولكن الحرية لن تعود مطلقاً لتسكن هذا البلد المسكين ، الذى فيه تتوالى أجيال من العبيد إثر أجيال خلال قرون من الآلام والأحزان .

— ٧٨ —

تأمل مع هذا مَرَحهم ؛ عما قليل تبدأ أيام الكفّارة المسيحية التى فيها يتهيأون للاحتفال بأسرارهم المقدسة كيما يرفع عن الإنسان وِزْرُ خطيئته الكبرى ، بالصوم والصلاة . ولكن قبل أن تلبس التوبة خرقة الزهد ، يسمح للكل بأيام لذات

(١) فى العهد الذى غزاها فيه اللاتينيون ، وصاروا فيه سادة لعدة قرون (بيرن ، عن چون) أو لعل الاشارة الى احتلال الصليبين للقسطنطينية .

(٢) « سقطت مكة والمدينة منذ زمن قليل فى أيدى الوهابيين . وهم قبيلة عربية تزداد قوة يوما بعد يوم » (بيرن) .

فيها يشارك كلٌّ بنصيبه السّرّى ؛ فيرقصون فى ثياب تنكرية عديدة الشيات والألوان ، ويشاركون فى موكب التقليد بالكرنفال الجذلان .

— ٧٩ —

وأية مدينة فيها من اللهو مثل ما فيك ، يا استامبول ! [١] !
فى هذه العاصمة القديمة لأمبراطوريتهم الواسعة : ينسي اليونانيون أن العمائم تدنّس معبد أياصوفيا ومذابح اليونان (وا أسفاه ! إن كوارثها لا تزال تتردد فى نشيدى !) . لقد كان شعراؤها مرحين جُذْلاناً ، لأن الشعب كان حُرًّا ، فكان الكل يشعر حينئذ بسرورهم ، اليوم مضطرون إلى التظاهر به . إن عينى لم تبصر يوماً مثل هذا المنظر ، ولم تسمع أذنى أغنيـة كهذه ، أغنية تتردد أصداؤها على ضفاف البسفور .

— ٨٠ —

ترددت الضوضاء على الشاطىء عاليـة جَذْلى ، وتنوعت الموسيقى ، ولكنها لم تنقطع عن التنغيم ؛ والمجاديف تضرب البحر بإيقاع منتظم ، والأمواج المتراقصة لها صيحة عذبة ، وملك المد

(١) قال بيرن متحدثاً عن استامبول : « لقد رأيت أطلال أثينا وأفسوس ودلف ؛ واجتزت شطراً كبيراً من بلاد الأتراك ، وكثيراً من ممالك أوربا ، وبعضاً من أقاليم آسيا ؛ ولكنى لم أر أثراً من آثار الطبيعة أو الفن قد أحدث فى نفسى تأثيراً مثل هذا الذى أحدثته رؤية استامبول» .

والجزر[1] يبسم من عرشه العالى لهذا المركب الجذلان ؛ فإذا ما سرى نسيم عابر فوق صفحة الماء ، خيل إلى المرء كأن شعاعاً رفافاً منعكساً على الموج يعبّر عن رضا الإلٰهة ، والأمواج المتلألئة تنير الشاطىء الذى تغمره .

— ٨١ —

وعلى طول الزبد انزلق عدد وافر من الكيكات[2] ؛ وفتيات البلد يتراقصن على الشاطىء ؛ والراقصون ومراقصاتهم قد تناسين النوم والبيت ؛ وعيونهم الفاترة تتبادل النظرات الفاتنات التى لا تقوى على مقاومتها إلا نوادر القلوب ؛ وأكفهم المضطربة بقشعريرة عذبة تشعر بالضغط عليها بحرارة غرام ، فستجيب لليد التى تضغط عليها . أيها الحب ! أيها الحب فى نَضْرة الشباب ! إن العاشق وقد قيّد فى أكاليلك من الورد ، ليدع الساخر والحكيم يثرثران ما وسعتهما الثرثرة . هذه الساعات ، وهى وحدها ، هى التى تشفى من أدواء سنى الحياة .

— ٨٢ —

لكن ، ألا يوجد ، وسط هذه الجماعة المرحة فى ثيابها التنكرية ، قلوب تنبض بالألم المستور ، يخون تخفيها وجهٌ شاحب

---

(١) القمر .

(٢) الكيك ، كلمة تركية تدل على نوع من المراكب الخفيفة المستخدمة فى البسفور خصوصا ؛ ويسمى بهذا الاسم أيضا فى مصر .

كليل ؟ إن صوت الأمواج يبدو لهم ممزوجاً بأنين شاك ينضم إلى أشجانهم اليائسة . عندهم (هذه القلوب) أن سرور كل من حولهم ليس إلا مصدراً لإثارة الأفكار الحزينة والخواطر الأسيانة ، فلا يثير فى نفوسهم إلا الازدراء الكالح . آه ! ما أشد بغضهم لهذا الضحك العالى الصاخب ، وما أقربهم إلى أن يستبدلوا بثياب العيد والفرح أثواب الحزن والحداد !

— ٨٣ —

بهذا يجب أن يشعر كل يونانى مخلص لوطنه ، لو كان فى وسع اليونان أن تفخر بعد بأن فيها ابنا وطنيا مخلصا . إنهم غير جديرين بهذا الاسم ، هؤلاء الذين يتحدثون عن الحرب والجهاد وهم مستسلمون لسلْم الاستعباد ، وينوحون على كل ما فقدوه ؛ ومع هذا يلقون طغاتهم بابتسام رقيق ، ويحملون فى أيديهم الذليلة منجلاً بدلاً من الخنجر الظامىء للانتقام . آه ! أىْ بلاد اليونان! إن أقل الناس حباً لك هم هؤلاء الذين يدينون لك بالأكثر : بالميلاد ، ودم البطولة ، وهذه السلسلة الطويلة من الأسلاف الماجدين الذين يفضحون شعبك المنحلّ الآن !

— ٨٤ —

حينما تستيقظ نخوة أبناء أسبرطة وقوتهم ، وحينما تُنَشّىء طيبه ابامينونداس آخر ، وحينما يحمل فتيان آثينا قلوباً ملأى بالشجاعة ، وحينما تلد الأمهات اليونانيات رجالاً حقاً — حينئذ ، وحينئذ

فحسب ، يمكن أن تُبعثي وتستعيدى حريتك ومجدك . إن ألف سنة لا تكاد تكفى لتكوين دولة ؛ لكن ساعة واحدة كفيلة بأن تحطمها . كم من السنين لا بد أن يمضي قبل أن يستطيع شعب أن يستعيد مجده الدارس ، وفضائله الذهبية ، وينتصر على الزمان والقدر !

— ٨٥ —

ومع هذا ، فما أروع جمالك حتى فى سنى الحداد والأحزان هذه ، أىْ بلاد الآلهة المفقودة والأبطال أشباه الآلهة ! إن أوداءك الدائمة النضرة ، وجبالك المغطاة بالثلوج[١] لتعلن أنك لازلت ابنة الطبيعة المُدَلَّلة . إن مذابحك المحطمة ومعابدك المهجورة ، وأطلالها المختلطة برِمام الأبطال ، كل هذا قد قضي عليه حديد المحراث . وهكذا تندرس الآثار التى أقامتها أيدٍ فانية ؛ وهكذا يفنى كل شيء اللهم إلا القيم العليا التى مجدتها الأجيال

— ٨٦ —

اللهم إلا عموداً متوحداً ينوح على إخوته من المحجر[٢]

(١) « هناك كثير من الجبال ، خصوصا تلك التى تحمل اسم ليا كورا ، لا يذوب عليها الثلج كله أبداً ، على الرغم من شدة قيظ الصيف ؛ ولكن الثلج يذوب فى السهول وهو يساقط » (بيرن) .

(٢) « جبل پنتليكوس ، الذى كان يستخرج منه المرمر الذى بنيت به كل المنشآت العامة فى أثينا . وهذا الجبل يسمى اليوم منديلي : وفيه لايزال يرى كهف ضخم نشأ عن استغلال المحجر » (بيرن) .

القريب ؛ اللهم إلا حيث يُـزَيّن معبدُ تريتونيا صخرة كولونّا[١] ، ويرف فوق الأمواج ؛ اللهم إلا قبوراً منسية نصف نسيان ، قبور محاربين أقوياء . إن أحجارها المسودة ومرجها الأخضر ليتحديان الزمان ، لا النسيان . والرحالة الأجانب هم وحدهم الذين يتوقفون ، مثلى ، كيما يتأملوا ، ثم يزفروا : « وا أسفاه ! » .

— ٨٧ —

ومع هذا فسماؤك زرقاء ، وصخورك عاتية[٢] ؛ وخمائلك عذبة تشيع فيهـا النضرة ؛ وحقولك مُمْرِعة تكسوها الخضرة ؛ ولا زالت أشجار الزيتون فيك يانعة كما كانت حين كانت مينرڤا تبسم لك ، ولا يزال جبل هيميتوس ثرياً بعسله الذهبي ، عليه تبنى النحلة الطروب قلعتها العاطرة ، هذه الرحالة الحرة المتجوّلة فى

---

(١) كولونا ، كانت تسمى قديما سونيوم ، وهى رأس ممتد فى البحر فى أتكا ، على بعد ٤٠ ميلا من پيريه . وكان عليها ميناء جميل ومدينة ؛ وكان لمينرڤا فيها معبد رائع ، لا زالت منه آثار باقية .

(٢) « لايوجد فى كل أتكا ، فيما عدا أثينا ومارثون ، منظر أكثر تشويقا من رأس كولونا . وإن الستة عشر عموداً الباقية لا تزال فى نظر صاحب العاديات والفنان ينبوعا للاحظات ودراسات لاتنتهى ؛ والفيلسوف يستطيع أن يحيي فيه المسرح المزعوم لبعض من محاورات أفلاطون مع تلاميذه ؛ والسائح عتلىء إعجابا بالمنظر الرائع الذى تبديه أمام عينيه الجزر التى تتوج بحر ايجه » (بيرن) .

وأشجار الزيتون مقدسة للالهة مينرڤا .

جوك الجبلى ؛ وأبولون لا يزال يموّه بالذهب صيفك الطويل ؛ ومرمر منديلى لم يفقد بعد شيئا من نصاعته العتيقة . إن الفنون والمجد والحرية تمضي ، ولكن الطبيعة تظل جميلة على الدوام .

— ٨٨ —

وأى طريق سلكنا ، وطئنا أرضاً مقدسة ؛ فلم يمتهن من أرضك جزء من أجل آثار تافهة . إنا لنجتاز عالماً فسيحاً من العجائب المنتشرة حوالينا ؛ وكل قصص الموسا (الشعراء) لتبدو صادقة حقاً ؛ حتى يكل لحظ العين من الإعجاب بهذه الأماكن التى حملتنا إليها مراراً أحلامُنا فى نضرة الشباب : الجبال والسهول، والروابى والأوداء كلها تتحدى القوة التى حطمت معابدك الدوارس : إن الزمان قد زلزل برج أتينيه[١] ، ولكنه أبقى على سهول مارَثون الغبراء .

— ٨٩ —

لا الشمس تغيرت ولا الأرض فى هذا المكان ؛ إنما الذى تغير هو العبد ؛ وكل شيء لم يعتره تبديل ، اللهم إلا السيد الأجنبى الغاصب . إنه لا يزال كما هو بحدوده القديمة وشهرته الذائعة ، هذا الميدان العسكرى ، الذى خضعت فيه رقاب الفرس تحت سيف هِلاس البتّار ، فى هذا اليوم العزيز عند المجد ، الذى أصبحت فيه مارَثون كلمة سحرية ، لا يكاد يُنْطق بها ، حتى

(١) أتينيه هى مينرڤا ، وبرجها هو البارثنون .

يتجلى أمام عين السامع المعسكر والأعداء والقتال ولواء الظافرين .

— ٩٠ —

الميدى الهارب ، وقد ألقى بقوسه وسهمانه ؛ واليونانى الباسل ومعه رمحه الأحمر يطارده ؛ والجبال والسهول والمحيط والانتقام والموت ، التى تحارب كلها من أجل اليونان — ذلك هو المنظر الذى تقدمه مارثون ؛ فماذا بقى منه اليوم ؟ وأى أثر مقدس يَسِمُ هذا السهل الفسيح ، ويعيد ذكرى ابتسام الحرية وبكاء آسيا ؟ إجّانة مكسورة ، وقبر متهتّك ، وغبار يثيره حافر جوادٍ يمتطى صهوته أجنبى قاس جافٍ .

— ٩١ —

ومع هذا فإن بقايا مجدك الماضي ستدعو إليها دائماً أفواجاً من الرحالة الحزانى ، غير المتعبين أبداً .ولن يزال السائح الذى أتت به رياح أيونيا ، يُحَيِّى جوَّ القتال والغناء الرَّفافَ ؛ ولن تزال أخبارك ولسانك الخالد يملآن شباب كثير من البلدان بمآثرك وصيتك المدوّى فى الآفاق . إنهما فخر الشيوخ ، ودرس الشباب . إن أناشيد مينرڤا والموسا سيستمع إليها الحكماء بكل إجلال وإعجاب ، وسيعبدها الشعراء ، حينما تميط اللثام عن حكمتها المقدسة .

— ٩٢ —

إن القلب النازح ليحنّ إلى الوطن المهجور ، إذا كانت

تنتظره فيه روابط رقيقة وصلات رحيمة ، ويحيا سعيداً فى دار أهله . أما المتوحّد ، فدعه يأتى لزيارة بلاد اليونان هنا ، متأمّلاً هذه البلاد التى تلائم حاله وتنسجم مع نفسه . إن بلاد اليونان ليس بلد المرح الصاخب فى الحشد الحافل ، إنما هى المأوى لهؤلاء الذين يستهويهم الحزن . ولن يأسف على أرض ميلاده ، حينما يتجول حالماً متوانياً قرب المكان الذى أقيم به معبد دلف المقدّس ، ويتأمل السهول التى شاهدت مصارع الفرس واليونان .

— ٩٣ —[1]

دعه إذن هو وأضرابه يأتون لحجّ هـذا البلد المقدس ، ويجتازون بسلام هذه القفار الساحرة . لـكن ليدعوا بقاياها وآثارها ، فلا تقترب أيد مُخَرِّبة من هذه المناظر ، كيما تدنسها ، فـكفاها ما هى فيه وما لاقته حتى الآن من تدنيس ! إن هذه المذابح لم تنشأ من أجل هذه الفعلات الشائنة ! بَجِّلوا الآثار الباقية التى بجّلتها الأمم من قبلـكم ؛ فلعل اسم وطننا أن يذكر غير مدنس فى الأجيال التالية ؛ ولعلك تنعم من جديد بالوطن الذى كان مهد شبابك ، وتلْقى فيه كل سرور برىء للحب والحياة !

— ٩٤ —

وأنتَ يا من رفّهت طويلا عن بَطالتك بأناشيد عارية عن المجد ، سيفنى تغريدك وسط جمع شعراء يرتفع صوتهم فوق صوتك .

---

(١) أضيف هذا الجزء بعد عودة بيرن إلى انجلترا .

تخلّ لهؤلاء عن أكليل غار يُصَوِّحه الزمان . عبثاً يحاول التنافس من أجل الظفر به ، هذا الذى لا يحفل بالنقد المرّ ولا بالمدح المحابى ، من يوم أن تجمد كل قلب حنون يستطيع الثناء عليه . ولن يسعى المرء للإرضاء والإبهاج إن فقد كل ما يستطيع أن يهبه حبه وقلبه .

— ٩٥ —

وأنتِ أيضاً قد مضيتِ ، أيتها المحبوبة العزيزة [١] ! أنت التى ربطتنى إليك رابطة الشباب وعواطف الشباب ؛ يا من فعلتِ من أجلى ما لم يفعله أحد آخر غيرك ، وأبيتِ أن تهجرينى ، وإن كنتُ غيرَ جدير بكِ ! ما معنى وجودى ؟ لقد ضاع وجودك ! لم تعودى بعد ماثلة هناك كيما تستقبلينى عند عودتى من أسفارى الطوال . لم يبق لدى إلا الأسف على سعادة فقدتها إلى الأبد ، وأيام انقضت لن أراها مرة أخرى . ألا ليتها لم تكن ، أو ليتها تعود من جديد ! ألا ليتنى ما عدت هنا كيما أجد أسباباً أخرى للتجوال والأسفار !

— ٩٦ —

أوّاه ! أيتها الحبيبة المَحبِيَّة المحبوبة [٢] ! إن الحزن الآثر ليُفَكر فى الماضى ، ويتعلق بأفكار تزداد إغراء كلما ازدادت

(١) هى تيرزا ، هذه الفتاة المجهولة التى بكاها بيرن .

(٢) جناس مقصود كما فى الأصل .

عنا بُعداً ؛ لـكن الزمان سيمزق شبحك عنى أخيراً . أيها الموت الرهيب ! لقد سلبتنى كل ما تستطيع أن تسلبنى إياه : أم وصديق [١] وثالثة تربطنى بها صلة أعز من الصداقة . إن سهامك لم تصب أحداً كما أصابتنى : فـكل يوم تتهاوى علىّ الأحزان تلو الأحزان ، حتى قضت شيئاً فشيئاً على البقية الضئيلة الباقية من السرور التى سمحت لى بها الحياة .

— ٩٧ —

هل لى إذن أن أدخل من جديد فى غَمار الناس ، وأسعى إلى كل ما يترفّع السلام عن نشدانه ؟ هل أسعى إلى المآدب والمباهج والعربدة الصاخبة الزائفة الرنين فى مسامع القلوب ، المشوّهة للخدود الجوفاء ، التاركة فى النفس المرهقة المكدودة ضَعْفاً على ضَعْف ؟ هل لى أن أموه قسماتى بسرور مُغْتَصب أو ضيق مستور ؟ إن البسمات ليست غير مجارٍ لدموع آتية ، أو ترفع شفاهاً ذابلة يعلوها ازدراء مكشوف رغم محاولة إخفائه .

— ٩٨ —

ما أعظم كارثةٍ تنتظرنا فى الشيخوخة ؟ أى شيء يطبع على الجبين أعمق الغُضون ؟ إنه أن يرى المرء كل أحبائه قد مُحُوا

---

(١) صديقه فى كمبردج المسمى مثيوس ، الذى غرق فى نهر كام . أما الثالثة فهى تيرزا .

من صفحة الحياة ، وأن يكون وحيداً على ظهر الأرض ، مثلى أنا الآن . أمام إلٰهى أجثو خاشعاً ضارعاً ، على قلوب تمزقت وآمال تحطمت . مُرِّى سريعاً ، أيتها الأيام الزائفة ! امضي بكل قواكِ كما تشاءين ، فلم أعد أحفل بك ، منذ أن سلبنى الدهرُ كلَّ ما مَتَّع نفسي ، وصبَّ على سنوات شبابى أحزان شيخوختى .

النشيد الثالث

« كيما يكون فى هذا العمل مايضطرك
الى التفكير فى شيء آخر ؟ فلا دواء لك
فى الحقيقة غير هـذا والزمان »
من رسـالة من ملك بروسـيا الى
دالنبير ، فى ٧ / ٩ / ١٧٧٦ .

— ١ —

أثمة شبه بين مُحيّاك ومُحيّا أمكِ ؛ أى بنيتى الجميلة ! أدا[١] !
أيتها الابنة الوحيدة لأسرتى ولقلبى ؟ عيونك الزرق ، حين رأيتها
آخر مرة ، كانت تبسم ، ثم افترقنا — لا كما نفترق الآن ،
لـكن وعندنا أمل .

أواه ! إنى لأستيقظ مرتعداً : الأمواج تختلج من حولى ؛
والرياح ترفع صوتها حتى السماء . هأنذا راحل ، إلى أين ؟ لست
أدرى ؛ لـكن مضي العهد الذى كانت فيه شواطىء ألبيون تُشيع
فى نفسي الحزن أو السرور وهى تختفى بعيداً عن ناظرِىّ .

— ٢ —

لقد صرت مرة أخرى فوق ثبج الموج ، أجل مرة أخرى !
والأمواج تتواثب تحتى كجواد يعرف راكبه. ألا تحيةً إلى هديرها!
فلتقُدْنى بسرعة ، إلى أى مكان شاءت ! فمهما اضطربت سارية

---

(١) أدا : تزوج بيرن مس ملبانك فى ٢ يناير سنة ١٨١٥ ؛ وولد له منها ابنة هى أدا فى ١٠ ديسمبر من السنة عينها . وقد تزوجت أدا ايرل لوفليس ، وتوفيت سنة ١٨٥٢ .

السفينة المتوترة كما يهتز عود القصب ، ومهما تطايرت الأشرعة الممزقة قطعاً فى الهواء ، فسأتابع على أى حال طريقى قُدُما . إن مثلى مثل عُودٍ مِن العشب البحرى قد انتزع من الصخر وقذف به فوق زبد المحيط كيما يسبح إلى حيث تقوده تيارات الهاوية وأنفاس العاصفة .

— ٣ —

فى ربيع شبابى تغنيت بأسفار من نفى نفسه باختياره وفر من روحه القاتمة : وهأنذا أستأنف حديثاً لم أكد أبدأه ، حاملاً إياه معى كما تحمل الريح الصرصر العاتية سحابة . فى هذه القصة أجد آثار أفكارى العتيقة وينبوع دموعى الجاف ، هذه الدموع التى لم تترك خلفها غير سبيل مقفرة عقيم . إن سنواتى الراحلة لتسير متثاقلة هادِجةً على بقايا رمال حياتى حيث لا تنمو زهرة واحدة .

— ٤ —

من أيام شبابى العاصف الوجدان باللذات والأحزان فَقَدَ قلبى وقيثارتى وتراً ، فصارا فى غير انسجام ؛ ولعلى أحاول اليوم عبثاً أن أغنى كما كنت من قبل أغنى . لكن على الرغم مما يبعث هذا من أسى ، فإنى سأتعلق به ، كيما ينتزعنى من الحلم المرهق بحزن أثر أو سرور ، فيحيطنى بهالة من النسيان ؛ فتبدو لى أنا

أنشودةً لا تخلو من متعة و إحسان ، و إن لم تبد هكذا لغيرى من الناس .

— ٥ —

من عاش طويلاً فى عالم الأحزان ، وتعمق الحياة حتى القاع بالأفعال لا بالسنوات ، حتى لم يعد يدهشه شيء ، ولم تَعُدْ سهامُ الحب أو الألم أو الشهرة أو الطموح أو الكفاح تصيب قلبه بنصل الاحتمال الصامت الحادّ — إن هذا ليستطيع أن ينبيء لماذا يبحث الفكر عن ملجأ له فى الكهوف المنعزلة ، ولكنه يرى فى هذه الكهوف تصاوير خيالية وأشكالاً تظل على حالها ، برغم قدمها ، فى صومعة الروح المسحورة .

— ٦ —

إننا نهب خيالنا شكلا وصورة من أجل الخلق ، من أجلِ أن نحيا بواسطة الخلق حياةً مليئة عميقة ، محققين بهذا الحياةَ التى نتخيلها ونبتدعها ، كما أفعل أنا الآن . من أنا ؟ لستُ شيئاً ؛ ولكنك لستِ كذلك ، يا روح أفكارى ! يا من أجتاب معها الدنيا ، غير مرئى ، وكان فى وسعى أن أتأمل كل شيء ، مشتعلا بنيران روحك ، ممزوجاً بميلادك وأصولك ، مستشعراً بك قدرة على الإحساس جديدة ، فى الوقت الذى تبدت فيه حساسيتى وكأنها أوشكت على الزوال .

— ٧ —

لكن يخلق بى أن أفكر بطريقة أكثر وضوحاً : لقد أطلت التفكير وتركت نفسي فريسة لأشد الأفكار ظلمة وحلوكا ، حتى صار عقلى المحترق المنهوك دوامة من الخيال واللهيب : فإننى لم أتعلم فى شبابى كيف أروض قلبى ، لذا تسممت ينابيع حياتى . اليوم صار الأمر متأخراً كل التأخير . فقد تغيرت حقاً ؛ لكن بقيت لدى فَضْلة من القدرة على احتمال ما لا يستطيع الزمان القضاء عليه ، وعلى التغذى بفاكهة مُرّة دون اتّهام الأقدار .

— ٨ —

وكفانا من هذا هذا القَدْر — فقد صار الآن فى غمرة الماضي ، وختم عليه السحر بخاتم الصمت .

إن هارولد الغائب منذ زمان طويل قد ظهر أخيراً من جديد ؛ وإن قلبه يود ألا يُحِسَّ بشيء ، لكنه جريح تُمَزّقه كلوم إن لم تكن قاتلة ، فهى لا تقبل الشفاء . والزمان الذى يغير من كل شيء قد أحال روحه وقسماته كما أحال عمره : لأن السنين تختلس الشعلة من الروح ، كما تختلس من الأعضاء قواها ؛ وكأس الحياة المسحور لا يتلألأ إلا عند الحافة .

— ٩ —

لقد أفرغ هارولد كأسه سريعاً ، ووجد الثمالة مُرّة كالحنظل . ثم ذهب يملؤها مرة أخرى من ينبوع أصفى وأطهر ،

ينبثق فى أرض مقدسة ، وخال أنه ينبوع خالد ، لـكن عبثاً ! فإن أغلالا مُسْتَسِرَّة قد أحاطت به وأرهقته و إن كانت غير مرئية ، وحطمت قواه و إن كانت لا تصلصل . فلما مزقه الألم ، الذى أضناه صامتاً ، شعر بازدياد آلامه كلما خطا خطوة ، وفى أى مكان اختار أن يقيم .

— ١٠ —

ولما تحصّن بعدم الاكتراث ، خُيِّل إليه أنه يستطيع أن يعاشر الناس من جديد ، وظن أن روحه قد صارت اليوم من المناعة والأمان بحيث لم تعد تخشي أن يصيبها مايحزنها، و إن لم يأتها مايسرها. وفى هذا الحشد الذى كان فيه وحيداً لايحفل به إنسان ، راح ينشد موضوعاً خليقاً بالتفكير ، كهذه الأشياء التى رآها فيما أبدع الله والطبيعة صنعه فى البلاد البعيدة التى زارها .

— ١١ —

لـكن من ذا الذى يرى الورد متفتحاً ولا يود اقتطافه ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يعجب بنعومة الجمال وروائه دون أن يشعر بأن قلبه لايمكن أن يهرَم كلُّه ؟ ومن ذا يقدر على تأمل النجم الذى يجعله المجد مضيئاً فوق هاوية الطموح دون أن يقذف بنفسه كيما يجتاز هذه الهاوية ؟ إن هارولد ، وقد دخل مرة أخرى فى زحمة الناس ، قد جُرَّ به مع الدَّهْماء المُبْلَسين ، فصار يطارد

الزمان ، لـكن من أجل غاية أنبل من تلك التى كانت من قبل لديه فى ربيع حياته .

— ١٢ —

غير أنه سَرعان ما تبين أنه أقل الناس قدرة على استبطان سواد الناس ، ممن لاتجمع بينهم و بينه وشيجة ولا مشابهة . فإن روحه لم تعرف مطلقاً كيف تُخضع أفكارها لأفكار الآخرين ، ولم تـكن تستطيع أن تُخضع إلا لنفسها . إنما كانت ثائرة على كل إيحاء أجنبي ، فخورا بقنوطها ، قد حملتها الـكبرياء على عدم الانقياد إلى أى مخلوق كائناً من كان . أجل ، لقد كان هارولد قادراً على أن يجد الحياة فى داخل نفسه ، وأن يتنفس بدون بنى الإنسان .

— ١٣ —

فهناك حيث تقوم الجبال ، يجد الأصدقاء ؛ وحيث يتلاطم موج المحيط ، ينشد لنفسه المأوى ؛ وحيث تمتد السماء الصافية والجو الملتهب ، كانت لديه النوازع إلى التجوال . والصحراء والغابة والـكهف وزبد الموج الصاخب ، كلها كانت له أصدقاء : فقد كانت تتحدث إليه بلغة متبادَلة أوضح من لغته الوطنية ، حتى رغب فى أن يطَّرِح ما كتب بلغته من أجل أن يفرغ لأسفار الطبيعة الرفافة على مرآة البحيرة تحت أشعة الشمس اللامعة.

— ١٤ —

إن مَثَلَه مَثَل الكلدانى ، يستطيع أن يتأمل النجوم ، حتى يملأها بسكان يلمعون كما تلمع أشعتها ؛ هنالك تُنسى الأرض وما عليها من تفاهات ووضاعات إنسانية . ألا ليته قد استطاع أن يسمو بروحه إلى تلك الآفاق ، إذن لكان سعيداً ! ولكن الطين الذى منه صنع الإنسان يقضى على شعاعه الخالد ، حاسداً إياه على هذا النور الذى يصبو إليه ، كيما تنقطع الرابطة التى تحول بينه وبين تلك السماء التى تهيب بنا إليها فى شوق وحنين.

— ١٥ —

أما فى مساكن بنى الإنسان ، فان هارولد قد صار قلِقاً لاغباً ، محزوناً مُمَزَّقاً ، يترنّح كالصقْر الوحشي المهيض الجناح ، بعد أن كان مقامه فى الهواء الطلق اللا محدود وحده : ثم ما لبث أن انتابته نوبة ، حاول أن يقهرها ففعل كما يفعل الطائر السجين الذى يهاجم حديد القفص بصدره ومنقاره ، حتى يصبغ الدمُ ريشَه بالحمرة ، وتُحْرِق حرارةُ روحه السجين صدرَه الممزّق .

— ١٦ —

وها هو ذا الآن قد شرع من جديد ، وهو النافى نفسه بنفسه ، فى التجوال ؛ لم يَدَعْ من الأمل شيئاً وراءه ، وإن كان حزنه قد تضاءل . وإن علمه بأنه قد عاش فى غير طائل ، وأنه لن يكون ثمة شيء فيما وراء القبر ، قد أضفى على يأسه بسمة كالحة ،

بسمة إن تـكن وحشية — كتلك التى ترى على وجوه الملاحين حين ينظرون إلى بقايا سفنهـم الغارقة و يتأهبون لملاقة مصيرهم بجنون وتهور — فإنهـا مع هذا توحى بابتهاج لم يفـكر فى طرده عن نفسه .

— ١٧ —

قف ! — فإنك تطأ هنا تراب أمبراطورية[١] ! هنا انقبرت آثار زلزال ! ألا يقوم فى هذا المـكان تمثال هائل ، بل ولا عمود يخلّد ذكرى انتصار ؟ كلا ، لا شىء . لـكن الحقيقة السافرة فيها عظة أكبر . فلتبق هذه الأرض كما كانت ! انظر كيف أخصبت الأمطارُ الحمراء هذه التربة وأشاعت فيها النماء ! فهل هذا كل ما كسبه العالم من هذه المعركة الأولى والأخيرة ، أيها « الانتصار » الواهب العروش والتيجان ؟

— ١٨ —

وهارولد واقف وسط هذا السهل المفروش بالعظام ، قبر فرنسا ، ووترلو الرهيبة ! كيف تمحو القوةُ التى أعطت ، كيف تمحو فى ساعة ما وهبته من عطايا ، ناقلة المجد والشهرة من يد إلى أخرى ، هذا المجد الزائل العابر مثلها ؟ ها هنا حلّق النّسر تحليقته الأخيرة وانقضّ على أعدائه ، ومزّق الميدان بمخالبه الدامية ، ولـكن سهم الأمم المتحدة قد نفذ فى صدره ، فضاعت حياة المجد والطموح

---

(١) أمبراطورية نابليون ، وقد كان بيرن شديد الإعجاب بها .

وذهبت أفعاله سُدى ، وصار يحمل الحلقات المتناثرة من أصفاد العالم المحطَّمة .

— ١٩ —

جزاء عادل ! إن فرنسا تَعَضُّ على لُجُمِها وتزبد من قسوة أغلالها . لكن هل صارت الأرض بهذا أكثر حرية مما كانت ؟ أحاربت الأممُ من أجل إخضاع رجل « واحد » ؟ أو قد اتحدت كلها من أجل أن تعلّم الملوك جميعاً ما هى السيادة الحَقّة ؟ ماذا ! أستظل العبودية أيضاً من جديد وثناً تعبده عصور التنوير هاتيك ؟ ونحن الذين جندلنا الأسد ، هل سندين بالطاعة بعدُ للذئب ؟ هل سنظل نجثو بخضوع وذلة أمام العروش ؟ كلا ؛ لننتظر قبل أن نمدح ونمجّد .

— ٢٠ —

فإذا كان الملوكُ غيرَ جديرين بهذا التمجيد ، فلا نفخرْ بعدُ بسقوط طاغية ! عبثاً سالت إذن العبرات الحارة على الخدود الناعمة ، بكاءً على أزهار أوربا التى استأصلها طاغية داس كرومها . وعبثا تحمّل الناس سنوات طوالاً من الموت والتخريب والاستعباد والرُّعب ، قضي عليها اتحاد الملايين من البشر الذين هبّوا ونهضوا للإجهاز عليها ؛ إن المجد لا يكون عزيزاً عند الشعوب المُحرَّرة إلا إذا جلل الآس سيفا كهذا الذى جرّده هرموديوس على

طاغية أثينا [١] .

— ٢١ —

ترددت ضوضاء عيد يحتفل به فى الليل : فإن عاصمة البلچيكيين قد حشدت نبلاءها وحسناواتها ، وتلألأت المصابيح بأضوائها على وجوه الحسان والشجعان . آلاف القلوب تنبض بالسرور ، حتى إذ ما علت الموسيقى بتموجاتها الصوتية الشهوانية ، تبادلت العيون الناعمة نظرات الغرام وتحدث بعضها إلى بعض ، وسرت النسوة فى الجمع كصوت ناقوس الزفاف . ولكن صه ، اسمع ! إن صوتا عميقا يتردد كأنه صوت النَّعِيّ الحزين .

---

(١) الإشارة هنا إلى النشيد المشهور الخاص بهرموديوس وارستوجيتون ، وهو : « سأضفر سيفى بغصن من الآس ، هذا السيف الذى جندل الطاغية ، حينما أعطى الوطنيون المتحرقون إلى الحرية المساواة إلى أثينا . سلام لك ، ياهرموديوس ! أنت يامن أعوزك النفس ؛ إنك لن تشعر مطلقا بضربة الموت ؛ وإن جزر الأبطال السعيدة ستكون المقام الرائع الممنوح لك . سأضفر سيفى بغصن من الآس ، هذا السيف الذى جندل هيپارخوس ، حينما ركع أمام معبد أثينيه ، ولم ينهض بعد . فاذافهم معنى الحرية ، شُرِّ الصالح والحكيم . لقد استطعت أن تحرر وطنك ، وأن تنتشر فيها المساواة امام القانون » .

وهيباس وهيپارخوس كانا ولدين ليزستراتوس طاغية أثينا ؛ وقدخلفاه فى الحكم . أما هيپارخوس فقد قتله هرموديوس وارستوجيتون لأسباب شخصية ؛ وكانا قد أخفيا سيفهما فى أوراق آس .

— ٢٢ —

ألم تسمع شيئاً ؟ — كلا إن هذا لم يكن غير صوت الريح أو جلَبة العربة على الطريق الصخرى . ألا فلتواصلوا الرقص ، ولا تدعوا السرور يقف عند حد ! ولا نوم حتى الصباح ، حين يلتقى الشباب باللذة من أجل طرد الساعات الحمراء الخفيفة الأقدام . لكن أصْغِ ! إن هذا الصوت الثقيل قد استأنف تردده ، وكأن السحاب يردد أصداءه . وإنه ليقترب من هذه الأماكن قليلا قليلا ، ويزداد وضوحاً ورهبة . السلاحَ ، السلاحَ ! إنه صوت المدفع الصاخب الهدّار .

— ٢٣ —

إن أمير برنزوك البائس قد جلس فى كُوّة نافذة من نوافذ بهوه العالى؛ وكان أول من سمع هذا الصوت وسط هذا الاحتفال ، والتقط نغمته بأذن الموت المتنبئة . وحينما تبسموا لأنه ظن هذا الصوت قريب ، أدرك قلبُه حقاً تلك الطعنة القاتلة التى جعلت أباه مُمَدّداً فوق نعش دامٍ (١) ، والتى تهيب به أن يثأر ثأراً لا يُشْبعه إلا الدم . فانطلق إلى الميدان ؛ وسقط صريعاً فى الصفوف الأولى .

— ٢٤ —

آه ! الناس يغدون مُهْطِعين هنا وهناك ؛ والعيون كلها

(١) جرح والد دوق برنزفك جرحا قاتلا فى معركة يينا .

تفيض بالدموع ؛ والجمال الخجول يستشعر الرواع ؛ وشحوب قاتل قد علا الخدود التى كانت منذ قليل تحمرّ خجلا عند سماع إطراء جمالها . ثم كانت توديعات مفاجئة ، وتنهُّدات أليمة لعلها أن لا تتكرر بعدُ يوماً ما . فمن ذا يستطيع أن يحدِس إذا كانت هذه العيون العاشقة ستتلاقى من جديد ، ما دامت هذه الليلة العذبة قد تلاها صباح هكذا مريع ؟

— ٢٥ —

وها هم الفرسان يبادرون بامتطاء صهوات الجياد ، والكتائب تحتشد ، والعربات تزِم ، والكل يُهْرَع إلى الميدان بسرعة هائلة و ينتظم فى صفوف القتال ؛ والرعد العميق يهدر من فوهات المدافع من بعيد ؛ وفى المدينة يقرع الطبل المنذر بإيقاظ الجنود قبل أن تلمع نجمة الصباح . لكن المواطنين قد احتشدوا وفى وجوههم رهبة الروع ، وتهامسوا بشفاه شاحبة : « إنه العدو ! ها هو ذا قادم ! » .

— ٢٦ —

وتردد نداء أبناء كمرون وحشياً عالياً ! إنه نشيد حرب لوشيل [١] الذى طالما سمعت له روابى ألبين [٢] كما سمع له أيضاً السكسون أعداؤه . أواه ! ما أشد وقع هذه الأنغام العسكرية فى

---

(١) لوشيل اسم مقاطعة زعيم آل كرون .

(٢) ألبين ، هى هنا اسكتلنده .

الظلام ! غير أنه ، كما أن النفخ يُحْـيي الْمِـزْمار ذا القربة ، فإن هذه الموسيقى تملأ قلوب الجبليين بجسارة حربية هائلة ، وتُلقى على أسماعهم أنباء مغامرات إيفان ودونالد (١) .

— ٢٧ —

إن غابة الأردن تهدهد فى أعاليها أغصانها المُخْضَرَّة ؛ وأشجار البلوط الجالة بأنداء الصباح تتبدّى وكأنها تبكى على الشجعان السائرين إلى القتال ، إذا كان لأى جماد أن يبكى . أواه ! قبل أن يقبل المساء ، سيداس على هؤلاء بالأقدام كالعشْب الذى يطأونه هم الآن. أجل إن هذا العشب سيغطيهم هم بخضرته ، حينما تصرع هـذه الـكتل المليئة بالشجاعة الحية ، وهى تنقض على عدوها يحدوها الأمل العالى .

— ٢٨ —

لقد رآهم آخِرُ نهارٍ مليئين بالحياة المتوثبة ، وشاهدهم آخِر مساء مغمورين بنشوة السرور وسط حلقة من الغادات الحسان . لـكن منتصف الليل قد أتاهم بنذير الـكفاح ، وما أصبح الصباح حتى تجللوا بالسلاح ، وفى النهار تلألأت كتائبهم المسلحة المتحفزة . وتجمعت السحب المنذرة بالرعد من فوقهم ، ثم انفجرت عن أشلاء امتلأت بهـا الأرض حتى تغطت بطين جديد قد

(١) سير ايفان كمرون ، الذى حارب فى كيليكرنـكى فى صفوف الملـكيين ؛ وحفيده دونلد المشهور بلقب « لوشيل الرقيق » .

تـكدّس : فالفارس والجواد ، والصديق والعدو — كلهم قد دفنوا فى قبر أحمر واحد .

— ٢٩ —

إن مجدهم قد تغنى به شعراء ، قيثارتهم أسمى من قيثارتى ؛ لـكن ثمة من بين هؤلاء الأبطال بطلاً أصطفيه لإنشادى ، أولا لأكفر عن ذنب أتيته نحو أبيه ، وثانياً لما بيننا من وشائج الدم ، وثالثاً لأن الأسماء اللامعة تمجّد الفناء . إن اسمه ليرف من بين أعظم الأبطال الشجعان ؛ وحينما أنارت صواعق الموت صفوف شجعاننا ، حيث بلغ التذبيح والقتال أوجه ، لم تُصب هـذه الصواعق قلباً أنبل من قلبك ، أىْ هَوَرْد[1] الشاب الشجاع !

— ٣٠ —

الآن وقد حطم مصابُك الـكثيرَ من القلوب ، وأجرى ما أجرى من العَبَراتِ ، ما عسي أن تـكون عبراتى ، لو كان فى وسعى تَذارف شيء ؟ غير أنى حين صرت إلى جوار الشجرة ذات الغصون الخضر التى فقدتَ الحياة إلى جوارها ، وحين رأيت من حولى حقولاً خصبة ملأى بالثمار ، والربيع قد أتى يعمل عمله الفائض بالخير والسرور ، وأسراب الطير الجريئة تحلق على حفافى

(١) هو الصاغ فردريك هورد ، ابن العم الثانى لبيرن . وقد كان أبوه وصيا على بيرن ؛ والذنب الذى أتاه بيرن فى حق هذا الوالد هو أنه هاجه فى « الشعراء الأنجليز والنقاد الاسكتلنديون » .

موكبه ، أدرت بصرى عن كل ما أتى به ، والتفت إلى ما لم يستطع الإتيان به .

— ٣١ —

لقد أهبت بروحك و بأرواح هذه الآلاف من الأبطال الذين خلف كلٌّ منهم فراغاً أليماً فى قلب أهله وأحبائه . ما أسعد هؤلاء الذين يبكون عليهم ، لو استطاعوا أن ينسوهم ! إن بوق الملاك لن يوقظ إلا عواطفهم . أجل ، قد يكون فى وُسْع صوت الشهرة أن يخفف لحظةً حزنَ صديق يدعو بلا جدوى صديقاً قد فارق الحياة ، لكنه لا يستطيع أن يهدّئ ثائرة الشوق المُلِحّ غير المُجْدى ، بل يزداد هذا الاسم المُبَجّل إعزازاً ، ويَملأ الحنينُ إليه النفس عذاباً ومرارة .

— ٣٢ —

إنهم ينوحون ، ولكنهم فى النهاية يبسمون : وهم فى بسماتهم يتوجعون : وستذبل الشجرة طويلاً قبل أن تسقط . إن المركب ليسير ، على الرغم من أن الشراع قد تمزق والسارية قد تحطمت : وإن سقف القصر ليسقط ، لكن أطلاله تستمر طويلاً تملأ الأبهاء الخاوية ؛ وإن السور المتداعى ليظل قائماً ، حينما تعصف الزوابع بشرفاته ؛ والأغلال تبقى بعد المغلول بها : والنهار لا يزال يمضي على الرغم من السحب التى تحجب الشمس : وهكذا يتحطم القلب بالألم دون أن ينضب يَنْبوع الحياة .

— ٣٣ —

إن القلب الذى مزقته الخطوب شبيه بالمرآة المكسورة التى تتكرر فى كل أجزاء الزجاج ، وتصنع آلاف الصور من صورة كانت واحدة ، وستظل هكذا كلما ازداد تكسرها : فإنه لا يزال يحمل طويلاً كل آلامه ؛ ويظل هادئاً ، بارداً ، خالياً من الدم ، لا تأخذ آلامه سِنَةٌ ولا نوم ، لكنه يستمر فى الذبول حتى يشيخ كل ما حواليه ، دون أن يُظهر أى شكوى ، لأن هذه الأشياء فوق متناول كل تعبير .

— ٣٤ —

إن فى يأسنا لحياةً وأىّ حياة ، ألا وهى حياة السم : إنه جَذر حَىّ يُغَذى هذه الأغصان الذابلة . لأن اليأس لن يكون شيئاً ذا بال إن أماتنا ؛ لكن الحياة تنضج ثمار الألم المريعة ، مَثَلُها مثَل التفاح النامى على شواطىء البحر الميت ، هذا التفاح الذى لا يعطى للمسافر العطشان إلا طعم الرماد [1] . لو حسب الإنسان عمره وفقاً لساعات سروره ، وقارن هذه الساعات بالباقى من حياته — فهل يَعُدُّ عمرَه بعدُ ستين سنة ؟

(١) « على شواطىء بحيرة أسفلت تنمو أشجار لها ثمار يقال عنها إنها رائعة الجمال فى مظهرها الخارجى ، لكنها لا تشتمل فى داخلها إلا على الرماد . راجع تاكيتوس ، التاريخ ، ١ : ٥ — ٧ » (بيرن)

— ٣٥ —

إن صاحب المزامير [١] قد حسب عمر الإنسان ؛ وإن مقداره لكاف بل وكبير حقاً ، إذا كان لنا أن نصدق أخبارك ، أى ووترلو! أنتِ يا من قَصَّرْتِ أيضاً من هذه الحياة القصيرة بطبعها. إن ملايين من البشر لينطقون باسمك الذى صار مشهوراً ، وسيردده أحفادهم صائحين : « فى ووترلو امتشقت الأممُ المتحدة الحسامَ ؛ وإن أجدادنا كانوا يحاربون فى ذلك اليوم الرهيب » ! وهذا كثير ، وهو كل ما سيبقى من ذكراها .

— ٣٦ — [٢]

هنا فى ووترلو سقط أعظم بنى الإنسان ، هذا الذى لم يكن شر الناس . لقد كانت روحه مزيجاً من المبادئ المتناقضة ، فكانت تتعلق حيناً بأجلّ الأشياء ، وحيناً آخر بأقلها ، وكل هذا بإصرار ثابت وعزم وطيد فى كلا الحالين . لقد كان متطرفاً بل وطرفاً فى كل شيء ! آه ! لو أنك اتخذت الوسط ، إذن لبقى عرشك قائماً ، أو لم يكن قد وجد مطلقاً : لأن المخاطرة هى التى رفعتك وهى التى أسقطتك ؛ بل أنت لا تزال تسعى الآن أيضاً إلى استعادة مجدك الأمبراطورى ، وزلزلة العالم مرة أخرى، أيها الرعد الذى دوّى فى أنحاء الدنيا !

(١) النبي داود ، فى «المزامير» ، ٩٠ : ١٠ : « أيام عمرنا ستون سنة وعشر » .

(٢) هنا يبدأ بيرن حديثه عن نابليون .

— ٣٧ —

أنت فاتح الدنيا وأسيرها معاً ! إنها لا تزال ترتعد منك ، وإن اسمك الرهيب لم يتردد فى عقول الناس مثلما هو يتردد الآن . وقد دالت دولتك ولم تَعُدْ بعد شيئاً ، اللهم إلا أن تكون ألعوبة فى يد الشُّهْرة . هذه الشهرة التى ناغتك من قبل ، وصارت خادمة لك ، ومتملقة لقسوتك وصولتك ، حتى صرت تنظر إلى نفسك كإله : أجل ، لقد تبديت على هذا النحو أيضاً فى عيون هذه الأمم المشدوهة التى أذهلتها فحسبتك طويلا فى نظرها كما أنت فى نظر نفسك .

— ٣٨ —

لقد كنت دائماً فوق أو تحت مستوى الإنسان ، إنْ فى أوج عظمتك أو فى حضيض شقائك : فى قتالك الدنيا بأسرها ، وفى فرارك من ميدان المعركة الأخيرة ؛ وحيناً كنت تستعين برءوس الملوك كسُلَّم لك ، وحيناً أكثر خضوعاً من أدنى جنودك . لقد كنت قادراً على تحطيم أمبراطورية والسيطرة عليها وإنشائها من جديد ، لكنك لم تقدر على التحكم فى أضأل عواطفك وشهواتك ! لقد كنت ماهراً فى فهم الناس ، لكنك لم تستطع أن تفهم نفسك ، ولا أن تخفف من شهوتك للقتال ؛ أجل ، لقد جهلت أن الحظ حينما يطلب كثيراً ، يهجر حتى أعز النجوم .

— ٣٩ —

ومع هذا فان نفسك قد تجلدت للكوارث واحتملت مصيرها بهذا النوع من الفلسفة الفطرية التى تكون حينا حكمة أو بروداً أو كبرياء عميقة ، لكنها كانت دائماً صاباً وسما زعافاً فى نفوس الأعداء . حينما كانت جحافل الكراهية ترنو إليك كيما تسخر من رهبتك ، كنت تبسم بعين هادئة متجلّدة . إن الحظ حينما خان طفله المُدَلّل ، بقى هذا الطفل ثابتاً تحت أمطار الكوارث التى انهمرت عليه انهماراً .

— ٤٠ —

أنت اليوم أعظم حكمة مما كنت فى أيام مجدك وجلالك ! لأن الطموح قد أشاع فى نفسك آنذاك احتقاراً بادياً للناس ولأفكار الناس . ولقد كان احتقاراً عادلاً ؛ لكن هل يخلق بك أن تعبر عنه بشفتيك وجبهتك ؟ أ كان جديراً بك أن تنبذ بازدراءٍ أدوات أمجادك ، الذين انقلبوا أخيراً عليك من أجل تحطيمك ؟ آه ! إن هذا العالم شيء تافه إن اكتُسب أو فُقِد ؛ وأنت برهنت على هذا وأحسست به ، كما أحسّ به كلّ من اختاروا هذا المصير .

— ٤١ —

آه ! لو أنك خلقت لكى تقوم أو تسقط وحدك ، كبرج على قمة صخرة عاتية ، إذن لأعانك احتقارُك للبشر على مجابهة

الصدمة التى ارتطمت بها . لكن أفكار الناس كانت خطوات عَبَّدَت سبيلك إلى السلطان والعرش ؛ وكان إعجابهم هو خير سلاح فى يديك . لقد كنت اسكندر آخر ، فلم يكن لك أن تفعل ما فعله ذيوجانس من احتقار النـاس ، إلا إذا عزمت على خلع ثياب المُلْك : فإن الأرض ستكون إذن كهفاً واسعاً كل السعة بالنسبة إلى الساخرين المتوَّجين .

— ٤٢ —

لكن الهدوء جحيم بالنسبة إلى النفوس المتوثبة . وهذا كان سبب شقائك و بلائك . إن ثمة ناراً وحركة فى النفوس التى تأبى أن تنحصر فى دائرة وجودها الضيقة ، بل تصبو إلى ما وراء حدود الرغبة المتوسطة المعتدلة . إنها حين تشتعل مرةً بهذه النار العسيرة الإطفاء ، لتتحرق عطشاً ولُواحاً إلى المخاطر العالية ، ولا تتعب من شيء إلا الراحة ؛ هذه النار حُمّى فى القلوب ، قاسية على كل من يحملها ، وكل من أصيبوا بها .

— ٤٣ —

إنها هى التى تصنع هؤلاء المجانين الذين ينقلون جنونهم بالعدوى إلى بقية الناس : من فاتحين غزاة وملوك ، ومؤسسي شِيَع ومذاهب ، يضاف إليهم السوفسطائيون والشعراء والساسة ، وما إليهم من كائنات يعذبها القلق ، وتهز بشدة كل الأوتار الخفية فى النفس وهم أنفسهم فرائس خداع لمن يخدعونهم . إن

مصيرهم مرموق وإن لم يكن خليقاً بهذا الرَّمْق والحسد ؛ فكم من آلام مُرَّة يعانون ! لو كشف الناس عن قلوب هؤلاء لتلقوا درساً نافعاً فى احتقار المطامع فى الظهور والسلطان .

— ٤٤ —

إن أنفاسهم لُهاث ، وحياتهم عاصفة تحملهم حينا فى الهواء كيما تلقى بهم بعد على الأرض . لكنهم قد ألفوا هذه الحياة العاصفة إلى حد أنهم إذا بقوا بعد الأخطار التى يواجهونها ورأوا هدوء الأصيل يتلو نهار الأخطار البرّاق ، فإنهم يشعرون بإرهاق الحزن لهم ويموتون من فرط التراخى ، كالنار التى تهمل فلا تُذْكَى ، فلا ينبعث منها إلا لهيب مُتَرَنِّح ، أو كالسيف الذى يصدأ من عدم استعماله ، ويأكل نفسه دون أن يظهر أمجاداً .

— ٤٥ —

إن من يصعد قُنَّات الجبال، يشاهد أن الثلوج أو السحب تغطى أشدها ارتفاعاً. والإنسان الذى يُخضع الناسَ لسلطانه، أو يتذرّاهم بعبقريته ، لا بد أن يتوقع الكراهية والغِلّ من جانب هؤلاء الذين ينبذهم أسفله . فعلى الرغم من أن شمس المجد تشرق وتلمع فوق رأسه ، وعلى الرغم من أنه يرى أسفله الأرض والمحيط ، فإن صخورا مجلّلة بالثلوج تحيط به ، والعواصف تزأر وتهدده : ذلك ثمن الأفعال التى تقود إلى تلك الأعالى .

— ٤٦ —

ألا بُعداً لها إذن ! إن عالم الحكمة يوجد فى الحكمة نفسها ، أو فيك أنتِ ، أيتها الطبيعة ، أيها الأمّ الحنون ! فمن ذا يقدر على منافستك فى جمالك ؟ آه ! ما أروعك هنا على ضفاف نهر الرين الباهر الطلعة والجلال ! هنا يحدّق هارولد فى أعمال إلٰهية ، هي جماع لكل ما فى الطبيعة من مفاتن وجمال : المياه الجارية والأوداء الأريضة ، والثمار والأغصان المورقة ، والصخور والغابات ، والحقول ذوات الحصاد ، والجبال ، والكروم ، والقصور الشامخة التى هجرها أهلوها فتنفست عن توديعات حزينة بعثت بها من أعالى شُرُفاتها وواجهات جدرانها التى أحاطت فيها الأعشاب بالخراب .

— ٤٧ —

وهاهى ذى تقوم هناك ، كما تقوم الروح العالية ، تحطمت ولكنها لم تركع للدهماء الوضعاء ؟ إنها خاوية لا تسكنها إلا الرياح التى تنفذ إلى مخادعها من ثقوبها ؛ ولا تتصل إلا بالسحب المظلمة. لقد كان لها من قبل عهد نعمت فيه بالشباب والكبرياء ؛ وكانت الألوية ترفرف من فوقها عالية ؛ وكثير من المعارك قد نشب عند أسوارها . لكن جميع المحاربين الذين ناضلوا دونها صاروا يرقدون اليوم فى قبر دامٍ ، والألوية التى رفرفت قد تمزقت واستحالت إلى تراب ؛ وهذه الأبراج الشاحبة لم تعد تحتمل بعد أية ضربة .

— ٤٨ —

تحت هذه السقوف ، وفى داخل هذه الجدران ، أقامت القوة وسط نوازعها . وأصحابها من رؤساء المناسر قد دافعوا بافتخار وصولة عن قصورهم المحصنــــة ، وفعلوا ما أملته عليهم إرادتهم الشريرة ، وكانوا فى تباهيهم لا يقلّون عن كبار الأبطال ذوى التاريخ العريق المجيد . ما ذا كان يعوز هؤلاء الغزاة الخارجين عن القانون ، إلا أن يشتروا ذمة المؤرخين كيما يكرسوا لهم صفحات فى كتبهم ؟ أ كان ينقصهم مكان أفسح؛ وقبر مزوّق ؟ إنهم لم يكونوا أقل شجاعة ، ولم تكن آمالهم أقل سعة وحرارة .

— ٤٩ —

كم من أعمال مجيدة أتاها هؤلاء فى منازعاتهم حول الشرف والإقطاع ؛ لـكن طواها الزمان ! والحب ، الذى يعير شعاره لدروعهم ويسجل عليها عبارات حنان نخور ، قد استطاع أن ينفذ من خلال صفائح قلوبهم الفولاذية . لـكنه لم يشعل فى قلوبهم إلا لهيباً وحشياً ، منه تنبعث المنازعات وما يتلوها من حروب . كم مرة رأت هذه الأبراج ، التى استولِىَ عليها من أجل حسناء ، نهر الرين يجرى ممزوجاً بالدماء تحت أنقاضها !

— ٥٠ —

وأنت أيها النهر الظافر النشوان ، الزاخر الفيضان ! إن أمواجك بركة ونعمة للشواطىء التى يستطيع جمالها أن يبقى أبداً ،

لو ترك الإنسان خليقتك الرائعة هاتيك أعلى حالها ، ولم يَقْضِ على وعودها الجميلة بمنجل المعارك الفتاك . آه ! هنالك يصبح منظر الوادى الذى يرويه ماؤك العذب فردوساً حقا . بل ماذا ينقص تيارك الآن ، كيما يتبدى لى على هذا النحو ؟ يعوزه أن يكون ليثيته (نهر النسيان) .

— ٥١ —

لقد كنت مسرحاً لآلاف المعارك ؛ ولكنها زالت وباد نصف شهرتها ؛ وإله المذابح قد طالما كدّس الجثث والأشلاء على شطئانك . وإن قبورهم نفسها قد درست وعفت ، ومَنْ هم هؤلاء ؟ إن تيارك قد رحض دماء الأمس ، وصار كل شيء صافياً ، فتلألأ شعاع الشمس على سطح مجراك متراقصاً بضيائه . لكن ، أيًّا ما كانت سرعة أمواجك ، فإنها ستجرى عبثا فوق الأحلام المريعة للذاكرة المظلمة .

— ٥٢ —

تلك كانت خواطر هارولد أثناء ما كان يتابع مجرى النهر . لكنه لم يخل من التأثر بمفاتن الإقليم الذى كان يجوس خلاله ، وبغناء الطير المسرور فى الصباح الباكر ، وهى تحيي أودية تجعل المنفى عزيزا . وعلى الرغم مما كان يعلو جبينه من كآبة وقسوة باردة حلت لديه محلّ عواطف أشد عنفاً وقسوة ، فإن السرور لم

يهجر وجهه دائماً ، بل كان يختلس لحظات يظهر فيها حينما تختلبه المناظر الفاتنة .

— ٥٣ —

والحب هو الآخر لم يغلِّق بابه دونه نهائياً ، على الرغم من أن أيام غرامه قد زالت واستحالت إلى تراب . عبثا نحاول أن ننظر ببرود إلى من يبسم لنا ؛ فان القلب لا يلبث أن يعود إلى عواطفه الرقيقة على الرغم منا ، ولو أن الضجر والملال قد أبعداه عن كل عاطفة دنيوية . فهكذا استشعر : لأنه كان يحتضن ذكرى عذبة ، وكان ثمة قلب[1] لا يزالُ يعِزهّ ، ويود هو أن يذوب فيه ، حتى لذ له أن يحلم به فى ساعات حنانه .

— ٥٤ —

وهو قد عرف كيف يُسَرّ بتأمل نظرات الطفولة البريئة . لماذا ، لست أدرى ، لأن هذا شيء غريب بالنسبة إلى مَن فى مثل حاله . لكن ماذا تجدى معرفة الدافع إلى إحداث هذا التغيير فى نفس عامرة بازدراء بنى الإنسان ! إن العواطف الخامدة لا تستطيع أن تشتعل فى الوحدة إلا بعُسْر ؛ ومع هذا فقد اشتعلت تلك العاطفة ، على الرغم من خمود بقية العواطف .

— ٥٥ —

وكان ثمة قلب حنون يرتبط به بوشائج أوثق من تلك التى

---

(١) حب نصف أخته ، أوْجُستا .

تربطها الكنيسة (بالزواج) . وعلى الرغم من أنهما لم يرتبطا بزواج ، فإن ما بينهما كان حبا طاهراً ، ظاهراً ، قد استطاع مجابهة كل العداوات الإنسانية القاتلة ، وازداد عمقاً وتوثقاً بواسطة الحظ ، ولم تؤثر فى قوته نظرات العيون الساحرة لحِسان اخريات . لقد ظل هارولد مخلصاً ثابتاً فى غرامه ، وإنه ليرسل هذه التحيات من بعيد ، وهو على هذا الشاطىء الغريب ، إلى ذلك القلب الحبيب :

— ١ —

فى دِرا خِنفِلزَ قصر شامخٌ ... جاثم فوق ثنيّات الزَّبِنْ

حوله الأمواج تنزو بين شطْ ... ثانٍ علاها الكرمُ نشوان الفتَنْ

والروابى فوقها الأشجار تُزْهى ... وحقولٌ كلها قمح حَسَنْ

والقرى ، تاج جميل فوقها ... والسنا يبهر من سور المُدُنْ

منظر كان فريداً فاتنا ... آه ! لو كنتِ معى فى ذا الوطنْ

— ب —

وفتاة الريف زرقاء العيونْ ... ولها كفٌّ به الأزهار تندى

هذه الجنة تمشي مِن عليها ... هذه الحسناء فى بَسْم تبدّى

وتجلى فى العلا البرج غريقاً ... بين أوراقٍ علت سوراً تحدّى

وعلى وادٍ من الكَرْم أطلّت ... صخرة تهوِى بها قوس تردّى

إنما يعوز هذا الشطَّ كفٌّ ... كفُّك البضُّ لكى يتهدّى

— ح —

إننى أرسل ما أُعطيت من زَنْبقٍ لن يبقى نضيراً نخذيه

اقبليه ، رغم أنى عالم أنه يذبل من قبلُ ، اقبليه
إننى أحببته حقاً لعلى : ربما عينُك يوماً تجتليه
ربما روحُك تنقاد إلى ها هنا ، إنْ ذابلاً ذا تبصريه
وتريه مِن ضفاف الرين قد أقبل ، من قلبي إلى قلبك فيه

— ٥٥ —

يَزْبِدُ الرَّيْنُ بنبل ، فائضاً ينشر السحر بهاتيك المغانى
والسنا يبهر والفتنة تبدُو جمّةَ الألوان فى تلك المثانى
أىُّ قلبٍ لا يود الآن أن يَقصِرَ العيش على هذا المكان
ليس فى الدنيا مكان مثله عزّةً فى النفس وفى طبع الكيان
لو رنت عيناك نحوى وأنا هائم فوق ضفاف الرين فانى

— ٥٦ —

غير بعيد من كوبلنتس يتوج هرمٌ بسيط رابيةً من العشب الرقيق ؛ وتحت قاعدته يرقد رماد أحد الأبطال . لقد كان من أعدائنا ؛ لكن هذا لا يمنعنا من إزجاء المديح إلى ذكرى مَرْسو[١] . فعلى قبر هذا البطل الشاب ، انهمرت الدموع الغزار الكبار من جفون الجنود الغليظة ، نوحاً وحسداً على مصير هذا الذى عاش من أجل فرنسا ، وناضل من أجل الدفاع عن حقوقها .

---

(١) فرنسوا سفران مرسو ، قائد فرنسى عظيم من قواد الثورة الفرنسية . ولد فى شارتر ، وقاد جيش السانبر والميز ، وقتل عند ألتكرشن (سنة ١٧٦٩ — سنة ١٧٩٦) .

— ٥٧ —

لقد كانت حياته قصيرة ، ملأى بالشجاعة والأمجاد ؛ فبكاه جيشان ، وناح عليه الأصدقاء والأعداء على السواء . فليتوقف الأجنبي عند تماثله هنا ، كيما يصلى لراحة هذه الروح الباسلة . أجل ، لقد كان مَرْسو بطل الحرية ، وكان من هذه الصفوة من الناس الذين لا يسيئون استخدام القوة الهائلة التى تمنحها الحريةُ للذين يمتشقون السلاح باسمها . إن مرسو قد احتفظ بطهارة نفسه ؛ لذا ذهب مبكياً عليه من الجميع .

— ٥٨ —

وها هنا إيرنبرَ يتْشتين ذات السور المتهدّم وقد علاه السواد من انفجار مَنْجَم، مما يشهد بما كانت عليه هذه القلعة الرهيبة التى قاومت كل الهجمات التى انصبت عليها من المدافع والقنابل . أىْ قلعةَ النصر العزيزة ! من أعلى هذه الصخرة رؤى الأعداء يفرون فى السهل . لكن السلام قد قضي على ما لم تقو الحرب على القضاء عليه : فسلّم لأمطار الصيف هذه السقوف المتكبرة التى انصبت عليها عبثاً أمطار من الحديد طوال عدة سنوات .

— ٥٩ —

وداعاً إذن أيها الرين الجميل ! إن الغريب ليمتع نفسه طويلا هنا و يود ألا يغادر هذا المكان الفتان . إن إقليمك مقام رائع لروحين متحدين أو للتأمل المتوحّد ، فكلاهما يلذ له أن يعيش

شارداً فيه . آه ! لو قدر لِحِدَأة تأنيب الضمير أن تفارق أخيراً ذلك القلب الذى صار فريستها ! فها هنا الطبيعة التى ليست حزينة كل الحزن ولا فرحة كل الفرح ، والتى هي متوحشة دون أن تكون قاسية ، تصير بالنسبة إلى بقية الأرض الناعمة كالخريف بالنسبة إلى بقية فصول العام .

— ٦٠ —

وداعاً لك مرة أخرى ! وداعاً لا غَناء فيه ! فلا وداعَ لمكان كمكانك هذا . إن نفسي مصبوغة بكل لون من ألوانك .. و إذا عزفت العيون عن التملى بسحر مناظرك ، أنت أيها الرين العزيز ! فان النظرة الأخيرة لتفيض بالإعجاب والاعتراف بالجميل. أجل ، قد توجد ثمة مناطق أكثر قوة وأبهر فتنة ؛ لكن لا يوجد إقليم واحد قد جمع مثلك كل هذا الجمال والعذوبة وأمجاد الماضي العريق .

— ٦١ —

العظمة البسيطة، والزهرة المؤذنة بأشهى الثمار وخير النضوج، والأسوار البيض اللامعة ، والتيار الجارى ، والهاوية المظلمة ، والغابة المتوثبة النماء ، والجدران القوطية الشامخة ، والصخور المتوحشة الشبيهة بالأبراج، والتى تتحدى فنون بنى الإنسان — كل هذا مضافاً إلى شعب أفراده بيض الوجوه كريمة حسابهم كأبناء الإقليم ، الذى تفيض خيراته الوفيرة على الجميع ، وتشيع البهجة

فى كل أنحائه ، على الرغم من سقوط الأمبراطوريات المجاورة من حوله .

— ٦٢ —

لـكن هذا قد صار عنى بعيداً . فمن فوق جبال الألپ ، قصور الطبيعة ، التى تمتد أسوارها العالية بشرفاتها البيض إلى أعلى السحاب . إن السرمدية قد اتخذت عرشاً لها فى أبهاء ثلجية ذات سموٍّ بارد ، فيها تتكون مهاوى الثلوج ، هذه الصواعق من الثلج . إن كل ما يسمو بالروح ، وإن كان يخيفها ، يلتئم شمله عند هذه القمم العالية ، كيما يبين كيف تنفذ الأرض إلى السماء ، تاركة الإنسان المغرور عند الأسافل .

— ٦٣ —

لـكن قبل أن أتجاسر على التحديق فى هذه الأعالى المنقطعة النظير ، لا بد لى من التوقف عند بقعة لا يخلق بى أن أمر بها عابراً : موراً ! [1] أى مورا الفخور ! أيها الميدان الوطنى الغيور الذى يستطيع المرء أن يبصر فيه آثار المذابح الرهيبة ، دون أن

(١) مورا ، واسمها بالألمانيه مورتن ، اسم لمدينة ولبحيرة فى شمال مقاطعة فريبورج وشرقى نيوشاتل ؛ وعندها حدثت معركة هائلة بين شارل الجسور ، دون بورجونى الأخير الذى غزا سويسرة ، وبين السويسريين الأحرار الذين هزموه فيها سنة ١٤٧٦ ؛ وقد خلف البورجونيون فى سهل مورا مايقرب من خمسة عشر ألف قتيل .

يخجل من أجل هؤلاء الذين غزوا هذا السهل ! هاهنا خَلف أهل بُرْجونيا جنودهم بلا قبور ؛ والتمثال الوحيد الباقى منهم قد تـكون من رُفاتهم وعظامهم التى بقيت مكدّسة على ممر القرون: إن أشباحهم، وقدحرمت من الراحة التى يجلبها الاحتفال الجنازى، تهيم شاردة على شطئان الاستيكس ، ولهم وَلْوَلة وعويل [١] .

— ٦٤ —

بينما ووترلو تنافس [٢] كاننًا فى هول المذابح ، فإن مورا ومارثون يقف اسماها الواحد إلى جوار الآخر . لقد كانا انتصارين طاهرين ولدهما مجد صحيح ، وأحرزهما قلب قد خلا من الطمع ، ويد عفّة لعصبة متآخية مهذبة فخور ، كلها أبطال لم يدخلوا فى حمأة منافسة بين أمراء أفسدتهم الرذيلة . إنهم لم يفرضوا على أمة أن

---

(١) تقول الأساطير اليونانية والرومانية إن أرواح الموتى الذين لا يقبرون لاتستطيع أن تجتاز نهر الاستيكس وتدخل رِعليين ، إلا إذا دفنت أجسادهم .

(٢) كانا ، قرية صغيرة فى أپوليا ، فيها انتصر هانيبال على القناصل الرومان ، وذبح ما يقرب من أربعين ألفا من الرومان ؛ وكان ذلك فى ٢١ مايو سنة ٢١٦ ق . م .

أما مارائون : فقرية فى أتكا ، على بعد عشرة أميال من أثينا ، مشهورة بالمعركة التى جرت فيها بين عشرة آلاف أثينى وألف پلاتى تحت قيادة ملتيادس، ضد الفرس، وقد انتصر فيها اليونان فحفظوا بذلك بلادهم ضد الفرس.

تنوح على انتهاك هذه القوانين الدرا كونية[١] التى تزعم أن حق الملوك إلهى مقدس .

— ٦٥ —

بالقرب من سور متوحد ، يقوم عمود أكثر توحداً ، يرفع رأسه الحزين منذ العهود الخالية . إنه الأثر الباقى الأخير من خراب السنين ؛ و إنه ليحدق كما يحدق إنسان قد أحاله الخوف إلى حجر ، ولكنه لا يزال يحيا . و إن المرء ليدهش حين يرى هذا العمود قائماً باقياً ، بينما غطت افنتكوم ، عاصمةُ هلفسيا المتكبرةُ ، مناطقها القديمة بأطلالها الدارسة .

— ٦٦ —

هنا وهبت جوليا شبابها للسماء ، جوليا — أوه ! ما أعذب هذا الاسم وما أجل قداسته ! جوليا ، هذه الطاهرة المخلصة فى حب أبيها . إن قلبها كان لِمَنْ حقه يتلو حق رب السماء ، إذ تحطم على قبر أبيها . لقد أقسمت العدالة ألا تأخذها الرأفة : فلم تستطع عبرات جوليا أن ترد الحياة إلى من وهبها إياها ؛ لكن الحاكم كان عادلاً ، فماتت على قبر هذا الذى لم تستطع إنقاذه . لقد كان قبرهما بسيطاً ، لا تعلوه زينة ولا تمثال ، وإن إجّانتهما

(١) نسبة إلى دراكون ، المشرع الأثينى المشهور الذى وضع تشريعا حوالى سنة ٦٣٣ ق . م اشتهر بشدة القسوة ، حتى يقال إنه كان مكتوباً بالدم . فقد كان الكسل يعاقب تبعا لها كما يعاقب القتل ، فيحكم على مرتكب كليهما بالإعدام .

لتحمل قلباً واحداً وعقلاً واحداً ، وتراباً واحداً [١] .

— ٦٧ —

تلك أعمال مجيدة خالدة الذكرى ، وأسماء يجب ألا يلحقها فناء ، على الرغم من أن الأرض تنسي ، ولها الحق ، الأمبراطوريات التي ترتفع ثم تفنى ، والشعوب المهزومة وسادتهم الطغاة . إن جلال الفضيلة الشامخ يجب بل وسيبقى بعد متاعبها ؛ إنها ستتلألأ من معبد خلودها فى شعاع الشمس ، فوق كل شئون هذه الدنيا ، مثل هذا الثلج [٢] الصافى الخالد الذى يتوج قمة جبال الألپ .

---

(١) « چوليا أليپنولا ، كاهنة شابة ، ماتت بعد وفاة أبيها بقليل ، الذى حكم عليه بالاعدام أولوف كيكينا بتهمة الخيانة . وكانت قد حاولت عبثا أن تظفر بالعفو عنه . وقد اكتشف شاهد قبرها منذ عدة سنوات وها هو ذا : چوليا أليپنولا ، هنا أرقد ، كخلف بائس لأب بائس ؛ وأنا كاهنة فى خدمة الآلهة ؛ لم أستطع أن أنقذ أبى من الموت بصلواتى . . . وقد عشت ثلاثا وعشرين سنة .

« ولا أعلم نقشا مؤثراً كهذا الشاهد ، وليس ثمة من تاريخ يبدو أكثر من هذا تشريفا . تلك أسماء وأعمال يجب أن لاتنسى ؛ وإن المرء ليذكرها دائما بعطف مواسٍ ، حينما يشيح بانتباهه عن صورة المعارك المختلطة ، التى تثير أحيانا نوعا من المشاركة الوجدانية الزائفة التى يتلوها أخيراً اشمئزاز صادق ، ناشىء عن تلك النشوة العابرة » (بيرن)

(٢) « اكتب هذا قبالة مونبلان (٣ يونيو سنة ١٩١٦) ، الذى يبدو باهراً حتى على هذا البعد . — (٢٠ يوليو) اليوم تأملت مليا وبوضوح انعكاس مونبلان وجبل أرچنتان فى بحيرة ليمان ، التى عبرتها فى زورق . (بيرن) .

— ٦٨ —

إن بحيرة ليمان تغازلني بمحياها البلّوري الذي يشبه مرآة تنظر فيهـا النجومُ والجبالُ إلى هدوء مرآها في كل أثر يتركه عمقها الصافي عن علوها وألوانها : إن ها هنـا الـكثير من آثار الإنسان ، حتى إن في وسعي أن أتأمل بهدوء كل ما أتبينه فيها من جليل . لـكن سرعان ما تجدّد الوحدةُ أفكاراً وخواطر في نفسي خفية ، لعلها قد نسيت ، لـكنها مع هذا لا تقل تأثيراً في نفسي عما كانت من قبل ، قبل أن فرض عليّ عودي إلى حظيرة بني الإنسان أن أحيا وسط قطعانهم .

— ٦٩ —

إن تجنب بني الإنسان ليس معناه بالضرورة كراهيتهم ؛ فليس كل امرىء بمهيأ للدخول في غمرتهم ومزاحمتهم في مشاغلهم . وليس من الزراية بهم أن تحتفظ بقلبك عميقاً في ينبوعه ، خوفاً من أن يفيض غلياناً في حميم الطغام ، حيث نصير فريسة لداء عياء ، إلى أن نندب متأخراً ولزمان طويل ضرورة كفاحنا ضد العدوى ، وننتقل من خطأ إلى خطأ ومن شقاء إلى شقاء وسط عالَم تشيع فيه روح معادية لا نقوى على صدها والتغلب عليها .

— ٧٠ —

هناك تكفي لحظة واحدة من أجل أن تقذف بنا في هاوية أسف لا سبيل إلى الخلاص منه . وروحنا المعذبة تحيل حينئذ كل

دمائنا إلى دموع ، وتصبغ المستقبل بألوان الظلام . ولن تـكون رحلة الحياة ثمتئذ غير فرار لا أمل فيه بالنسبة إلى هؤلاء الذين يمشون فى الظلام . إن أشد النوتية جسارة يبحر دائماً إلى مرفأ معروف لديه ؛ ولـكن ثمة على خضم السرمدية بحارة رحالة تسير مراكبهم هنا وهناك ، هائمة لا ترسو عند شاطىء أبداً .

— ٧١ —

أفليس من الأفضل إذن أن يظل المرء وحيداً ، وأن لا يحب الأرض إلا من أجل ما فيها من مفاتن أرضية فحسب ، سواء عند الأماكن التى ينبع فيها نهر الرون المنطلق كالسهم تعلوه الزرقة [١] ، أو على شواطىء البحيرة التى تغذى النهر الفتى كأم تغدق حبها وحنانها على طفل عنيد تخفف صيحاته بالملاطفات ؟ أو ليس من الحـكمة إذن أن نقضى حياتنا فى مكان منعزل ، بدلا من الدخول فى مضطرب الجماعة ، كيما نـكون قسراً مسيطرين أو مستعبَدين ؟

— ٧٢ —

إننى لا أحيا بعدُ فى نفسي ، لـكننى أصير بُضْعة مما حوالىّ . والجبال تثير فى نفسي عطفاً ومشاركة وجدانية ، لـكن ضوضاء

---

(١) « لون الرون ، عند چنيف ، أزرق غامق لدرجة لم أشهد مثلها فى أى ماء ملح أو عذب ، لا أستثنى من هذا إلا البحر المتوسط فى منطقة الأرخبيل » (بيرن) .

المدينة ترهقنى وتعنّينى . ولست أرى فى الطبيعة شيئاً يثير اشمئزازى غير كونى حَلْقة بالرغم منى فى سلسلة الأبدان ، وغير اعتبارى واحداً من بين الكائنات ، بينما تستطيع روحى أن تطير وتحلق وتمتزج بالسماء ، وذُرى الجبال ، وسهل المحيط المنبسط ، والنجوم اللامعة ؛ تمتزج وإياها حقاً ، لا باطلا .

— ٧٣ —

وهكذا أستغرق فى مثل هذه الخواطر والأفكار ، وتلك حياتى . إننى أنظر إلى صحراء العالم الآهلة بالسكان كمكان للمحن والآلام ، نفيتُ فيه من أجل التكفير عن بعض الخطايا ؛ وأعتقد أن فى وسعى أن أفرّ أخيراً بأجنحةٍ رشيقة تفوق فى طيرانها سرعة الإعصار ، محتقراً قيودى من الطين التى تأسر كيانى السجين .

— ٧٤ —

وحينما تصير النفس يوماً حرة من كل ما تبغضه فى هذا الشكل الوضيع ، غير محتفظة بشيء من حياتها الجسدية إلا ما يبقى من الفراشة والدودة — ؛ وحينما تتحد العناصر بالعناصر ، ويصير التراب تراباً خالصاً ، أفلا أُحِس بكل ما أرى صادقاً بادياً حقاً ، وإن كان لا يبهرنى ؟ أفلن أبصر الفكر الخالص من البدن ، والروح الشائعة فى كل مكان ، التى أشارك منذ الآن فى وجودها الخالد ؟

— ٧٥ —

أليست الجبال والأمواج والسموات بُضْعة منى ومن روحى، كما أنّى أنا بضعة منها ؟ أليس حبُّها عميقاً فى قلبى ، خالصاً طاهرا ؟ أوَلا أحتقر كل شيء إذا ما قورن بهذه الروائع ؟ أوَلا أجابه كل المصائب والآلام أوْلى من أن أعزف عن مثل هذه الأحْساس من أجل برود العالَم القاسي ، برود هؤلاء الذين قلبت عيونهم إلى أسفل ، وعلقت أبصارهم بالطين ، وامتلأوا بأفكار لا يضيؤها نور نبيل ؟

— ٧٦ —

لكن هذا ليس الآن موضوعى ؛ فلأعُد إلى ما يشغلنى ، سائلا هؤلاء الذين يلذ لهم التأمل فى الإجانة التى تشتمل على بقايا الموتى أن ينظروا إلى هذا الذى كان ترابه من قبل ناراً كله ، والذى هو وليد هذه الأرض التى استنشق هواءها الصافى الآن كزائر عابر . لقد حاول أن يملأ الدنيا بأمجاده ؛ لكنها محاولة جنونية ضَحَّى بكل شيء من أجل الاحتفاظ بها والحصول على أغراضه منها .

— ٧٧ —

هنا بدأ روسو حياته المليئة بالمتاعب والأحزان ، روسو ، هذا السوفسطائى الوحشىّ المعذَّب نفسه ؛ رسول الحزن الذى أضفى السحر على العاطفة والوجدان ، وجعل الشقاء يتحدث

بأبلغ عبارة . لـكنـه عرف كيف يجعل الجنون جميلاً ، وكيف يصبغ الأفعال الخاطئة والأفكار الضالّة بألوان سماوية من كلمات كأنها أشعة الشمس ، تبهر العين حين تمر عليها ، وتستثير الدمع الحزين بإخلاص وثبات .

— ٧٨ —

لقد كان حبه جوهر الوجدان ؛ — إذ كان شعلة أثيرية تحترق وتُحْرِق قلبه ، مثله مثل شجرة ألهبتها الصاعقة ؛ لأن الحب والاشتعال والاحتراق كانت كلها عنده معانى مترادفة واحدة . لـكن هذا الحب لم يكن حباً لامرأة حية ، ولا لميتة تطوف بنا فى خيال الأحلام ؛ إنما كان حباً للجمال المثالى ، الذى صار عنده وجوداً ، وأشعل صفحات كتبه المشبوبة ، مهما يكن من غرابة مثل هذا العشق .

— ٧٩ —

هـذه العاطفة قد تنفست وحَيِيَتْ فى چوليا [١] ، ووهبتها كل ما هو عذب ووحشي . وهذا هو ما قدّس أيضا هذه القُبْلة الخالدة التى حَيِّت فى كل صباح شفته الملتهبة المحمومة ، منحته إياها على سبيل الصداقة وحدها . لـكن هـذا المَسّ الرقيق قد أشعل الشرارة التى أضرمت فى كل حواسه وفؤاده نار الغرام

---

(١) چوليا بطـلة رواية « هلويزا الجديدة » لروسو ، ومحبوبة سان پريه المشهورة .

المُحْرِقة . فى هذه الزفرة المستغرقة للروح ، شعر بأسمى مما تشعر به النفوس العادية فى امتلاكها لكل ما تتعشقه [(١)] .

— ٨٠ —

لقد كانت حياته حربا طويلة مع أعداء كان هو الناشد لهم ، أو مع أصدقاء كان هو الذى لوى عنهم عِذاره ؛ لأن نفسه قد صارت معبداً للظنون والاتهام المتزايد ، واختارت ، من أجل تضحيتها القاسية ، هؤلاء الذين أحبوه ولكنه حمل نحوهم كل غضب غريب أهوج . غير أنه كان فى هذيان — لماذا ؟ من يدرى ! لقد كان سببه خفيا لا يستطيع ذكاء أن يكشف عنه . لكنه أصيب بالهذيان بسبب المرض أو الشقاء ؛ وكان جنونه من أخطر الأنواع ، لأنه كان من ذلك النوع الذى يبدو فى مظهر العقل .

— ٨١ —

ذلك أنه كان يُوحَى إليه ؛ ومن ثمه كانت تصدر هذه

---

(١) « إشارة إلى فقرة فى « اعترافات » جان جاك روسو ، فيها يتحدث عن حبه لمدام دودتو ، وعن النزهات الطويلة التى كان يقوم بها كل صباح من أجل الظفر بالقبلة الوحيدة التى كانت تمنحه الكونتيسة إياها ، وهى تحييه . وإن وصف العواطف التى كان يشعر بها حينئذ ليمكن أن يعد أحر وصف للغرام . ومع هذا فان تأثيرات الحب هى من نوع تقصر الألفاظ عن وصفه : إن اللوحة المرسومة لا تستطيع أن تمثل لنا المحيط إلا بطريقة ناقصة » (بيرن) .

الألوان من الوحى التى تلهب العالم بأسره ، مَثَل وحيه مَثَل ذلك الذى كان يأتى قديما من كهف بيثيا السِّرّى ؛ وكان وحياً لا ينقطع عن الإحراق حتى تصير الممالك أطلالاً . ألم يفعل هذا بالنسبة إلى فرنسا ؟ إن فرنسا كانت قد عَنَتْ لنير الاستبداد طَوال عدة قرون . لقد كانت ترتعد محطَّمة تحت هذا النير الذى كانت تحمله ، إلى أن أيقظها صوته وصوت أمثاله فغضبت أعنف الغضب ، مما هو نتيجة لمخاوف مُفْرِطة .

— ٨٢ —

إن شعب فرنسا قد صنع لنفسه تمثالاً رهيبا ! تمثالاً من بقايا الأفكار القديمة التى ولدت مع الزمان : فتجاسر على تمزيق القناع ، كاشفاً بهذا للعالم أجمع عن كل ما كان خافياً حتى الآن فيه . لكنه حطم الخير مع الشر ، غير مُخَلِّف إلا الأطلال ، التى منها سيبنى على نفس الأساس ، وستجدد السجون والعروش التى امتلأت كما كانت من قبل ، لأن الطمع والطموح قد أطلقا لنفسيهما العنان .

— ٨٣ —

لكن الاستعباد لا يمكن أن يستمر أبدا ! فلا يبقى ولا يمكن أن يحتَملَ . لقد شعرت الإنسانية بقوتها ، وأشعرت الآخرين بها . لقد كان فى وسعهم أن يحسنوا استخدامها ؛ لكنهم وقد خدعتهم قوتهم الجديدة ، قسا بعضهم على بعض أشد القسوة ؛

فتوقفت الرحمة عن الإحسان الذى كان من قبل طبيعياً لديها . لـكن هؤلاء ، الذين سكنوا كهوف الاستعباد طويلاً ، لم يكونوا نسوراً قد ألفوا الحياة فى ضوء الشمس . فأى عجب إذن فى أن يكونوا قد أخطأوا أحيانا فى اختيار فرائسهم ؟

— ٨٤ —

أى جروح تندمل دون أن تترك ندوبا ؟ إن جراح القلب تَدْمَى أطول مما تدمى سائر الجراح ، وندوبها لا يمكن يوماً أن تمحى . إن من يصارع آماله هو نفسها ، ويخرج من هذا الصراع مهزوما ، يُخْلِد إلى الصمت ، لا إلى الإذعان . إن الذَّحْل يصمت فى مغارته إلى اللحظة التى تدق فيها ساعة الانتقام المُرْتَقَبة منذ سنوات طِوال . فلا يقنطَنّ امرؤ ؛ لقد أتى وسيأتى اليوم الذى يهب القدرة على المعاقبة أو المغفرة . ونادراً ما يغتفر الانتقام !

— ٨٥ —

أىْ ليمان الصافية الساجية ! إن التباين فيما بين بحيرتك و بين العالم الوحشي الذى عشت فيه ، لينبهنى بسكونه إلى هجر مياه الأرض المعكرة نشداناً لينبوع أنقى وأصفى . إن الشراع الهادى للمركب الذى أبحر عليه فيك ليشبه الجناح الصامت الذى ينتزعنى من حياة القيود والاضطراب . لقد كنت من قبل أعشق زئير المحيط ، لـكن همسك العذب الرقيق يرن كما يرن صوت أختٍ عاتبتنى على شدة تعلقى باللذات القاسية المظلمة .

— ٨٦ —

أقبلت ساعة الظلام السكوت . ومن شطئانك حتى الجبال ، تعلو الأشياء ألوان الأصيل ، وعما قليل ستغمرها ظلمة المساء : لكنها لا تزال متميزة ، اللهم إلا الجورا الكابية ، التى تتبدى أعاليها كهُوِىٍّ عاتية وعِرة . وبالقرب من ساحلك ، أستروح العطور العذبة التى تفوح من كؤوس أزهار كادت أن تتفتح ؛ وإلى الآذان تصل ضوضاء خفيفة لقطرات ماء تساقط من المجداف المعلق فوق البحيرة ، أو طنين الجُنْدب وهو يغنى توديعة الليل .

— ٨٧ —

إنه الحشرة المرحة فى المساء ، التى تجعل من حياتها طفولة ، وتغنى ملء فيها طوال عمرها ؛ وبين الفينة والفينة ، يسمع صوت طائر من وسط أغصان الديشان ، يصدح برهة ثم يصمت . فيبدو حينئذ وكأن ثمة همساً خفيفاً يحلق فوق الرابية . لكن هذا من بنات الخيال ؛ لأن الندى الهابط من ضوء النجوم يقطر صامتا دموع غرامه ، قاطعاً وقته بالدموع ، حتى يُنْفِذ داخل حِضن الطبيعة روحَ ألوانه .

— ٨٨ —

وأنتِ أيتها النجوم ، أنت أشعار السماء ؛ إذا كنا نسعى لقراءة مصائر الناس والدول فى صفحاتك اللامعة الناصعة — فاغفرى لطموحنا الجامح محاولته تجاوز نطاقه الفانى من أجل

الاتحاد بك ؛ لأنك جمال وسر ، ولأنك تخلقين فى نفوسنا من الحب والإجلال السامى ما يجعل الحظ والشهرة والقوة والحياة تدعوا نفسها باسم النجوم بأن تتخذ منها رموزا عليها .

— ٨٩ —

خيم الصمت على الأرض وعلى السماء ، وإن لم تغرق فى النّعاس ؛ وكلاهما لا يكاد يتنفس ، مثله مثل من يحس بشعور حاد عميق ؛ وكلاهما صامت ، صمت هذا الغارق فى خواطر عميقة .
خيم الصمت على الأرض والسماء : فمن جيش النجوم العالى إلى البحيرة المُهَدْهَدَة والجبل الوسنان ، كل شيء قد ائتلف فى حياة عميقة ، يشارك فيها كل من الشعاع والهواء والأوراق نفسها ، فلا يغيب منها شيء ، بل له حظه من الوجود فيها . كل شيء يشعر بهذا الذى خلق كل شيء ويقوم على حفظه ورعايته .

— ٩٠ —

فى مثل هذه اللحظات يكون الشعور بالوحدة أضأل ما يكون ؛ وفيها يستيقظ فى نفوسنا الشعور باللانهائى ؛ وهو شعور صادق ينفذ فى أعماق كياننا ، ويطهّر كل وجودنا . إنه الروح والينبوع لنغمة تكشف لنا عن الانسجام السرمدى ، وتنشر سحراً جديداً على كل شيء ، مثل زُنّار سيتريا الخرافى الذى يربط كل شيء برباط الجمال ؛ هذا الجمال الذى ينزع السلاح من شبح الموت ، لو أنه يصيب بسلاح مادى .

ما أروع فكرة الفرس الأولية الذين كانوا يقيمون مذابحهم فوق الأعالى وعلى قُنَن الجبال [1] ، ويعبدون الروحَ الخالدة فى معابد بلا جدران ولا زُخْرف ، ناظرين إلى المعابد المبنية كأنها لا تليق بجلاله وعظمته ، هذه المعابد التى شيدتها أيدى الإنسان ؟ تعال قارن الأعمدة والمعابد ، اليونانية أو القوطية ، بمعابد الطبيعة : الأرض والسماء — تكفَّ عن حصر صلواتك فى مُقامات وأبنية محدودة كهاتيك !

---

(١) « يجب أن نتذكر أن مؤسس المسيحية الإلهى قد نطق بأجل حكمة وأشدها تأثيراً وهو على ظهر الجبل ، لا فى المعبد .

« لكن دعونا من الدين كيلا تستشهد إلا بالبلاغة الانسانية : فأجل الخطب وأبلغها لم يلق بين الجدران ؛ فديموسثين كان يخطب فى المجتمعات الشعبية ، وشيشرون كان يتكلم فى السوق . . . والمسلمون الذين هم مخلصون لدينهم كل الاخلاص (وعلى الأقل الطبقات الدنيا فى المجتمع) وبالتالى هم قابلون جداً للوجد الدينى ، يؤدون الصلاة فى أى مكان يكونون به فى الأوقات المحددة للصلاة . لهذا كثيرا ما يراهم المرء يصلون فى الهواء الطلق ، فوق السجادة التى يحملونها معهم دائما ، والتى يستخدمونها كسرير ومخدة معا ؛ وطوال الزمن الذى تستغرقه الصلاة ، يكونون غارقين تماما فى نفوسهم ، وليس فى استطاعة شىء أن يلهيهم عنها ، حتى ليبدون وكأنهم لا يحيون إلا من أجل الصلاة . وإن عبادة هؤلاء الناس الصريحة والروح الدينيه التى تشيع فى نفوسهم فى تلك اللحظات ، قد أثرت فى نفسى أكثر من تأثير الشعائر التى تقام لله فى معابد » (بيرن) .

— ٩٢ —

لـكن وجه السماء قد تغير وحال ، وأى تغير ! إيه أيها الليل والعاصفة والظلام ، إنكِ لقوى عجيبة : ولـكنك محبوبة برغم قوّتك ، مثل النور الذى يشعّ من عينٍ سوداء لامرأة ! من بعيد تتردد أصداء الرعد الواثب من صخرة إلى صخرة . ليس السحاب وحده ، بل كل جبلٍ قد وجد له الآن لساناً ؛ والچورا تجيب ، من خلال الضباب المتلفعة به ، الألپ السعيدة التى تناديها بصوت مرتفع .

— ٩٣ —

وفى كل مكان ساد سكون الليل . ألا أيها الليل الرائع الجليل ! إنك لم ترسل من أجل النوم ؛ فدعنى أشارك فى سرورك العَرِم الطافح ! دعنى أكون شطراً منك ومن العاصفة ! ما أجمل البحيرة وهى تتلألأ وتضيء ، وكأنها بحر من الفسفور ! وما أروع المطر الغليظ وهو يسّاقط على الأرض متراقصاً ! وعما قليل تغمر الظلمة كل هذه المغانى ، ويدوّى صوت الجبال الرهيب الجذلان معاً ، وكأنها مسرورة بميلاد زلزالٍ شابّ .

— ٩٤ —

الرون السريع يشق طريقه بين الأعالى التى تبدو كعاشقين هجر كلاهما الآخر سريعاً وانجذم الحبل بينهما فصارت تفصل بينهما هُوّة شاسعة عميقة ، حتى لم يعد فى الوسع التقاؤهما من جديد ، وإن

صارت قلوبهم جميعاً محطمة يائسة ؛ على الرغم من أن الحب نفسه هو الذى أوجد هذا الغضب المحبوب الذى قضي على زهرة عمرهم. لقد فر الحب من قلوبهم ، تاركا فى قلوبهم المحطّمة عهداً من السنين كله شتاء ، وحرب باطنة مليئة بالعذاب .

— ٩٥ —

فى هذه المِنْطقة التى شق فيها الرون السريع طريقه ، هبت أشد العواصف صولة وقسوة ؛ فكثير من الرعود المنطلقة من كل ناحية كأنها السهام المشتعلة ، تنبىء أن جمعاً وافراً من الزوابع قد شن الغارة . و بين هذه التلال الوعرة انطلقت أعنفها ، وكأنها فهمت أنه فى مثل هذه الأخاديد التى أحدثها الخراب ، تستطيع السهام السماوية النارية أن تحرق كل ما اختبأ هناك .

— ٩٦ —

أيتها السماء والجبال والنهر والرياح والبحيرة : إن لى روحاً قادرة على أن تفهمكم ! وفى وسع الليل والسحاب و بروق الصواعق أن يلهمنى ؛ و إن أنغام أصواتك الراحلة لهى الصليل لكل ما فى نفسي من قلق — لو قدر لى أن أشعر بالراحة . لكن إلى أية غاية تسيرين ، أيها العواصف ؟ أأنت كتلك التى تثور فى داخل صدر الإنسان ؟ أو أنت تجدين فى النهاية ، كالنَّسْرِ ، عُشاً عالياً ؟

— ٩٧ —

ألا ليتنى أستطيع أن أُجَسِّم أفكارى وأعبر عما يجول فى

نفسي ؛ ألا ليتنى أقوى على إلباس أفكارى ثوب التعبير ، وبهذا ألقى بالروح والقلب والعقل والانفعالات والأحساس، قويها وضعيفها ، وكل ما نشدته ، وكل ما أسعى إليه أو أحمله وأعرفه وأشعر به ، وأتنفسه — ألا ليتنى أستطيع أن ألقى بهذا كله فى كلمة واحدة ، كلمة تكون هي البرق ؛ إذن لفهتُ بها : لكننى أحيا وأموت دون أن أذيع سِرّى ، ولى فكر قد خلا من كل صوت ، مثله مَثَل سيف يظل فى غمده .

— ٩٨ —

تبدى الصبح من جديد ، الصبح الندىّ ، الذى يتنفس عطراً نفيساً ، ويحمل خداً من الزهر ، ويسخر من السحاب فى تلاعب ، وينشر النور والحياة وكأن الأرض لا تشتمل على قبر . وها هو ذا قد تطور واستحال نهاراً ضاحياً . أوَ فى وسعنا إذن أن نستأنف سير حياتنا ؛ وهكذا أستطيع ، أنا الذى لا زلت واقفاً على شطئانك ، أى ليمان ! أن أجد مجالا وغذاء للتأمل والتفكير ، وأن أنعم بمنظر فاتن أود التملى به طويلا .

— ٩٩ —

كلارانس ! كلارانس العذبة ، أىّ مولد الحب العميق ! إن هواءك هو النفَس الشاب للفكر الحارّ المتوثب ؛ وإن أشجارك لتمد جذورها فى الحب ؛ والثلج فى الأعالى قد التقط منك ألوانك؛ وأشعة الشمس فى وقت الأصيل تصبغه بصبغة وردية ، ويلذ لها

أن ترقد فى أحضانه ؛ والصخور ، الصخور العتيقة المعمَّرة تتحدث هنا عن الحب ، الذى نشر عندها ملاذاً من صدمات الدنيا ، تلك الصدمات التى تُهِيج الروح بالأمل الباسم أولا ، المثير للقنوط من بعد .

— ١٠٠ —

أى كلارانس ! إن طرقك قد وطئتها أقدام سماوية ، أقدام الحب الخالد الذى ارتقى هنا عرشا ، الدرجات الموصلة إليه جبال. إن الحب هنا إله كله نور وحياة — ولـكنه لا يهيمن فوق الأعالى وحدها ، ولا فى الـكهف السا كن والغابة فحسب ؛ بل إن عينه لتضيء فوق الزهرة ، و إن أنفاسه قد هَبَّت ، أنفاسه الرقيقة الصيفية ، التى تفوق قوتها الحنونُ قوةَ الأعاصير فى عنفها وشدة هبوبها .

— ١٠١ —

كل ما هنا يُنْبِيء عن قدرته: من الصَّنَوبَرْ الـكابى ، الذى هو ظلّه فى الأعالى ، وهدير السيول العالى ، الذى يستمع له ، حتى الـكروم التى تنحدر بسبيله الأخضر إلى الشاطيء ، حيث تلتقى به المياه المنحنية إجلالا له ، وتتعبّده ، مقبِّلة أقدامه فى همس رقيق ؛ والغابة المليئة بالأشجار العتيقة والجذوع الهرمة ، المتوَّجة بالأوراق الغَضّة الشابة شباب السرور — تقوم حيث هى ، مقدّمة إليه و إلى أتباعه ملاذاً من الوحدة الآهلة بالسكان .

— ١٠٢ —

وحدة آهلة بالنحل والطيور ، والأشياء الجميلة الأشكال والألوان ، التى تتعبده بنغمات أعذب من الكلمات ، وتبسط ببراءة أجنحتها الجذْلَى ، مليئة بالحياة ، لا يتطرق إلى قلبها الخوف ؛ وهنا همس الينابيع ، وتساقط المياه من النافورات العالية ، وحفيف الأوراق فوق الأغصان ، والبرعم الذى يحمل أعذب فكرة عن الجمال — كلها تمتد هنا وتنتشر ، قد وَحَّد الحب بينها وجمعها على غاية سامية واحدة .

— ١٠٣ —

من لم يعشَق ، يستطع أن يتعلم هنا هذه الحكمة ، وأن يجعل من قلبه روحاً ملائكية ؛ ومن يعرف هذا السر الكريم ، يزدد هنا حبا ؛ لأن ها هنا مأوى الحب ، أوى إليه بعيداً عن مضايقات الناس وهموم الدنيا ؛ لأن من طبع الحب أن ينمو أو يموت ؛ وليس فى وسعه أن يظل ساكنا غير منفعل ؛ إنه يتضاءل أو يسمو إلى سعادة خالدة لا حد لها ، تنافس الأنوار الخالدة فى خلودها .

— ١٠٤ —

إن روسو لم يختر هـذا المكان الذى ملأه بألوان العواطف والغرام ، من أجل القصص والخيال ؛ لكنه رأى فيه المسرح الذى يجب أن يهبه الوجدان لكائنات الخيال الطاهرة . هنا حلّ

الإله الطفل حزام پسيشيه (١) ، وجعل منها إلٰهة جديدة . أيتها الوحدة العميقة الرائعة ، إنك تسحرين كل الحواس ! هنا بسط الرون مجراه ، ورفعت جبال الألب عرشها .

— ١٠٥ —

وأنتِ يا لوزان ، وأنتِ يا فرنيه (٢) ! لقد كنتما مقاماً لأسماء وهبتكما اسما وشهرة . لقد رحبتما بفانيين بحثاً عن طريق الشهرة والمجـــد الخالد متخذين سبلا وعرة : لقد كانا عقلين جبارين ، وكان هدفهما البعيد أن يفعلا ما فعله التيتان ، فيهاجما السماء من جديد بأفـكار جريئة وشكوك مُلْحِدَة كان من شأنها أن تصب على رؤوسها صواعق السماء ، لو كان الإنسان وتجديفاته يلقى من السماء شيئاً أكثر من الابتسام العريض .

— ١٠٦ —

أحدهما كان هوائياً قُلَّباً ، كله شعلة نار ، كالطفل لا يستقر عند رغبة ؛ ولـكنه موهوب عقلا متشعب الأفق ، حينا سعيداً وحينا آخر حزيناً ، تلهمه الحـكمة تارة والجنون طوراً آخر ؛

---

(١) پسيشـيه ، حورية بنى بها كيوپيد وحملها إلى مكان مبارك ، استطاعا فيه أن ينعما سويا ولـكن ڤينوس أعـدمتها ، لأنها حرمت العالم من ابنها ؛ غير أن چوبتر ، بناء على توسل كيوپيد ، وهبها الخلود .

(٢) لوزان قد عاش بها چبون ، المؤرخ الإنجليزى المعروف ؛ وفرنيه قد سكنها ڤولتير ، الـكاتب الفيلسوف الفرنسى المشهور .

وكان مؤرخاً وشاعراً وفيلسوفاً معاً ؛ فتكاثر وسط بنى الإنسان ، حتى كان مجمعاً للمواهب ؛ لكنه برّز خصوصاً فى التهكم الذى يقلب كل شيء فى طريقه ، مثله مثل الريح الهوجاء تقلب كل شيء حيث تشاء : فحيناً يهاجم الحماقة ، وحيناً آخر يزلزل العروش .

— ١٠٧ —

أما الآخر فكان عميقاً بطيئاً ، مستغرقاً فى طويل التفكير ، قد كرس حياته الحافلة المُجدّة لخدمة الحكمة ؛ وكان عاكفاً على التأمل ، غنياً بالعلم ؛ قد هيأ له سلاحاً ذا حدٍ ماض قاس ، يقوّض صرح عقيدة راسخة بسخرية جديدة . أجل ، لقد كان رب السخرية ، هذه التميمة السحرية التى كانت تثير ثائرة قلوب أعدائه ومخاوفهم ؛ فكانوا ينتقمون لأنفسهم منه بإبعاده بالنار والجحيم : هذه الحجة الكبرى عند الأتقياء المؤمنين ضد كل شكوك الملحدين .

— ١٠٨ —

لكن ، سلام على أرواحهما ! فإن كانا قد استحقا نقمة السماء ، فإنهما يتعذبان . وليس من حقنا نحن أن نحكم فى أمرها ؛ وبالأولى أن نحكم عليها بالإدانة . وستأتى الساعة التى تعلم فيها مثل هذه الأشياء للجميع . إن الرجاء والخوف يرقدان سوياً فى تراب القبر ؛ وحينما تعود الحياة ، كما نعتقد ، كيما نحيا من جديد ،

فسنعاقب بالقسطاس ، أو تغفر لنا ذنوبنا .

— ١٠٩ —

لكن دعنا من أعمال الإنسان ، كيما نتأمل أعمال خالقه المنتثرة من حولنا ؛ ولنقف هذه الصفحات التى أغذيها بالكثير من أحلامى ، حتى لتبدو من غير نهاية . إن السحب المتجمعة من فوق رأسي ذاهبة لكى تتوج قمم الألپ ؛ ولا بد لى أن أنفذ فيها ، وأن أتأمل كل ما يستطيع بصرى الكشف عنه ، بينما أصعد هذه الأقاليم العليا التى تتلقى عندها الأرض معانقات قوى الهواء .

— ١١٠ —

إيطاليا ! أى إيطاليا ! عند ما أراك ، أشعر بأن بهاء القرون الماضية قد أضاء فأذهل روحى ، منذ أن أوشك القرطاجنى[1] القاسي على الاستيلاء عليك حتى الهالة الأخيرة من الزعماء والحكماء الذين يمجدون تاريخك المقدس . لقد كنت عرش الأمبراطوريات وقبرها . واليوم لا يزال الظمآن إلى الينبوع الذى يحوى العلم والعرفان يسعى إلى الينبوع الخالد فى الروابى السبع التى تضمها روما فى أحضانها .

---

(١) هانيبال .

— ١١١ —

لـكنى أقطع هنا حديثا اتصلت فِقَرُه تحت فألٍ غير سعيد : إن شعورنا بأننا لم نعد بعدُ ما كنا عليه ، وإحساسنا بأننا لسنا كما يجب أن نكون ، وتسليحنا القلب ضد نفسه ، وإخفاءنا بحذر متفاخرٍ الحب أو الكراهية ، أو الغضب أو الرقة ، أو الغَرَض أو الأحزان أو الحماسة — مما يجعل الفكر فى استعباد مستمر — ؛ كل هذا عمل شاق للروح . لكن لا عَلَيَّ ؛ فقد جرّبت حظى .

— ١١٢ —

وهذه الكلمات المنظومة فى أغنية قد تكون حِيلة بريئة : نوعاً من التلوين للمناظر التى تجلّت أمامى ، والتى وددت امتلاكها عابراً من أجل أن أسحر قلبى وقلوب الآخرين لبرهة من الزمان . إن الشهرة عطش الشباب ؛ ولكنى لست من الشباب بالدرجة التى أنظر فيها إلى ابتسام الناس أو عيوبهم كنوع من الفقدان أو الظفر بقسط من المجد . لقد وقفت دائماً وحيداً ، وهأنذا أقف اليوم وحيداً ، — مذكوراً أو منسياً .

— ١١٣ —

لم أحببْ العالَم ، والعالَم لم يحببنى ؛ ولم أتملق يوماً رُتَبه ومظاهره ؛ ولم أركع أمام معبوداته بركعة صابرة خاضعة ؛ كما أنى لم أقسر خدى على الابتسام ، ولم أدخل فى زمرة المتملقين الذين يعبدون صدى . بل لقد كنت فى مُحْتَشَد الناس غريبا وسطهم ؛

لقد أقمت بينهم ، لـكنى لم أ كن واحداً منهم ؛ لقد تلفعت بثوب من أفكار ليست من أفكارهم ، ولا يمكن أن تكون منها إلا إذا كنت سلكت عنقى فى عِقْدهم وأخضعت روحى هكذا لنفوسهم .

— ١١٤ —

لم أحبب العالَم ، والعالَم لم يحببنى ؛ لـكن لنفترقْ كعدوين كريمين . وبودى أن أومن ، على الرغم مما أثبتته لى التجربة ، بأن ثمة كلمات هى أشياء ، وآمالاً لا تخدع ، وفضائل رحيمة لا تنصب الحبائل للضعفاء . وبودى أيضاً أن أومن بأن ثمة مصائب يحنو عليها الآخرون بإخلاص[1] ؛ وبأن ثمة على الأقل رجلين أو ثلاثة هم تقريباً كما يظهرون أمام الناس ؛ وأن الخير ليس مجرد كلمة ، ولا السعادة حُلْما .

— ١١٥ —

أى بنيتى ! باسمك بدأت هـذا النشيد ؛ وباسمك أيضا ، أىْ أدا العزيزة ، سأختمه . إننى لا أراك ، ولا أسمع لك ، لـكن لا يوجد مخلوق قد تصور نفسه فيك غيرى ؛ أنت الصديقة التى يمتد إليها الظل ، ظل سنواتى المقبلة ؛ على الرغم من أنك قد

(١) قال لاروشفوكو : « فى محن أعز أصدقائنـا يوجد دائما شىء لانعافه » (بيرن)

لا ترين جبيني [١] . فإن صوتي سيتردد في أحلامك ، وسيبلغ قلبك ، حينما يكون قلبي قد غاض منه الدم . أجل ، ستسمعين نغمات عذبة تتهادى إليك من رُفات أبيك .

— ١١٦ —

أواه ! أن أشارك في تنشئة روحك ، وأراقب مطلع فجر مسراتك الطفولية ، وأتأمل كيف تكبرين ، وأنظر إليك وأنت تتلقفين العلم بالأشياء والأحياء التي تتبدى لك حينئذ عجائب ومعجزات ؛ وأن أهدهدك برفق على ركبتيّ ، وأطبع قبلة أبوية على شفتيك الناضرتين — كل هذا لم يكن مقدّرا لي . ومع هذا فإنه من طبعي ؛ وعلى ما أنا عليه الآن لا أدرى ماذا في نفسي ، لكني استشعر بها شيئا من هذا القبيل .

— ١١٧ —

نعم ! حتى لو علموك كراهيتي كواجب عليك أداؤه ، فإنني موقن بأنك ستحبينني ؛ وعلى الرغم من أن اسمي لن يذكر أمامك وسيحرم ذكره عليك ، وكأنه كلمة من تلك الكلمات السحرية الجالبة للشقاء ، وكلقب غير جدير بالاحترام ؛ وعلى الرغم من أن القبر سيغلق عليّ من دونك ، فكل هذا سواء ، فإنني موقن

---

(١) انفصلت ليدى بيرن عن زوجها في منتصف يناير سنة ١٨١٦ ، وسنّ أدا خمسة أسابيع . وفي ٢٥ أبريل سنة ١٨١٦ ، غادر بيرن انجلترا الى غير رجعة أبدا . فكأنه لم ير ابنته اذن بعد هذا الرحيل من بلاده .

بأنك ستحبيننى ؛ وحتى لو حاول امرؤ أن يستنزف دمى من شرايينك ، فإنه سيبوء بالفشل التام ، فإنك أيضا ستحبيننى ، وستتعلقين بهذا الدم أكثر من تعلقك بالحياة .

— ١١٨ —

أنت ابنة الحب ، رغم أنك وُلدتِ فى أيام المرارة ، ونشأت فى أحضان القطيعة والعذاب . لقد كانت هذه عناصر أبيك ، كما كانت أيضا عناصرك أنتِ الأخرى ؛ وإذا كنت تحيين فى مثل هذا الوسط ، فإن نارك مع هـذا ستكون أهدأ ، وأملك أسمى . فسلام على مخدعك الذى به ترقدين ! بودى أن أرسل إليك ، من فوق البحر ومن أعلى الجبال التى استروح الآن نسيمها ، هذه التحيةَ المباركةَ التى تحمل من السعادة بقدر ما أدين إليك منها : هكذا أقول لنفسي زافرا .

النشيد الرابع

« رأيت تسكانيا ولمبارديا ورومانيا ،
وذلك الجبل الذى يفصل ويضم أجزاء إيطاليا ،
والبحر الذى تسبح فيه »

أريوستو ، الأهجية الثالثة

— ١ —

وقفت على جسر الزفرات [١] فى البندقية ، وعلى جانبىّ قصر وسجن ؛ ورأيت المدينة تنبثق وسط الأمواج وكأنها برزت فجأة بفعل عصا ساحر . وعشر قرون تنشر أجنحتها الكابية حوالىّ ، ومجد محتضَر يبسم لتلك الأيام الخالية ، التى نظرت فيها بلادٌ خاضعة عدة إلى الأعمدة المرمرية للأسد ذى الجناح [٢] ، حين كانت البندقية تجلس على عرشها الرفيع وسط جزرها المائة .

— ٢ —

إنها تبدو كعرّافة بحر ، قد انبثقت من المحيط منذ قليل ، وعليها تاج من الأبراج الشامخة المتصاعدة فى أجواز الفضاء ، وهى تتهادى بجلال ، كسيدة للمياه وقواها : وقد كانت البندقية

(١) جسر الزفرات جسر يمتد من قصر الدوج إلى سجن الدولة . وقد سمى بهذا الاسم لأنه كانت توجد عليه غرفة يخنق فيها من يحكم عليهم بالاعدام .

(٢) هذا الأسد ، هو أسد القديس مرقس ، شفيع مدينة البندقية .

هكذا من قبل حقا . لقد كانت بائنة بناتها تؤخذ من غنائمها من كل الأمم ، والشرق الذى لاتنفد له ثروة ، قد صب فى صدرها كل الجواهر التى انهمرت عليها كالأمطار البرّاقة . وهى قد تدثرت بالأرجوان، ودعت إلى أعيادها الملوك والحكام ، وأغدقت عليهم ما زاد فى مقامهم ومكانتهم .

— ٣ —

إن أصداء تَسُّو [١] لم تعد تتردد بعد فى البندقية ، وصاحب الجُنْدول الذى طالما كان يتغنى بأشعاره يجدّف اليوم فى صمت . وقصورها تتداعى فوق الساحل ، ولم تعد الأذن تلقى الموسيقى هنا إلا نادراً . آه ! لقد انقضت تلك الأيام — ولكن الجمال لا يزال ها هنا . إن الدول تسقط ، والفنون تحول — ولكن الطبيعة لا تموت ، بل ولا تنسي كيف كانت البندقية من قبلُ عزيزة ، حتى كأنها القصر السعيد لكل احتفال ، وأكثر مدن الأرض مرحاً ، وكرنفال إيطاليا .

— ٤ —

لكنّ للبندقية فى قلو بناسحراً أروع من اسمها الذى خلده التاريخ كما مجّدته هذه السلسلة الطويلة من الأبطال البارزين

(١) كان رجال الجندولات فى عهد جمهورية البندقية يتبادلون إنشاد فقرات من كتاب تسّو ، الشاعر الإيطالى ، الكبير ، «أورشليم المحرّرة» فكان كل جندولين يتجاوبان الإنشاد . وقد سمع بيرن وهو فى البندقية بعضا من هذه الأناشيد .

الذين تحلق أرواحهم حزينة على أطلال المـدينة التى فقدت دوجاتها . إن غناءنا لا تنتهى بانتهاء ريالتو : فان شيلوك ، والمرا كشي[1] وبطرس لا يمكن أن يفنوا فى سيل الزمان . إن هؤلاء أحجار الزوايا فى هذا البناء ؛ وعلى الرغم من أنهم بادوا أجمعين ، فإن شاطئهم المهجور لايزال فى نظرنا عامراً بساكنيه .

— ٥ —

إن أبناء العقل ليسوا من الطين ؛ إنهم خالدون بطبعهم ، ولذا يخلقون وينشرون شعاعاً يزداد تلألؤاً ، ويبعثون حياة أغلى وأعز . فـكل ما يحرّمه القدر على الحياة الرتيبة فى عبوديتنا الإنسانية ، تهبنا إياه هذه المخلوقات الخيالية ؛ إنها تطرد أولا ما تعافه نفوسنا من أشياء ، وتستعيض عنها بأن تصب فى قلوبنا الشابة ، التى ذبلت كلّ أزهارها الأولى ، نَضرةً جـــديدة تملأ فراغها .

— ٦ —

ذلك ملاذشبابنا وشيخوختنا : ملاذالأول من الأمل ، وملاذ

---

(١) كان فى البندقية ثلاثة أماكن تسمى باسم ريالتو : جزيرة ، وموضع استبدال النقود ، والجسر القائم فوق القنال الـكبير . والـكلمة منحوتة من كلمتين : ريفا ، وألتو ، أى الساحل العالى .

أما المرا كشى فهو بطل ، رواية شكسبير بهذا الاسم ؛ وشيلوك أحد أبطال رواية : « تاجر البندقية » لشكسبير أيضا ؛ أما بطرس فـكان بطل رواية « البندقية المصونة » تأليف أوتوى .

الشيخوخة من الفراغ . وهذا الشعور الجريح يملأ عدة صفحات ؛ ولعل منها هذه التى تنمو الآن تحت عينىّ . ولكن ثمة مع هذا أشياء تفوق قوةُ حقيقتها بهاء بلادنا الخرافية التى نخترعها بخيالنا ؛ إنها ذوات أشكال وألوان يفوق جمالُها جمال سمائنا الخيالية ، وجمال هذه الكواكب الغريبة التى برعت الموسا فى نشرها فوق عالمها الوحشيّ .

— ٧ —

لقد رأيتها ، أو لعلى أكون قد حلمت بها ؛ لكن دعنا من هذا ! فقد تبدّت أمام عيونى وكأنها الحقيقة ، ثم اختفت كالأحلام . وفى وسعى ، لو شئت ، أن أستبدل بها غيرها . ففى استطاعة عقلى أن يبتكر أشكالا مشابهة لتلك التى نشدتها ، ووجدتها أحياناً . لكن دعها أيضاً تسلك سبيلها هى الأخرى ؛ فان العقل وقد استيقظ فى نفسي ، يعتبر هذه الخيالات المَزْهوة المغرورة غير لائقة ولاسليمة ، وثمة أصوات أخرى تتحدث إلىّ ، وموضوعات أخرى تحيط بى .

— ٨ —

لقد تعلمت لغات أخرى ؛ ولم أَعُدْ غريباً فى بلاد ليست وطنى ؛ والعقل الذى يعرف كيف يكون مخلصاً لذاته ، لايُدهَش من أى تغير يلاقيه ، وليس من العسير عليه أن يجد وطناً به ، أو ليس به ، إنسان. ومع هذا فقد ولدتُ فى بلد يفخر الناس بأنهم

من أبنائه — ولهم الحق فى هذا . فاذا كنت قد هجرت هذه الجزيرة إلى الأبد ، موطن الحكمة والحرية ، وإذا كنت أنشد وطناً آخر وراء البحار . . .

— ٩ —

فلعلى قد أحببته كل الحب ! وإذا وضعتُ رفاتى فى أرض أجنبية ، فان روحى ستعود إلى وطنى ، إذا كانت الروح ، بعد انفصالها عن البدن ، تستطيع أن تختار لها مقاماً . وإنى لأناغى الأمل فى أن أُذْكر على لسان ذريتى بلغتى الأصلية . لكن إذا كانت هذه الأمانى عزيزة المنال بعيدة المجال ؛ وإذا كان مجدى مثل سعادتى ، سريع الإضاءة والانطفاء ؛ وإذا كان النسيان الكئيب الكالح سيمحو . . .

— ١٠ —

اسمى من المعبد [1] الذى يُبَجَّل فيه الموتى جميعُ الأمم — فليكن! ولتزيِّنْ أكاليل الغار جبيناً أسمى من جبينى ، ولْيُنْقَشْ على قبرى رثاء هذا الأسبرطى : « لقد كان لأسبرطة أبناء خير منه » . [2] ومع هذا فلست أسعى ، بل ولست فى حاجة إلى

---

(١) هذا المعبد هو وستمنستر أبى ، حيث يدفن عظماء الانجليز .

(٢) « هذا جواب أم براسيداس ، القائد الاسبرطى (الذى مات فى ساعة النصر ، سنة ٤٢٢ ق . م) ، للأجانب الذين مدحوا ذكرى ابنها » (بيرن) .

أى عطف . إن الأشواك التى اقتطفتها قد نبتت على الشجرة التى غرستها : وقد مزقت قلبي وأسالت منه الدماء ؛ وعلىَّ أن أعلم أى ثمار ستنتجها مثل هذه البذور .

— ١١ —

إن الأدرياتى الأرمل لينوح اليوم على زوجته ؛ وزواجه السنوى لم يعد يتجدد الآن ، والبوسنتور يعفن كالثوب الخَلَق (١) . والقديس مَرْقُس لا يزال يرى أسده فى نفس المكان الذى كان يحتله من قبل ، ولكنه صار أضحوكة فى يد قوته المتداعية ، فى ذلك الميدان الذى ظهر فيه أمبراطور متضرّعاً ، بينما نظر الملوك مشدوهين حاسدين إلى البندقية حين كانت ملكية غنية ذات بائنة لا مثيل لها .

— ١٢ —

لقد ذَلّ الملك الشقابنى (٢) ، حيث يسود اليوم الملك

---

(١) كانت البندقية فى صف البابا فى نزاعه مع فريدرش بربروسا (الذى يشير اليه بيرن هنا بقوله : الامبراطور ، والشقابنى ، نسبة إلى إقليم اشفابن فى جنوب ألمانيا) . فأهداها البابا ، جزاء خدماتها ، خاتما ذهبيا يكون خاتم خطبتها إلى البحر الأدرياتى ، كتذكار لعظمتها البحرية . فكان يقام احتفال سنوى بمراسم هذه الخطبة والزفاف ، بأن يلقى الدوج بخاتم فى الأدرياتى ، وهو على ظهر السفينة المدعوة باسم بوسنتور . وقد منعت هذه العادة منذ أن أصبحت البندقية جزءاً من الامبراطورية النمساوية فى سنة ١٧٩٨ .

(٢) هو فريدرش بربروسا ، دوق اشقابن ، امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وقد وقع فى =

النمساوى ! إن امبراطوراً يطأ بأقدام متعجرفة أرضاً ركع عليها إمبراطور آخر . إن الممالك تصير مقاطعات بسيطة ؛ والأغلال تصفد مدناً كانت ذات الصولة والسلطان ؛ والأمم تهوى من ذروة المجد : فبعد أن تلألأت مدة فى شمس المجد ، هوت دفعة واحدة إلى الحضيض كثلاجة انحلت من حزام الجبال . أوه ! ألا ليت ساعة أخرى لدَنْدولو[1] العجوز الأعمى ! ألا يُبعث هذا السيد الذى بلغ الثمانين ، هذا الذى فتح القسطنطينية !

— ١٣ —

إن جياده البرُنْزية[2] لا تزال تلمع أمام باب سان مركو ، وعقودها الذهبية تعكس أشعة الشمس الزاهية . لكن ، ألم يتحقق وعيد دوريا[3] ؟ ألم توضع اللُّجُم فى جياده ؟ إن البندقية ، وقد

نزاع مع البابا اسكندر الثالث . ولكنه هزم واضطر للخضوع لهذا البابا خضوعا مهينا علنيا يكون حادثة من أشنع الحوادث التاريخية ، إذ اجتمع البابا اسكندر الثالث فى بهو كنيسة القديس مرقس ومن حوله كبار رجال الكنيسه ، وتقدم نحوه الأمبراطور فردريك ، والقى كل مظاهر أبهته الأمبراطورية ، وخلع معطفه ثم سجد بكل جسمه تحت أقدام البابا . فرفعه اسكندر برفق من الأرض ، وقبله ، وباركه .

(١) دنرولو الشيخ الأعمى كان من كبار دوجات البندقيـة ، وقد استولى على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ .

(٢) الجياد البرنزية الأربعة الموجودة أمام كنيسة القديس مرقس ، وقد أحضرها دندولو من القسطنطينية بعد استيلائه عليها .

(٣) كانت البندقية فى نزاع طويل مع جنوة ، حتى اضطرت إلى طلب الصلح سنة ١٣٧٩ ، فأجاب دوريا ، زعيم جنوة بهـذا الجواب :

نهدت وكسبت ، قد انتهت الثلاثة عشر قرنا التى نعمت فيها بالحرية ، وغرقت هى كالنبتة البحرية تحت الأمواج التى انبعثت هى منها . وخير لها أن تغرق تحت الأمواج ؛ وأن تفر من أعدائها حتى وهى فى أعماق الخراب ، هؤلاء الأعداء الغرباء الذين إن خضعت لهم ودانت ، جللوها بعار ولم تنشد الراحة إلا فى الذل والقماءة .

— ١٤ —

لقد كانت فى شبابها مجللة بأكاليل المجد ، حتى كانت صور [١] أخرى ؛ فكانت الكلمة المشهورة فيها مأخوذة عن النصر : « حاملة لواء الأسد » ، [٢] هذا اللواء الذى حملته خلال الدم والنار فوق الأرض وعلى متون البحار . وفى كل حين كان تستعبد أمة جديدة ، دون أن تفقد حريتها ؛ كما كانت درعاً يحمى

« أقسم بالله يا أهل البندقية ، أنكم لن تحصلوا على سلام . . . قبل أن نضع لجما فى جيادكم المطلقة العنان » . ولكن الحظ أسعف البندقية فانتصرت ، وقتل دوريا ، وهزمت جنوة أشنع هزيمة ، حتى اضطرت إلى طلب الصلح .

(١) كانت صور أول امبراطورية بحرية كبرى فى التاريخ .

(٢) قال بيرن فى التعليق : « حاملة لواء الأسد » ، أى أسد القديس مرقس ، لواء الجمهورية ، ومنه أتت الكلمة پنتالون ، وپنتاليون الخ » . ولكن هذا الاشتقاق موهوم غير صحيح ؛ إنما أتت هذه الكلمة المعبر عنها بهذا القول : حاملة لواء الأسد ، من اسم « القديس پنتاليون » القديس الشفيع لمدينة البندقية ؛ ومن هنا صار اسم پنتاليون لقبا على كل بندقى .

أور با من العثمانيين . وإنى لأستشهد على هذا بكانديا [(١)] ، منافِسة طروادة ، وأنتِ أيتها الأمواج الخالدة التىشاهدت معركة ليپانتو ، فتلك أسماء لن يمحوها الزمان ولا الطغيان .

— ١٥ —

إن دوجاتها الغابرين قد صاروا فى التراب كأنهم تماثيل من الزجاج قد حُطّمت . لكن مساكنهم هنا من قصور شامخة فاخرة تتحدث عن مجدهم التالد العريق . وإن صولجانهم المحطم وسيفهم المغطى بالصدأ قد سَلّما للغازى الأجنبى . وإن قصورها الخاوية ، وشوارعها الضيقة والوجوه الغريبة التى تذكرها بمن هم الناس الذين استعبدوها ، كل هذا قد أرخى سحابة كابية موحشة فوق أسوار البندقية العزيزة .

— ١٦ —

حينما صرعت جيوش أثينا فى سَرَقوسة ، وتحمل الآلاف المغلولون نير الحرب ، جاء الخلاص من الموسا الأتيكية ، فكانت

---

(١) كانديا ، مدينة فى جزيرة كريت ، دافع عنها أهل البندقية ضد الأتراك لمدة أربع وعشرين سنة (١٦٤٥ — ١٦٦٩) ؛ ولذا أطلق عليها هنا لقب منافسة طرواده التى حوصرت عشر سنوات .

أما معركة ليپانتو فمعركة بحرية مشهورة وقعت فى مدينة ليپانتو بالقرب من مدخل خليج كورنثوس سنة ١٥٧١ بين الأسطول التركى والأسطول المشترك للدول المسيحية فى البحر المتوسط ، تحت قيادة دون چون النمساوى . وقد شاركت البندقية بنصيب كبير فى هذه المعركة .

أغانيها فِدْيتهم الوحيدة بعيداً عن بلادهم . انظر ! حينما يتردد نشيدهم الحزين ، تتوقف عربة الظافر المدهوش ، فيسقط من يده اللجام والسيف الذى لا يعمل شيئاً آنذاك ، و إذا به يفك أغلال الأسرى ، و يأمرهم بأن يشكروا للشاعر أشعاره التى وهبتهم الحرية (١) .

— ١٧ —

وهكذا ، أىْ مدينة البندقية ! حينما لا تكون حقوقك ثابتة قوية ، وتكون انتصاراتك التاريخية قد نُسيت، سيكون فى وسع ذكرى شاعرك المحبوب ، وحبك لتسُوَ أن يُحطِّما الأغلال التى قيدك بها الطغاة . إن محنتك عار على الأمم الأوربية ، وعار عليك خصوصاً ، أىْ ألبيون ! أوَ يخلق بملكة البحار أن تتخلّى عن أبناء البحار ؟ لعل سقوط ڤينيسيا أن يجعلك تفكرى فى سقوطك ، بالرغم من أسوارك الحصينة من الأمواج .

— ١٨ —

لقد أحببتُ البندقية منذ نعومة أظفارى ، فكانت لقلبى مدينة ساحرة ، تنبثق وسط الأمواج كقصر فى البحر أو كعمود من الماء ، وكانت مأوى للسعادة وملتقى لأنواع الثراء . وفن أوتوبى

---

(١) « راجع هـذا التاريخ فى حياة نقياس التى وضعها فلوطرخس » (بيرن) .

ورادكلف وشلر وشكسبير[1] قد طبع صورتها فى نفسي . وعلى الرغم من أنى رأيتها حين رأيتها على هذه الحال البائسة ، فإن حبى لهـا لم يتناقص ؛ بل لعلها اليوم فى أحزانها أن تـكون أعز منها حينما كانت مفخرة وفتنة وعجيبة من العجائب .

— ١٩ —

فى وسعى أن أسـكن الماضي فى البندقية ، وقد بقى لها من الحاضر ما يكفى لـكى يلذ العين والفـكر والتأمل الحزين : بل لعل فيهـا أكثر مما نشدت وأملت أن أجده فى البحار . إيه يا ڤينيسيا الجميلة ! إن شطراً من أسعد لحظات حياتى ، يدين لك بألوانه ؛ وإذا لم تـكن ثمة عواطف لا يخنقها الزمان ، ولا يزعزعها الألم ، إذن لـكانت عواطفى كلها باردة خرساء .

---

(١) توماس أوتوى (سنة ١٦٥١ أوسنة ١٦٥٢ — ١٦٨٥) ، مؤلف مسرحى انجليزى ، ولد بالقرب من هرست فى سسكس ، ودرس فى اكسفورد . وكانت حياته القصيرة عامرة بالبؤس والفقر ، حتى ليقال إنه مات جوعا . وقد بدأ حياته كممثل ، فلما فشل أصبح مؤلفا مسرحيا ، وله عدة روايات منها دون كارلوس ، وأمير اسبانيا ، والبندقية المصونة الخ . وكان يمتاز بوصف العواطف الحادة واستثارة أشد الأحزان والدموع .
أما مس آن رادكليف (سـنة ١٧٦٤ — ١٨٢٣) فمؤلفة روائية انجليزية ، كتبت « قصة فروسية فى صقلية » ، « قصة فروسية فى الغابة » « الايطالى » الخ . وتمتاز بوصف المناظر المريعة ، وقوة الخيال .
أما شلر فمعروف ، والاشارة هنـا إلى قصة « العرّاف » ؛ وكذلك شكسبير ، والاشارة هنا إلى « تاجر البندقية » و « عطيل » .

— ٢٠ —

فى جبال الألپ تنمو أشجار الصَّنَوْبر البالغة العلو، خصوصاً فوق أكثر الصخور قحولاً وتجرُّدا، حيث لا يوجد ثمة فى باطن الأرض ما يحميها ضد صدمات العواصف المهتاجة التى تهاجم هذه الجبال؛ لكن جذوعها الخضر تهزأ دائماً بالعاصفة العادية، وتعلو حتى تبلغ درجة تليق بالجبال التى أعطت صخورُها القاحلة الغبراء الحياةَ لهذه الأشجار، حتى صارت دوحاً عملاقا — وهكذا أيضا يمكن أن تنمو الروح.

— ٢١ —

إن الحياة والألم يمدان جذوراً عميقة فى القلوب البائسة القاحلة المتوحدة: وإن الجمل ليحمل أفدح الأثقال دون تململ ولا شكاة، والذئب يستطيع أن يموت فى صمت. هذه أمثلة لم تعط عبثا: فإذا كان الحيوان ذو الطبع الدنىء أو الوحشي يتألم بصبر وجَلَد، أفليس فى وسعنا، نحن الذين بُرِئنا من طين أنبل، أن نحتمل الحياة؟ إنها ليست غير يوم.

— ٢٢ —

كل ألم يحطِّم مَن يتألم أو هذا يحطّمه؛ وفى كل حادثة ينتهى. فالبعض منا يُحْييهم أمل جديد، فيعودون من حيث أتوا ويُذيبون إلى أحلامهم الأولى، مثلهم مثل العنكبوت يجدد نسيجه بعد أن يمزَّق؛ والبعض الآخر يحنى رأسه بذلة وخضوع،

فريسةً لشيخوخة مبكرة ، فتذبل زهرته قبل الأوان ، ويفنى مع العود الذى اعتمد عليه؛ وفريق ثالث ينشد السلوى فى التقوى أو العمل أو الحرب أو الفضيلة أو الرذيلة ، وفقاً لطبيعة نفوسهم من حيث كونها جُبِلت على الانحدار أو على الصعود .

— ٢٣ —

لكن عبثاً يروض المرء آلامه ؛ فإن لها دائماً آثاراً كآثار حُمَة العقرب ، لا تكاد تُرى ولكنها مليئة بمرارة جديدة . وقد تُحمّل الأشياء التافهةُ القلبَ بأوزار كان يود أن يتخلص منها إلى الأبد : فقد يكون فى وسع صوتٍ أو نغمة موسيقى أو أمسية صيف أو ربيع أو زهرة ، أو ريح ، أو محيط ، — قد يكون فى وسع واحد من هذه الأشياء أن يفتح الجرح من جديد ، وأن يهز السلسلة الكهربية التى تصفدنا بحلقاتها الخفية ؟

— ٢٤ —

ما السر فى هذا ! لسنا ندرى ؛ ومن المستحيل علينا أن نكتشف أصل هذا البرق الذى يصيب النفس ؛ إنما نحن نشعر بضرباته الجديدة ، دون أن نقدر على محو الأثر الأسود المؤلم الذى يتركه من خلفه . إنها ضربات غادرة قتالة تصيب فى اللحظات التى تكون أقل ما يكون حسباناً لوقوعها ، ووسط أكثر الأشياء ألفة لنا وحدوثا ، فتثير عندنا أشباحاً وأرواحاً لا تستطيع أية تعزية أن تقتنصها — القلوب الباردة ، الأصدقاء الذين

تغيّروا ، وربما الموتى أيضا ، ومن نبكيهم ، ومن أحببناهم وفقدناهم — آه ما أكثرهم ، ومع هذا فما أقلهم !

— ٢٥ —

لكن روحي قد ضَلّت ؛ وهأنذا أدعوها من جديد كيما تتأمل هذه الأطلال ، وتقوم طللاً وسط أطلال ، حتى تستعيد ذكرى دول دالت وعظمة انقبرت ، فى بلاد كانت فى ذروة القوة أيام مجدها العتيق ، ولا زالت تأسر النفوس بجمالها وستظل هكذا أبدا ؛ بلاد هى النموذج الأعلى الذى كان فى يد الطبيعة السماوية ، فصنّع فيها الأبطال والأحرار ، وذو الجمال والشجعان ، وسادة الأرض والبحار ،

— ٢٦ —

وجمهورية الملوك ، ومواطنو روما . ومنذ ذلك العهد ، أىْ إيطاليا الجميلة ، كنتِ دائماً وما زلت أيضاً جنة الدنيا وفردوس الوجود ، ومأوى الفن بكل ما يستطيع إبداعه والطبيعة بكل ما فى وسعها أن تهبه . بل من ذا يستطيع أن ينافسك حتى فى وحشتك اليوم ؟ إن أعشابك نفسها جميلة ، وقحول أرضك أثمن من خصوبة بقية الأراضي ؛ وإن أطلالك لأمجاد ، ولخرائبك سحراً بكراً لا يستطيع أن يفضه أحد !

— ٢٧ —

أشرق القمر ، ومع هذا فليس الليل بعد . وإن الغروب

ليتقاسم معه السماء ؛ وإن بحراً من البهاء ليفيض على طول الأعالى الزرقاء لجبال فريولى . والسماء خالية من السحاب ، لـكنها تبدو مصبوغة بعديد الألوان ، حتى لتتراءى وكأنها قوس قزح عظيم يمتد نحو الغرب ، فيه يتصل النهار بالأبدية الماضية ، بينما من الجانب الآخر يحلق قرص ديانا الوديع فى الهواء الأزرق ، كأنه جزيرة الناعمين [١] .

— ٢٨ —

وبالقرب منه نجمة واحدة ، تسيطر مع القمر على نصف قمة السماء ؛ لـكن فيوض النور التى ترسلها أشعة الشمس تظل فوق أعالى الألب الريتية [٢] ، وكأن النهار والليل قد رفضا أن يسلم أحدهما للآخر ، حتى تأتى الطبيعة فتطالب بتنفيذ قانونها . وأمواج البرنتا تتلقى من ألوانهما مجتمعة ، صبغة من الأرجوان ذات لون وردى كلون الوردة الحديثة الميلاد ، تشع فوق تياره ، وتلمع فوقه ،

---

(١) كتب بيرن تعليقا على هذه الفقرة ما يلى : « قد يبدو هـذا الوصف خياليا أو مبالغا فيه فى نظر هؤلاء الذين لم يروا مطلقا سماء إيطاليا ولا سماء الشرق . غير أنى لا أقدم هنا إلا التصوير الدقيق لأمسية من أماسى شهر أغسطس ، كما شهـدتها بنفسى فى تجولاتى العديدة على شواطىء البرنتا » .

(٢) الألب الريتية جبال عالية فى شمال وغرب البندقية .

— ٢٩ —

وقد امتلأ بوجه السماء ، الذى يأتى من بعيد لينعكس على سطح الماء . وكل الأصباغ ، من الغروب الغنىّ بالألوان حتى النجمة الباهرة اللمعان ، تنشر فوقها اللونية الساحرة . وها هي ذى الآن تتبدل ؛ فينشر ظلٌّ شاحب معطفَه فوق الجبال ؛ والنهار الراحل يغنى كالدُّخَس الذى تعطيه كل حشرجة من حشرجات موته لوناً جديداً يزداد زهوًا ، حتى تأتى اللحظة الأخيرة فيموت و يصير كله أغبر .

— ٣٠ —

ما هذا القبر الذى يتبدى أمامى فى أرْكوا ، محلقاً فى الهواء ؟ إنه الناووس الذى ترقد فيه عظام عاشق لَوْرا (١) . إلى هنا يحجُّ كل من يعشق أغانى هـذا الشاعر العبقرى الذى أجاد التغنى بآلامه . لقد ولد كيما يمنح وطنه لغةً ، وينقذ بلاده من نير أعدائها المتبربرين القاسي : لقد سقى الشجرة التى حملت اسم محبوبته بدموعه الموسيقية الرائعة ، التى كفلت له الشهرة والخلود .

---

(١) عاشق لوْرا هو الشاعر الإيطالى المشهور فرنشسكو پترركه (سنة ١٣٠٤ — ١٣٧٤) . ولورا هى محبوبته ، وكانت فرنسية الأصل من أفينيون ، وزوجة هوجودى ساد ؛ وحينما رآها پترركه ، كانت سنه الثانية والعشرين ، وسنها العشرين ؛ وقد كرس أكبر أشعاره للتغنى بجمالها .

— ٣١ —

إن ترابه محفوظ فى أرْكوا ، حيث وافاه الحمام ، وحيث قضي الأيام الأخيرة من حياته هنا فى هذه القرية القائمة على سفح الجبال . وإن أهلها ليقدمون ، بفخر وكبرياء أمينة ، أمام أعين الزائر الغريب ، بيتَه وضريحه : وكلاهما بسيط ، لكنها بساطة تثير كل إجلال وتقديس ، حتى تبعث عاطفة أكثر انسجاماً مع أغانيه من تلك التى يثيرها هرمٌ يقام فوق قبره .

— ٣٢ —

والقرية الصغيرة الهادئة الناعمة التى سكن فيها ، ذات هيئة تبدى وكأنها صنعت من أجل هؤلاء الذين شعروا بفنائهم ، ونشدوا ملاذاً من آمالهم المحطّمة فى الظلال العميقة لخمائل مخضرة فوق الروابى ؛ وهى تُرِى منظراً بعيداً عن المدن الآهلة المكتظة بالأشغال والأعمال ، تلك المدن التى لا يستطيعَ بَهْرَجُها أن يغرى بعدُ أحداً من أصحاب هذه القلوب اليائسة . إن شعاعاً من الشمس الجميلة يساوى عندهم عيدا .

— ٣٣ —

إنهم يهيمون بالجبال والخمائل والأزهار ، والأشعة المتلألئة على سطح الجدول الهامس [١] ، الذى يلذ لهم أن يتناسوا عنده مرور الزمان السريع ، ويقضوا أياماً أصفى من البلّور الناصع ،

---

(١) يسمى هذا الجدول باسم جدول بترركه .

ويشعروا بالدعة والرخاوة ما وسعهم الشعور ، هذه الدعة المتبطلة التى قد تبدو فى نظر الناس تعطلا وبطالة ، ولكن لها مع هذا فلسفتها وقيمتها . ذلك أنه إذا كنا نتعلم من الجماعة كيف نعيش ، فإن الوحدة يجب أن تعلمنا كيف نموت . هنا ، فى الوحدة ، لا نشاهد متملقين ، والغرور لا يجد فيها مكاناً لتقديم معونته الزائفة . إن المرء حين يكون وحيداً لا يناضل إلا مع إلهه .

— ٣٤ —

أو لعله أن يناضل مع الشياطين الذين يأتون كيما يشنوا حربا شعواء على أحسن أفكارنا ، وينشدوا فريستهم فى القلوب المحزونة التى برئت من طينة كئيبة منذ ميلادها ، فَلَذٌّ لها أن تقطن الظلام والوحشة والكآبة ، ظانين فى أنفسهم أنهم قد فرض عليهم مصير من الأحزان السرمدية التى لا تنتهى أبد الدهر: فالشمس عندهم دماء ، والأرض قبر ، والقبر جحيم ، والجحيم هو الآخر أشد هولا مما يحسب الخيال .

— ٣٥ —

أىْ فِرَّارا ! فى طرقاتك الواسعة التى تنمو بها الأعشاب ، والتى يدل تنظيمها على أنها لم تصنع للوُحْدة ، يبدو كأن ثمة لعنة على مجالس السادة السابقين ؛ وخلال قرون رأت أسوارك أمراء بيت أست القديم ، حينا طغاة وحينا حُماة (وفقاً لأهواء الدول الصغيرة) ، حماة يشجعون هؤلاء الذين توّجوا بالغار الذى لم

يحمله من قبلهم إلا جبين داتنه .

— ٣٦ —

وإن تَسّو [١] مجدُهم وعارهم معا ! فسلام على هذا الشاعر الإلٰهى ! اسمع لقيثارته ! وتأمل ضيق الصومعة التى وضع فيها ! وانظر كيف دفع تور كواتو (تسّو) ثمنا فادحاً من أجل شهرته ، وكيف أمر ألفونسو شاعرَه بالسكنى : إن هذا الطاغية البائس لم يستطع أن يطفىء نار هــذه النفس المُهانة التى أراد الطاغيةُ أن يحشرها فى زمرة المجانين فى جحيم قذف بهم جميعاً فيه . إن مجده العظيم قد بَدّد السحب التى أحاطت به ؛

— ٣٧ —

وإن الدموع والمدائح لتقدم كل يوم وإلى الأبد إلى هــذا الاسم الخالد ، اسم تسّو . أما اسمك أنت يا ألفونسو ، فسيعفَن فى النسيان ، ويظل أبداً فى التراب الحقير ، وهو الشيء الباقى الوحيد من أُسْرتك المتكبّرة ؛ لـكن الحلقة التى وضعْتها فى كوارثه تحملنا على التفـكير فى مكرك الحقير ، وذكر اسمك باحتقار . أىْ ألفونسو ! أين الآن هذه الأُبَّهة التى أحاطت بك فوق العرش ؟

---

(١) توركواتو تسو ، الشاعر الايطالى المشهور (سنة ١٥٤٤ — ١٥٩٥) الذى ولد فى سورنتو فى ١١ مارس سنة ١٥٤٤ ، وقد درس فى جامعتى پادوڤا وبولونيا . ومن سنة ١٥٦٥ الى سنة ١٥٧٠ التحق ببلاط الملك ألفونسو ، حاكم فرّارا . لـكن أشيع أنه أحب أخت الملك ، فاتهم بالجنون ووضع فى مستشفى المجانين .

لو أنك قد ولدت فى طبقة أخرى ، لمــا كنت جديراً حتى بأن تــكون خادماً وعبداً لهذا الذى اضطهدته وسُمْته سوء العذاب .

— ٣٨ —

أنت ، أنت لم تخلق إلا لتأكل وتُحْتَقَر وتموت ، كالدواب التى تنفق ؛ ولا فارق بينك و بينها إلا أن علفك كان أثمن ، واسطبلك كان أشد سعة . أما هو ، هو ، فقد أحاطت به هالة رائعة من المجد ، وتكلل جبينه المغضّن بالأفكار بأكاليل الغار ؛ ونوره قد أضاء ولا يزال يضيء فى حضرة كل أعدائه : عصابة الكروسكا ، و بوالو هذا الذى نظر إلى أغانيه بغضب حاسد ، لأنهــا فاقت وأخجلت قيثارة وطنه الظاهرة النشاز ، التى تؤذى أصواتها الصارخة كلَّ الآذان ، أو تبعث على النوم بمــا فيها من اطّراد و إملال .

— ٣٩ —

سلام على روح توركواتو المُهانة ! لقد قدر له أن يكون هدفاً لسهام الحقد المسمومة إبان حياته و بعد مماته . لــكن لم يصبه منها سهم واحد . أنت يا من لم يفقك أحد من الشعراء المحدثين ! إن كل سنة تمضي تجدد الملايين من أبناء الأرض . لــكن كم من السنين سيمر وكم من الأجيال ستمضي موجاتها قبل أن تقدم لنــا عبقرية مثلك ؟ لو اجتمع الشعراءُ أجمعين وانضمت أشعتهم

المتفرقة فى ضياء واحد ، لما استطاعوا أن يكونوا شمساً جديرة بأن تقارن بك .

— ٤٠ —

لكن ، على الرغم من عظمتك ، فقد وجدتَ من ينافسك فى شخوص أسلافك من مواطنيك ، هؤلاء الذين تغنوا بالجحيم وبالفروسية . أولهم هذا التوسكانى الذى أبدع «الملهاة الإلٰهية» ؛ والآخر ، وهو لا يقل عن هذا الفيرنتسي (دانته) ، هذا الذى يشبه وولتر اسكوت من بين أهل الجنوب ، هو ذلك الشاعر الذى استطاع بنشيده الساحر أن يبدع خلقا جديداً ، كما استطاع ، مثل أريوستو الشمال ، أن يتغنى بالحب والغادات الحسان ، والتروبادور ومغامرات الفرسان .

— ٤١ —

إن الصاعقة قد انتزعت من تمثال أريوستو إكليل الغار المزيف الذى توَّجه ؛ ولم تكن نار السماء ظالمة فى هذا ، لأن إكليل الغار الحقيقى الذى يضفره المجد هو من تلك الشجرة التى لا يمكن الصاعقة أن تؤثر فيها . أجل ، لقد كان هذا الإكليل الزائف عاراً على جبينه . لكن ، إذا كانت الطيِّرَة تحزن أحد المعجبين به ، فليعلم إذن أن الصاعقة تقدِّس كلَّ ما تمسه ، وأن هذه الرأس مقدَّسة الآن أضعافاً .

— ٤٢ —

إيطاليا ! أىْ إيطاليا ! لقد أحرزتِ هبة الجمال القاتلة ، التى صارت بالنسبة إليك مصدراً لآلامك ومصائبك : الحاضرة منها والماضية . فعلى جبينك العذب طُبع الحزن الممزوج بالعار ، ونقشت أخبارك بحروف من نار ولهيب . أواه ، إلهى ! لماذا لم تخلقها أقل جمالاً أو أكبر قوة ، كيما تذود عن حقوقها وتدفع عنها اللصوص وقطاع الطرق الذين اندفعوا بعصاباتهم ليسفكوا دماءها ، ويشربوا دموع مصائبها ؟

— ٤٣ —

هنالك كنتِ سيُخشي بأسك أكثر فأكثر . أو إن كنتِ أقل جمالاوثراء ، لقد كنت ستكونين هدفاً أبعد للمطامع ؛ وحينئذ ستعرفين السعادة ، ولا تبكين على مفاتنك القاتلة . ولن ترى إذن بعدُ تتابع هذه السيول من الجنود التى لا تنفكّ تعبر جبال الألب باستمرار لتندفع فى واديك ، وهذه الأخلاط المتوحشة من المدمّرين اللاغبين الذين يأتون ليرتووا من مياه نهر البحر الدامية . ولن يكون سلاحك الذى يدافع عنك إذن سيف الأجنبي . وسواء عليك انتصرت أو قُهِرت ، فلن يقدّر عليك حينئذ أن تكونى أَمَةً لعدوّ أو صديق .

— ٤٤ —

إبان تجوالى فى عهد الشباب ، تابعتُ هذا الطريق الذى

سافر فيه ذلك الرومانى الذى كان صديقاً لأحد أبناء روما الخالدين ، صديقاً لشيشرون [١] . فقد أتت ريح رقيقة أعانت مركبى على شق طريقها فى الأمواج الزرقاء اللامعة ، فصرتُ قُبالة ميغاراً ، ومن خلفى كانت إيچينا ، وعن يمينى پيريه ، وإلى يسارى كورنثوس . فأطرقت فوق جؤجؤ السفينة ، وتأملت ، كما فعل سلپقيوس ، منظر كل هذه الأطلال الحزين .

— ٤٥ —

لأن الزمان لم يُعِدْ بناء هذه المدن المندثرة ؛ إذ لم يفعل أكثر من أنه أقام على أنقاضها المشوّهة أكواخاً ومساكن بربرية : مساكن تزيد فى تعاسة منظرها ، كما تزيد فى قيمة البقية الباقية من الأشعة المتناثرة ، والأنقاض المحطمة لقوتها التى

---

(١) هذا الصديق لشيشرون هو سرڤيوس سلپقيوس ، الذى كتب خطابا مشهوراً إلى شيشرون بمناسبة موت ابنته « وهو يتضمن وصفا ، لا زال إلى اليوم صادقا ، لطريق تبعته أنا فى بلاد اليونان ، فى الأرض وفى البحر ، فى كثير من الرحلات ، وعند عودتى من آسيا ، متجها من مصر إلى ميغارا ، بدأت أتأمل منظر المنطقة المحيطة بى : فكانت ايچينا من خلفى ، وميغارا أمامى : وعن يمينى پيريه ، وكورنثوس إلى يسارى . وكل هذه المدن التى كانت مشهورة فى العهد الغابر ، قد انقلبت اليوم وكأنها مقبورة تحت أطلالها . فلما رأيت هذا المنظر ، لم أملك نفسى من التفكير على هذا النحو : ما أتعسنا معشر الناس ، لماذا نحزن كل الحزن حينما نفقد أحد الأصدقاء ، نحن الذين حياتهم قصيرة ، بينما خرائب كثير من المدن تنهال على أنظارنا دفعة واحدة ؟ » (بيرن) .

زالت . لقد رأى الرومانى هذه القبور فى أيام وجوده ، قبور المدن هاتيك التى تثير فى النفس عجباً حزيناً ؛ وإن وصفها كما وصل إلينا ليحمل فى طيّاته ذلك الدرس النافع الذى يمكن أن يستخلص من هذه الرحلة .

— ٤٦ —

إن هذه الصفحة أمامى الآن . وإلى المدن التى رثى اضمحلالها والتى رأيتها قد اندثرت تماماً ، فى وسعى أن أضيف أيضاً خراب وطنه هو الآخر . أجل إن روما ، روما الأمبراطورية ، قد حنت رأسها تحت العاصفة ، ومرّغت خدها فى تراب أطلالها السود . وها نحن أولاء نطأ بأقدامنا رُفات هذا المارد العظيم ، وبقايا أمبراطورية لا زال رمادها دافئاً .

— ٤٧ —

ومع هذا ، أىْ إيطاليا ، فان أخطاءك ستتردد من بلد إلى بلد ، وستروى من جانب إلى آخر فى هذا العالم . أىْ أم الفنون ، كما كنت من قبل أم السلاح ؛ لقد كان ساعدك آنذاك حارساً لنا يحمينا ، ولا يزال إلى اليوم يهدينا . أىْ أمَّ ديننا ؛ يا من ركعت لك أمم عدة من أجل الحصول على مفاتيح السماء ! إن أوربا ، النادمة على أمّها ، ستحطم يوماً أغلالك . وإخالنى أرى الآن انسحاب الأمواج من المتبربرين الذين غمروا ريفك : وها أنذا أسمعهم يسألونك الغفران !

— ٤٨ —

ولـكن الأرْنو يدعونا إلى حيث تقوم أسوار المرمر البيضاء الجميلة ، حيث تهيب أثينا اتروريا (روما) بنا أن نستشعر عاطفة رقيقة نحو قصورها الفاخرة . لقد طوقت بمسرح من الروابى ، وغدت تحصد قمحها ونبيذها وزيتها ؛ والثراء الوافر يتنزّى ويتوثب من فرط ما به من حياة باسمة ضاحكة ، حاملا قرنه الملآن . وعلى طول الشطئان التى يجرى من بينهـا نهر الأرْنو الباسم وُلِد الترفُ الحديث من التجارة ، و بعثت العلوم المقبورة كيما تبصر نهاراً جديداً .

— ٤٩ —

وهنا أيضاً عَشِقَـتْ الإلٰهة (ڤينوس) فى الحجر ، وملأت الجو حواليها بالجمال ؛ و إنا هنا لنستروح عبير التسنيم الذى يهبنا نسيما من خلوده ؛ وقناع السماء قد كُشِف نصفه ؛ و إنا لنقف أمامها مشدوهين نتأمل هـذا الوجه ونتوسم فيه ما ذا تستطيع عبقرية الإنسان أن تفعله ، أ كمل مما تقدر الطبيعة على فعله . و إنّا لنحسد عبّاد ڤينوس على هذه الجذوة الباطنة التى جعلت نفوسهم قادرة على أن تخلق إلٰهة كهذه وتشيع فيها الحياة .

— ٥٠ —

إنّا لننظر إليها مشدوهين ونشيح بوجوهنا ، لأن هذا الجمال الرائع يذهلنا و يبعث فينا السكر والنشوة ، حتى يضلّ القلب من

فرط إعجابه . هنالك نصير دائماً مشدودين إلى عربة الفن الظافر ، كأننا أُسارىٰ لا نود الابتعاد والرحيل . ألا بعداً للكلمات والألفاظ المحددة ، هذه الرطانة التى يتحدث بها تجار المرمر ، والتى تحمل الحذلقةُ الحمقَ على الإعجاب بها . إن لنا عيوناً : والدم والنبض والصدر يؤيد مديح الراعى الداردِى [١] .

— ٥١ —

أعلى هذا النحو تبديت أمام پاريس ، أى ڤينوس ، كما تبديت أمام أنشيز السعيد ؟ أم تبديت فى أبهى جمال ألوهيتك ، مثلما تفعلين حين يجثو تحت أقدامك إلٰه الحرب ؟ إن هذا يتأمل وجهك وكأنه يتأمل نجما ، وهو جالس على ركبتيك ، وعيونه كلها عليك ، تتغذى من جمال خدودك ، بينما تنطلق من

---

(١) الراعى الداردى أى الطروادى ، وهو پاريس ، ابن پريام ملك طروادة ، الذى قدر له أن يكون محنة لوطنه . وقد تربى بين الرعاة حتى صار واحداً منهم ، ولكنه كان شجاعا مقداما ، فاستطاع أن يظفر باحترام كل الرعاة وتقدير الآلهة ، حتى أنه لما حدث فى زواج پيليوس وثيتيس أن رمت إلهة الكراهية بتفاحة ذهبية كتب عليها : إلى الأجمل ، فى وسط جمع الآلهة ، تنافس الإلٰـهات فى الظفر بها . ثم لما انحصر التنافس بين چونون وڤينوس وميترڤا ، لم يشأ الآلهة التدخل للحكم بين جمالهن ، بل فوض الحكم لپاريس لما عرف عنه من الحكمة والفطنة وأصالة الرأى . وهنا حاولت كل من هؤلاء الإلٰـهات الثلاث أن تغرى پاريس ؛ غير أنه حكم لڤينوس بأنها أجمل الكل ، مما أثار ثائرة چونون وانتقمت لنفسها من بعد فى حرب طروادة .

شفتيك قبلات من النار تنصهر وهي تُحرِق ، وتنهل فوق جفونه وأهدابه وثغره ، وكأنها تساقط من قارورة .

— ٥٢ —

إن الآلهة وقد اضطربوا وسكنوا من نشوة الغرام الصامت ، لم يجدوا فى جلال ألوهيتهم من القدرة ما يجعلهم يقوون على التعبير عما به يشعرون ، حتى صاروا مثل الفانين ، وإن فى حياة الإنسان للحظات إلٰهية تعدل أجمل لحظاتهم . غير أن عبء الأرض يُبْهظ كاهلنا . لـكن لا ضير ! فنى وسعنا أن نستعيد هذه التصاوير وأن نخلق مما كان ، أو مما يمكن أن يكون ، أشياء جديرة بأن تصير مثل تمثالك ، فتبدى كالآلهة .

— ٥٣ —

وهأنذا أدع لأقلام العارفين الحـكماء : الفنان ومحاكيه ، مهمة وصف الملامح الجميلة والخطوط الرقيقة والانتفاخات الشهوانية لهذا التمثال الرائع . أجل ، دع هؤلاء يصفون ما لا يمكن وصفه ، لـكن لا يأتِ نَفَسهم الفاسد ليعكر صفاء البلور الناصع الذى تنعكس عليه هذه الصورة أبداً . إنها مرآة صادقة صافية لأجمل حُلْم هبط من السماء لسحر أعماق الروح .

— ٥٤ —

إن حرم سنتا كروتشه[1] المقدّس يحتوى تراباً يزيد فى قداسته

(١) كنيسة مشهورة فى فيرنتسه .

أضعافاً ، يكفى وحده ليكون ضاماً للخلود ، إذ لم تبق غير ذكرى الماضي وشطر من بقايا هذه العبقريات السامية التى اتحدت بالعناصر والخليط . هنا ترقد عظام انجلو [١] وألفييرى وجَلِليو الفلكى صاحب الكوارث والأحزان . وهنا عاد طينُ مكّيا فلّى من حيث أتى .

— ٥٥ —

تلك عقول أربعة تستطيع كالعناصر الأربعة أن تخلق عالما جديدا . أى إيطاليا ! إن الزمان الذى مزّق ثوبك الأمبراطورى إلى آلاف القطع ، قد حرم كل دولة أخرى من أن ترى عظماء الرجال يخرجون من تحت أنقاضها . إن انحلالك لا يزال غنيًّا بقوة إلٰهية تتوّجك بشعاعها الواهب للحياة ، وإن كانوفا [٢] اليوم ليضارع عظماءك الغابرين .

— ٥٦ —

لكن ، أين يرقد أبناء آتروريا العظام الثلاثة : دانته ، وبترركه ، وشاعر [٣] النثر الذى لا يقل عنهما ، هذه الروح الخالقة التى أبدعت قصص الغرام المائة ؟ أين سُجّيت عظامهم ، هؤلاء الذين امتاز طينهم عن طيننا ، إنْ فى حياتهم أو فى موتهم ؟

---

(١) هو ميكلنلو بوزوتى النحات والمصور والمعمارى المعروف .

(٢) فنان إيطالى معاصر لبيرن .

(٣) هو بوكاتشيو ، مؤلف « الديكامرون » .

هل انحلوا إلى تراب ؟ وهل مرمر بلادهم لا يستطيع أن يقول لنا فى هـذا الصدد شيئا ؟ وهل لم يكن فى محاجرها من المرمر ما يكفى لصنع تماثيلهم ؟ أو لم يُودعوا بقاياهم عنـد الأرض التى ولدوا عليها ؟

— ٥٧ —

أىْ فيرنتسه الجاحدة النا كرة للجميل ! إن دانته يرقد بعيداً عنك ، مثله مثل شيبون قد دُفِنَ فى أرض تلومك على ظلمك ! إن منازعاتك التى كانت أسوأ من الحروب الأهلية ، قد طرد أصحابها ذلك الشاعر الذى يتعبدُ اسمَه أحفادك ، وفى نفوسهم ندم الأيام والدهور . والتاج الذى وضع على جبين پترركه قد نبت غاره فى أرض أجنبية بعيدة : وإن حياته وشهرته وقبره ليست مِلْـكاً لك ، على الرغم من أنها أُخِذَت منك .

— ٥٨ —

لقد أوصي بوكاتشيو برفاته لوطنه . أفلا يرقد جثمانه وسط عظماء وطنه ، وعليه تتردد أنفاس الأناشيد الحزينة ، نوحاً على روح هذا الذى كوّن لغة توسكانيا الرخيمة ؟ هذه اللغة التى ليست أصواتها إلا أغانى وموسيقى ، والتى هي شعر اللغات ؟ كلا ؛ إن

(١) شيبون الافريقى الذى انتصر فى موقعة زاما ؛ ولما يأس من معاملته فى روما ، رحل عن وطنه إلى ليتريوم . وعلى قبره كتب : « أيها الوطن الجحود ، إنك لن تملك ترابى ! »

قبره الممزق لا بد أن يتحمل إهانات ضَبُعِ التعصب الأعمى ؛ بل إنه لم يجد مكانا له وسط موتى مغمورين حقراء ، كان يجد عنده من المارّ العابر زفرة يرسلها حينما يسأل : لمن هذا القبر !

— ٥٩ —

وسنتا كروتشه قد حُرِمت من ترابهم الفاخر . غير أن هذا لم يزدهم إلا شهرة ، كما أن غياب صورة بروتس عن جنازة قيصر لم يفعل إلا أن زاد فى تذكير روما بأعظم أبنائها . أنت أعظم سعادة ياراڤنّا ، أيها المعقل الأخير لأمبراطورية مترنّحة ! فعلى شاطئك العتيق يرقد جثمان هذا المَنْفِيّ الخالد . وأرْكوا هى الأخرى تأبى أن تسلّم بقايا الشاعر الذى تفخر بالاحتفاظ برفاته ، بينما تطالب فيرنتسه عبثاً بفقيدها المنفِيّ وتذرف عليه الدموع .

— ٦٠ —

ما قيمة هرمها المرصع بأثمن الجواهر ؟ من رُخامٍ سُمّاقى ويَصْب وعقيق يمان وجواهر ومرمر عديد الألوان يغطى عِظام أمرائها التجار ؟ إن هـذا المرمر الفاخر الذى يقى رءوس الملوك لا ينظر إليه بنفس القدر من الاحترام والإجلال الذى ينظر به إلى العشب الأخضر الذى يقوم على نمـائه ونَضْرته ندى رفاف تلمع فيـه أضواء النجوم ، هو هذا القبر المتواضع لهؤلاء الموتى الذين تـكفى أسماؤهم وحدها لـكى تكون ضريحاً للموسا .

— ٦١ —

وعلى ضفاف الأرنو . فى هذا القصر العظيم للفن ، يستطيع القلب والعين أن يعجبا بكل العجائب الرائعة التى تنافس النحت هو وأخاه (التصوير) الذى يستخدم ألوان قوس قزح . ولعل ثمة عجائب وروائع أخرى غيرها ؛ لكنى لا أبحث عنها ولا أنشدها . لأننى تعودت أن أمزُج أفكارى بالطبيعة الحية فى الحقول ، مفضلاً إياها على الفن فى المتاحف . فعلى الرغم من أن مثل هذه الروائع تظفر من نفسي بدلائل إعجابها بها ؛ فإنها لا تشعر نحوها بكل ما فى وسعها الشعور به من حماسة ،

— ٦٢ —

لأن مزاجها من نوع آخر . وأفضل أن أتجول على ضفاف بحيرة ترازيمين [١] ، وفى هذه الشعاب التى كانت نكبة على تهور الرومان : فهنا تتراءى أمامى الحيل العسكرية التى نصبها القائد القرطاجى وبراعته فى حصر أعدائه بين الجبال والساحل . ويخيل إلىّ أنى أرى الموت يطوف بصفوفهم واليأس يستولى على شجعانهم ؛ وإن أمواج دمائهم لتزيد فى السيول التى تفيض إلى بعيد فوق السهل الذى جُندلت عليه جحافل بأسرها ،

(١) هى المعروفة اليوم باسم بيروجيا ؛ وعندها هزم هانيبال الرومانيين فى المعركة المعروفة بمعركة بحيرة ترازيمين ، فى الحرب البونية الثانية .

— ٦٣ —

أشبه ما يكون بغابة اجتثتها عواصف الجبال . تلك كانت عزيمة الجنود فى ذلك اليوم الخالد ، وتلك كانت قسوة الحرب التى تعمى الإنسان عن كل إحساس ، اللهم إلا حب الذبح والتقتيل ، إلى حد أن المحاربين لم يشعروا مطلقاً بزلزال[١] حدث آنذاك . أجل ، لم يشعر أحد منهم بأن الطبيعة قد اضطربت تحت أقدامهم ، وأن السهل قد انشق من أجل ابتلاع هؤلاء الذين مُدّوا فوق دروعهم منتظرين تخليد اسمهم بتماثيل جنازية . وتلك كانت الحميّـة التى استولت على كل أفكار الشعوب الذين تسلّح بعضهم ضد بعض !

— ٦٤ —

لقـد كانت الأرض حينئذ فى نظر هؤلاء الشجعان سفينة سريعة تُبْحِر بهم إلى شاطىء السرمدية . لقد كانوا يرون جيداً المحيط حواليهم ، لـكنهم لم يكن لديهم وقت لملاحظة حركات سفينتهم ؛ فإن قوانين الطبيعة قد توقفت فيهم ، فجهلوا هذا الفزع والرعب الذى يستولى على جميـع النفوس حينما تزلزل الجبال ، وتأوى الطير إلى السحاب كى تجد فيها ملاذا ، تاركة أوكارها ؛

(١) روى قصـة هذا الزلزال ليفيوس فى تاريخه (٢٢ : ٥) ولـكنها مشكوك فيها .

وتترنح القطعان الثاغيه فوق الوديان المضطربة ، ويمسك الفزع الإنسانى عن كل كلام .

— ٦٥ —

أما اليوم فتراز يمين تتبدى على نحو آخر : فبحيرتها تتراءى كأنها سماط من الفضة ، وسهلها لا يغضّن سطحه خراب ولا شيء غير المحراث الرقيق . وأشجارها العتيقه تنمو وفيرة وفرة هؤلاء الموتى الذين غطو هذه الأرض التى تمتد جزورها فيها . ولكن جدولاً ، جدولاً صغيراً ، تسيل مياهه الناصعة فى مجرى ضيق ، قد اتخذ اسمه من الدم الذى هطل مدراراً فى ذلك اليوم الدامى : أجل ، إن « سَنْجِوِ نتو»[1] ينبئك بالمكان الذى غمر فيه الدمُ الأرضَ ، وجعل المياه البائسة حمراء .

— ٦٦ —

أما أنت يا كلوتنّو[2] ، فإن موجك العذب الذى يشبه البلّور الحىّ قد دعا حورية النهر للتملى بالنظر إليه وغسل أطرافها الرخصة فيه ؛ إنك تغذى العشب الأخضر الذى فيه يرعى الثور الأبيض بياض اللبن ؛ أنت أطهر إله للمياه الرقيقة ؛ ما أسكن

---

(١) تصغير : سنجوه ، أى دم بالإيطالية .

(٢) كلوتنو نهر صغير ، يجرى فى مقاطعة الأومبريا ، وهو فرع من التفره ؛ وله ينبوع رائع الجمال ، أبدع وصفه كردوتشه فى قصيدته بهذا العنوان : « ينبوع الكلوتنو » .

طلعتك ، وما أنصع رونقك ! أجل ، إن المذابح لم تدنس نهراً كهذا هو مرآة وحمّام لفتيات الجمال العذراوات .

— ٦٧ —

وعلى شاطئك السعيد يقوم معبد[1] صغير الحجم رقيق البناء ، على منحدر وديع لرابية فتّانة ؛ معبد يقدّس ذكراك ، يجرى من تحته التيار الهادىء ، الذى تتراقص فيه أسماك ذوات قشور برّاقة ، تسكن أعماقك البلورية وتمرح ؛ وأحياناً ترى جماعات النَّيْلُوفَر المتفرقة تبحر إلى حيث لا يزال الموج الضَّحْل يروى أقاصيصه الثرثارة .

— ٦٨ —

لكن لا نمْضِ دون أن نحيى جِنّى هذا المكان ! فإنه إذا مس الجبين نسيم رقيق ، فإن هذا الجنىّ هو الذى أرسله . وإذا كان قلبك يتأثر حينما يتأمل الخُضرة التى تحف بساحله ؛ وإذا كانت نضْرة هذا المنظر تثلج القلب ، وتنقيه من غبار متاعب الحياة الجاف ، كي يتطهر لحظةً بفضل وضوء الطبيعة هذا — فإنك إنما تدين بالشكر والدعوات لهذا الجِنّى ، على أنه قد أوقف متاعبك وملالك .

---

(١) « لم يغفل أى كتاب من كتب الرحلات أن يتحدث عن معبد كلوتنو القائم بين فولنيو واسبوليتو ؛ ولا يوجد فى أى مكان ، حتى فى إيطاليا نفسها ، منظر أخلق بالوصف منه » (بيرن) .

— ٦٩ —

لـكن ما هذا الهدير الذى ينبعث من المياه ؟ من الأعالى الوَعْرة يندفع نهر ڤلينو[١] فى الهاوية التى شقتها أمواجه . يا له من شلال رائع ! إنه سريع سرعة الضوء ؛ وهذه الـكتلة المتوثبة المزبدة تزلزل صخور الهاوية . إنه جحيم حقاً ، فيه تزأر الأمواج الهدَّارة وتغلى فى دوامة عذابها الخالد ، بينما العرق المتصبب من آلامها ينبثق من أعماق هذا الجحيم ويتعلق ، على هيئة غدائر ، بهذه الصخور التى تحرس الخليج المحيط ، وكلها فى فزع مريع ،

— ٧٠ —

تَصَّاعد مُزْبدةً وإلى أعلى السماء ، ثم تعود من جديد هاطلة بغـير انقطاع ، مكوِّنة سحابة غَدِقة تصب على الخضرة وَسْمياً كوسمى الربيع ، حتى تستحيل كلها إلى بساط من الزُّمُرُّذ . آه ! ما أعمق الخليج ! وما أشد هول العنصر المارد وهو يتواثب من صخرة إلى صخرة تواثباً جنونياً مريعا ، محطِّماً الصخور التى تتشقق وتنجرف تحت أقدامه الوحشية تاركة له طريقاً مخيفا لاحبا !

— ٧١ —

ويخيَّـل إلى المرء أنه بدلاً من أن يرى فى هذا العمود الهائل المتدفق الأمواج الأولى لأبى الأنهار الذى يجرى بشدة وغزارة

(١) نهير يصب فى نهر النار ، الذى يصب بدوره فى التفره .

فى التواءات عدة خلال الوادى ، يرى فيه ينبوعاً لبحر فى دور الطفولة قد انبثق من رَحم الجبال وهى تتمخض عن عالم جديد . أدر ظهرك وانظر إليه وهو يتقدم كالسرمدية وكأنه يريد أن يكتسح كل شيء فى طريقه ، ساحراً العيون بالرَّوْع . ياله من شلال منقطع النظير[١] !

— ٧٢ —

إنه جميل حتى الارتياع ! لكن قوس قزح[٢] يجلس على الحافة من ناحية إلى ناحية تحت أشعة الصباح الرفافة ، وسط الهاوية الجهنمية ، كأنه الأمل فوق فراش الموت ، محتفظاً بباهر ألوانه . وبينما كل ما حواليه تمزّقه الأمواه الغاضبة ، تظل ألوانه هادئة لامعة لا ينقطع لها ضياء . ويخيل إلى المرء حينئذ أنه يرى فى هذا المنظر المريع ، الحبَّ ذا الجبين الساجى وهو يبسم لشطحات الجنون .

— ٧٣ —

وهأنذا أجد نفسي مرة أخرى فى غابات جبال الأپنين ،

---

(١) « رأيت كسكاتا دل مرموره (شلال المرمر) فى ترنى مرتين ، وفى عهدين مختلفين : الأولى رأيته فيها من قمة هاوية ، والثانية رأيته فيها من أسفل الوادى . وانى أفضل رؤيته على النحو الثانى ، وأنصح بها لمن لايستطيعون أن يروه على هذين النحوين ؛ ومن أية ناحية نظر إليه تبدى هذا الشلال أجمل من كل شلالات سويسرة وسيولها » (بيرن)

(٢) « يجد القارىء فى تعليقته على روايتى : مَنْفْرِد ، بعض الكلمات المتصلة بوقت حدوث هذا النوع من قوس قزح ومكانه وظهوره » (بيرن)

هذه الأطفال[١] المولودة من جبال الألب . ولقد كانت جديرة بأن أزجي إليها المديح ، لو لم أكن قد رأيت من قبل وأعجبت بهذه الجبال التي يبسط فيها الصنوبرُ أغصانه فوق الأعالي الوعرة ؛ حيث يزأر الرعد الحادث عن الثلاجات . ولكنني رأيت جبل يونجفراو[٢] وهو يحلق في الأعالي بقمته المجللة بالثلج الذي لم تطأه قدم إنسانية ؛ ورأيت حقول الثلج الشاسعة فوق مونبلان ؛ وسمعت صوت الرعد المريع يتردد على جبال كيمارى ،

— ٧٤ —

المعروفة باسمها القديم : جبال أكروكراون . ورأيت على جبل البرناس طيران النسور السريع وهي تتبدى كأنها جنيات هذا الحمى الأقدس ، ورُسُل المجد ، فقد كان تحليقها جليلا رائعاً . وتأملت الإيدا بعيون طروادية[٣] ؛ وآتوس وأولمب وأيتنا وأطلس كلها قد جعلت هذه التلال تبدو أقل مرتبة وأدنى مكانة . إنها لم تعد اليوم مجللة بالثلوج ، ما عدا قمة سوراقته[٤] ، التي تنشد الآن قيثارة هوراس ،

---

(١) جبال الأبنين التي تمتد على طول شبه الجزيرة الايطالية هي فرع من جبال الألب .

(٢) اليونجفراو (ومعناه الحرفي : العذراء) أحد الجبال العالية في جبال الألب حول مدينة بيرن ؛ وسمي بهذا الاسم لأنه لم تطأه قدم ، فكأنه بكر لم يفتضه أحد . والكلام هنا طبعاً عن الماضي .

(٣) أي بعيون العطف .

(٤) سوراقته ، تل في شمال روما ، ذكره هوراس في إحدى أغانيه (ك ١ ، قصيدة رقم ٩) .

— ٧٥ —

كيما تستحق أن تذكر . إن سوراقته ترتفع وسط السهل المنبسط كأنها موجة مزبدة على وشك الارتطام بالساحل ، فتظل مدة من الزمان معلقة فى الهواء قبل أن تنداح على الشاطئ . ولن يضيع عبثاً عمل هذا الذى يحشد خاطره وذكرياته ، ويحلق فى الأجواء الكلاسيكية ، موقظاً الروابى بأصداء لاتيوم. آه ! لقد كنت أبغض فى طفولتى حفظ أشعار الشاعر كلمة فكلمة ، إلى درجة لا تسمح لى بأن أردد اليوم بسرور ،

— ٧٦ —

شيئاً مما يذكرنى بتلك الدروس البغيضة التى كانت تبهظ ذاكرتى المريضة . وعلى الرغم من أن الزمان قد علَّم عقلى أن يفكر فيما كان يتعلمه ، فان قلق فكرى الشاب قد غرز فى نفسي من الضيق والملال ما جعلنى لا أحس بما فيها من سحر الجدة قبل أن أستطيع تذوقها وقراءتها باختيارى ، فصارت نفسي عاجزة عن استعادة صحتها وسلامتها : فما كانت تعانى آنذاك ، لا تزال اليوم تنبو عن مذاقه .

— ٧٧ —

وداعاً إذن يا هوراس ! يا من أبغضته لا لعلة فيه ، لكن لعلة فى نفسي . إنه من اللعنة أن يفهم المرء أشعارك الغنائية دون أن يحسها ، وأن يدركها دون أن يحبها . لم يوجد واعظ مثلك قد

كشف عن حياتنا بعمق أكبر وقدرة على النفوذ أعظم ؛ ولم يوجد شاعر قد فاقك فى تعليم قواعد فنّه ؛ وليس ثمة هَجَّاء قد استطاع أن يهز شعورنا بخبث أبرع من خبثك[١] ؛ ولم يتذرَّك إنسان فى إيقاظ ندمنا دون أن يجرح شعورنا . ومع هذا فوداعاً مرة أخرى ؛ أودعك على قمة سوراقته .

— ٧٨ —

أى روما ! أيها الوطن الذى اختَرته لنفسي ! أى مدينة الروح ! إن يتامى القلوب يجب أن يتجهوا بقلوبهم إليك ، أيها الأم المتوحدة لأمبراطوريات راحلة ! إنهم قد أودعوا أحزانهم الرقيقة فى صدورهم . ما هى مصائبنا وآلامنا ؟ تعالى وانظرى إلى هذا السَّرْو ، واستمعى إلى هذا البوم ؛ تعالى دوسي بأقدامك هذه العروش المحطمة وهذه الأنقاض لمعابد دارسة ؛ إن كروبك آلام يوم . وإن العالم تحت أقدامنا لَهش هُشُوش الطين الذى منه برئنا .

— ٧٩ —

ها هى ذى نيوبيه[٢] الأمم ماثلة أمامك ، وليس لها ولد ،

---

(١) هوراس واعظا قد ظهر فى « رسائله » ؛ وواضعاً قواعد الشعر فى « فن الشعر » ؛ وهجاء فى « أهجياته » .

(٢) نيوبيه : كانت ابنة تنتالوس ملك ليديا . وقد ذكر هوميروس وبروبرتيتوس أنه كان لها ستة أولاد وست بنات ، وفى رواية أخرى أنهم كانوا سبعة أولاد وسبع بنات فـكانوا .وضع فخرها وتباهيها حتى =

ولا يعلو جبينها تاج ، وما لها صوت يحدثك عن مصائبها : إن يدها الجافّة المتجعدة لتحمل إجّانة خاوية تشذّر ترابها المقدّس منذ زمان طويل ! فمقبرة الشيبونيين لم تعد تضم رفاتهم ؛ والأضرحة نفسها قد فقدت ضيوفها الأبطال . فهل تستطيع ، أيها التفره العتيق ، أن تجرى فى هذه الصحراء من المرمر ! أفلا فلتنهض بأمواجك الصفراء ، ولتدثر محنتها بمعطفك البَلّورى .

— ٨٠ —

إن القوط والمسيحيين والزمان والحرب والموج والنار قد حطمت كبرياء هذه المدينة الخالدة ذات التلال السبعة . فلقد رأت نجومَ مجدها تغور الواحدة بعد الأخرى ، ورأت جياد الملوك البرابرة تصعد الجبل الذى كانت منه تنساق عربة الظافر إلى الكابتول . إن هذه المعابد والمبانى الشامخة قد انهارت ولم تدع بعدها شيئا : فصارت خليطاً من الأنقاض والأطلال ! من ذا الذى يستطيع أن يتعرّف هذه الأماكن الخاوية ، وأن يضفى نوراً شاحباً على هذه الشذرات الكابية ، ويقول : « هنا كان ، أو هنا يوجد » ، ما دام الظلام يسود هذا المكان ؟

= أهانت لاتونا ، لأنها لم يكن لها غير ولدين ، مما أثار ثائرة لاتونا وابنيها أپولون وديانا ، فقتل أپولون الأولاد الستة وقتلت ديانا البنات الست . فظلت نيوبيه تنوح على أولادها وتبكيهم .

— ٨١ —

ظلام القرون وظلامها هى ، ابنة الليل ، وظلام الجهل ، كل هذا قد اشتمل عليها وأحاط بكل ما حولينا . ولا نكاد نتلمّس طريقنا إلا لنضلّ . إن للمحيط خريطته ، وللنجوم مصوّرها ، والعلم قد بسطها جميعاً فوق ردائه الواسع الفضفاض . لكن روما صارت كالصحراء ، نسير فيها متخبطين فوق ذكرياتنا . وفجأة نصفق بأيدينا صائحين : « وجدتها ! » لقد اتضحت لعينى — ثم لا يلبث هذا أن يتبدّى سرابا من الأطلالِ رَفْراقا .

— ٨٢ —

واأسفاه ! أين المدينة الرائعة ! ووا أسفاه مرة أخرى ! إلى أين ذهبت انتصاراتها الثلثمائة ، وهذا اليوم الذى جعل فيه برُوتس خنجرَ الحرية أسمى من سيف الفاتحين الغزاة ؟ إلى أى حال انتهت فصاحة شيشرون ، وأناشيد ڤرچيل ، وكتابات ليڤيوس التى تبدو كأنها لوحات مصوِّر ؟ لكن هذه الروائع ستكون سبب بعثها ؛ وما عداها فمآله إلى الزوال والفناء . واحسرتاه على العالم ، لأننا لن نرى بعدُ ذلك البريق الذى كان يرفُّ فى عينيه حينما كانت روما حُرّة !

— ٨٣ —

وأنت ، أى سِلاّ[1] الظافر ، يا من جرت عربته على عجلة

(١) سلا : قائد رومانى مشهور؛ بدأ بالعمل فى الجيش تحت قيادة =

الحظ ؛ أنتَ يا من استطعت أن تُخضِع أعداء بلادك قبل أن تعرض نفسك لذحولها العادلة ؛ يا من انتظر ، من أجل تقديم رأسك للانتقامات التى احشدت ضدك ، أن تحلّق نسورك فوق آسيا المحطمة ؛ أنت يا من كانت النظرة منك تقضى على مجلس الشيوخ ، لقد كنتَ رومانياً بالرغم من كل عيوبك ورذائلك ، لأنك تجاسرت على أن تلقى بتاجك العظيم وتتنازل عن السلطان وعلى فمك ابتسامة مكفِّرة عن خطاياك ، خالعاً إكليلك الدكتاتورى .

— ٨٤ —

فهل كان فى وسعك أن تتنبأ بالجبين الذى سيدنس فوقه هذا التاج الذى سما فوق كل تيجان بنى الإنسان ؟ وهل دار بخلدك أن ثمة رجلا غير رومانى سيضع نيراً مهيناً فوق كاهل روما الخالدة التى لم تسلح جنودها إلا للنصر ؛ روما التى مدت

= ماريوس وبرز فى الأعمال الحربية فى نوميديا ؛ فبدأت شهرته فى الظهور ، مما أثار حسد ماريوس ، فأبعده . ثم عينه مجلس الشيوخ لتنصيب أريو برزانس على عرش كپادوكيا ، ضد نوايا مترداتس ملك بنطش . وقد نجح فى هذه المهمة . ثم عاد إلى روما وقضى على أعدائه . وكان مترداتس سيد جزء كبير من بلاد اليونان . فارتحل سلا لملاقاته وأفلح فى الاستيلاء على بلاد اليونان بعد موقعتى كيرونيه وأوركومينوس . ثم عاد إلى روما وأصبح دكتاتوراً ؛ وبعد أن نفذ كل ماأراد ، استقال من الحكم ، وأوى إلى مكان منعزل بالقرب من پتيولى ، حيث أمضى بقية حياته . وقد نصب له تمثال فى ميدان المريخ .

ظلها الهائل فوق الأرض كلها ، ونشرت أجنحتها الطامحة حتى بلغت حدود الأفق ؛ روما التى ناداها الكل باسم مَلكة العالم ؟

— ٨٥ —

لقد كان سِلاّ أول الظافرين ؛ ولكن سِلاّنا ، كروموبل ، كان أحكم المغتصبين : فهو قد طرد الشيوخ مجللين بالعار ، بعد أن أحال العرش إلى مِقْصلة . أيها الثائر الخالد ، انظر أى جرائم يستدعيها أن يكون المرء حراً لحظة واحدة ، ومشهوراً فى القرون التالية ! لكن كم من درس نافع خلفه لنا مصيره ! إن اليوم الذى شهد أروع انتصاراته كان هو بعينه اليوم الذى شهد موته ؛ لقد كان أكثر سعادة حينما لفظ النفس الأخير ، مما كان حين ظفر بمملكتين .

— ٨٦ —

فى اليوم الثالث من ذلك الشهر الذى رفعه فيه انتصاران إلى قمة المجد ، أنزلته الطبيعة من عرشه المغتصب ، كيما يرقد فى التراب الذى خلق منه . لقد أراد القدر بهذا أن يبين لنا كيف أن كل ما نعتقد أنه جدير بأمانينا ، وكل ما يجر بنا فى طرق وعرة شاقة يذيب نفوسنا فيها ، هو فى نظره قد صنع من أجل القبر ، أولى من أن يكون من أجل السعادة . آه ، لو استطاع الإنسان أن يقنع نفسه بهذه الحقيقة ، لكان مصيره أسعد .

— ٨٧ —

سلام لك أيها التمثال[1] الرهيب الماثل فى صورة قاسية من الجلال المجرد ! لقد رأيت قيصر يخر صريعاً إلى جوار قاعدته المضرجة بالدم ، وسط صيحات قاتليه . لقد رأيته متدثراً بردائه الأمبراطورى كيما يموت بروعة ومهابة ؛ لقد قدم على مذبحك فريسة لملكة الآلهة والناس ، لنمسيس المريعة (إلٰهة الانتقام) . أمات قيصر ، ومُتَّ أنت ، أى بُمْبِى ؟ وهل كنتما فاتحين لعدة ممالك ، أو كنتما لُعَبا على المسرح ؟

— ٨٨ —

وأنتِ يا ظِئْر[1] روما ، أيتها الذئبة التى أصابتها الصاعقة ! أنتِ يامن لا يزال ثدياك من البرنز يتبديان كأنهما يحتويان على لبن الغُزاة ، فى القصر الذى أُعجبنا فيه بك باعتبارك أثراً فنياً عتيقا ! أىْ أم هـذا المؤسس العظيم الذى امتتح من جانبيك شجاعته الهائلة ! على الرغم مما أصابك من سهم چوپتر الرومانى ، ومن السواد الذى جلل أطرافك تحت تأثير البرق - هل لا تزالين ترعين توأميك الخالدين ، ولا تغفلين عن واجباتك كأم ؟

---

(١) تمثال پمبى فى روما .

(٢) فى متحف الكاپيتول بروما تمثال برنزى لذئبة معها روملس ورعس كابنيها . وروملس هو مؤسس روما . وعلى التمثال آثار صاعقة .

— ٨٩ —

بلى ؟ ولـكنهم ذهبوا ، هؤلاء الأبناء ؛ ومضى هذا الجنس من الناس الأشداء ؛ والعالم قد بنى مدناً بأنقاض قبورهم . إن الناس قد سكبوا دماءهم محاكاة للأشياء التى تثير مخاوفهم ؛ وقد حاربوا وانتصروا ، وساروا فى آثار الرومان . لـكنْ لم يعط واحد منهم وطنه ما أعطاء الرومان لبلادهم من قوة هائلة وسلطان شامخ . لقد حاول رجل واحد[1] متكبر أن يحاكيهم وكاد أن يقاربهم . لـكن هل رقد فى القبر ؟ كلا ؟ إنه لايزال يحيا ، مهزوماً بنفسه ، عبداً لعبيده .

— ٩٠ —

لقد كان مخدوعًا فى عظمته الخداعة . ولم يكن إلا قيصر نَغْلا ، هجيناً ، أدنى مرتبة بكثير من قيصر القديم ، لأن روح قيصر روما كانت من طابع أقل أرضية ؛ لقد كانت عواطفه أشد حرارة ، لـكنه قد وُهِب حكماً بارداً وغريزة خالدة عوضت عن نقائص قلب حازم لَيّن معا . لقد كان حينا ألْسيدس يغزل بمغزله تحت أقدام كليوبتره ، ولـكنه سرعان ما كان يستعيد نفسه ، ولسان حاله يقول :

---

(١) نابليون ، وكان حينئذ منفيا فى سانت هيلانه ، لأن هذه الفقرة كتبت سنة ١٨١٧ .

— ٩١ —

أتيتُ ورأيتُ وانتصرتُ[١]. ولـكن الرجل الذى أراد أن تكون نسوره — التى انتصرت كثيراً ، لاشك فى هذا — فى مقدمة جنود فرنسا ، مثل الصقور التى يبعثها القناصون ، هذا الرجل الغريب الأطوار قد كان ذا قلب أصم يبدو أنه لم يستمع يوماً لنفسه . لم يكن فيه غير ضعف واحد ، هو أقل الضعف ، ألا وهو الغرور ؛ أجل ، لقد كان متدللا فى طموحه ، لايستطيع منه فكاكا ؛ طموحه إلى ماذا ؟ هل فى وُسْعه هو أن يبين أو أن يجيب عن هذا السؤال ؟

— ٩٢ —

لقد أراد أن يكون كل شيء ، أو ألا يكون شيئاً ؛ ولم يكن ليتوقع أن القبر سينزله من عرشه ؛ وقليل من السنوات كان يكفى لـكى يجعل منه نِدّا لقيصر الذى نطأ الآن قبره بأقدامنا . الموت ، هذا هو ما من أجله ينصب الظافر أقواس النصر ! من أجله سالت وتسيل دائما عبرات الأرض ودماؤها كأنها طوفان آخر ، دون أن تكون ثمة سفينة سلام يأوى إليها الإنسان الشقىّ ! إلهى ، جَدّد قوس قزحك .

---

(١) هذه هى الـكلمات التى قالها قيصر لمجلس الشيوخ معبراً بها عن سرعة انتصاره على فرناس ملك بنطش ، بالقرب من زيلا . وقد صارت تعبيراً عن سرعة انجاز عمل عظيم .

— ٩٣ —

أى ثمار نجنيها من حقول الوجود المجدبة ؟ حواس ضيقة ، وعقل ضعيف ، و برهة حياة ؛ والحقيقة جوهر ثمين مخبّأ فى الأعماق ؛ وكل شيء قد وزن بميزان العادة الزائف ؛ والرأى العام قوة هائلة تنشر على الأرض نقاباً من الظلام ؛ والخير والشر يصيران أعراضاً ؛ والناس يرتعدون مخافة أن تظهر أحكامهم علناً ، إذ هم يخشون أن تنسب إليهم أفكارهم كجرائم أتوها ، وأن ينتشر على الأرض ضياء باهر .

— ٩٤ —

وهاهم أولاء يسحبون أذيال البؤس والشقاء ، ويتوارثون الكوارث ولداً عن والد وجيلا عن جيل ، متباهين بفساد دخيلتهم ؛ فيموتون تاركين جنونهم المتوارث للجيل الجديد من العبيد المفطورين على العبودية ، الذين يتقاتلون من أجل تخليد عبوديتهم ؛ و بدلا من أن يكونوا أحراراً ، تراهم يفضلون أن يناضلوا كالمسايفين فى ساحة القتال عينها التى يرون فيها إخوانهم يجندلون ويساّقطون كأوراق شجرة واحدة .

— ٩٥ —

إننى لا أتحدث عن معتقدات الناس ، فإنها بين العبد و بين خالقه ؛ إنما أتحدث عما هو متفق عليه ومسلم به ومعروف لدى الجميع مما يراه الناس كل يوم وكل ساعة . أتحدث عن

النيّر الذى يبهظ كاهلنا ، وعن النوايا الصريحة للطغيان والاستعباد ؛ أتحدث عن قرار سادة الأرض ، الذين يحاكون مَن أذلّ المستكبرين وأيقظ الملوك النائمين على عروشهم . كم كان مجده سيكون عظيما ، لو أن يده القوية لم تفعل غير هذا !

— ٩٦ —

أوَ لا يهزم الطغاة إلا بالطغاة ؟ أو لن تجد الحرية نصيراً لها ، وابنا جديراً بها ، من أمثال هؤلاء الذين رأتهم أمريكا ، حينما انبثقت فجأة كأنها بَلاَّس[1] ، عذراء مدجَّجة بالسلاح ؟ أو هل يجب أن تربَّى أمثال هذه العقول فى القفار الموحشة ، وفى أعماق الغابات العتيقة ، وسط هدير الشلالات ، فى هذه الأرض التى بسمت فيها الطبيعة لطفولة واشنجتون ؟ وهل لاينطوى هذا العالم على مثل هذه البذور فى أحضانه ؟ وهل ليس لأوربا مثل هذا الشاطىء ؟

— ٩٧ —

ولكن فرنسا قد أصابها خُمار من الدم إلى حد تقايأت معه

---

(١) يذكر عن بلاس أثينيه أنها انبعثت من رأس زيوس كاملة السلاح ؛ وبيرن يشبه بها أمريكا وقد تحررت من انجلترا . والابن المشار اليه هنا هو چورج واشنجتون أول رؤساء الجمهوريات المتحدة ، وبطل حرب التحرير الأمريكية .

الجريمة . وإن أعيادها الزُّحَلية[1] قد كانت محنة على قضية الحرية في كل مكان وزمان . فالأيام[2] المريعة التي شهدناها ، والطمع الدنيء الذي أقام حاجزاً من الماس بين الإنسان وبين آماله ، والمشهد الأخير الذي رآه الناس — كلها معاذير للعبودية الأبدية التي تجتث شجرة الحياة ، وتجعل سقوط الإنسان الثاني هذا أشنع من سقوطه الأول .

— ٩٨ —

وأنت ، أيتها الحرية ! إن لواءك الذي وإن يكن قد تمزق فإنه لا يزال يرفرف ، لا ينفك يتابع تقدمه ، كالصاعقة التي تكافح الرياح ؛ إن صوتك المقدس كصوت البوق ، على الرغم من أنه اليوم ضعيف خافت ، سيتردد قوياً بعد العاصفة . إن شجرتك المقدسة قد فقدت أزهارها ، وغصونها التي حطمتها

---

(١) أعياد كانت تقام في روما ، احتفالا بالإله ساتورن (زحل) ، في يوم ١٦ أو ١٧ أو ١٨ ديسمبر ، وتمتاز بالحرية المطلقة التي كانت تباح فيها : فكان يسمح للعبيد بالسخرية من سادتهم ، وكانت العربدة تطلق لنفسها العنان .

(٢) أيام عهد الإرهاب في فرنسا إبان الثورة الفرنسية وقد استمر منذ سقوط الجيرونديين (في ٣١ / ٥ / ١٧٩٣) حتى سقوط روبسبير (٢٧ / ٧ / ١٧٩٤) .

والمشهد الأخير هو عودة آل بوربون إلى الحكم في ١٨١٤ .

والسقوط الثاني هو استبداد المحالفة المقدسة بعد ووترلو .

المناجل لم تعد تُبدى غير لحاءٍ خشنٍ غليظ ؛ لـكن العصارة لا زالت تجرى فيها ، و بذورها قد أودعت فى الأعماق حتى فى جوف أراضي الشمال . و إن ربيعاً سعيداً سيأتيك بثمار أقل مرارة .

— ٩٩ —

وثمة برج رهيب من العهود الماضية ، قوىٌّ قوة القلعة ، تكفى استحكاماتها لإيقاف جيش زاحف ظاهر . إنه يقوم لا يزينه غير نصف شرفاته ، ولا يغطيه إلا رداء من العُليق واللبْلاب ، تزحف أغصانه منذ ألفى سنة على جدرانه ، وهذه الخضرة تبدو كأنها إكليل السرمديه الذى تتماوج فيه الأوراق الخضر المنتثرة على طول الزمان . ماذا كانت هذه القلعة الحصينة ؟ وأى كنز خُبِّىء فى مغارتها ؟ إنه قبر امرأة .

— ١٠٠ —

لـكن من كانت هذه السيدة الراقدة فى القبر ، المدفونة فى القصر ؟ أكانت عفيفة وجميلة ، خليقة بفراش الملوك ، وأكثر من هذا ، بفراش رومانى ! وأى جنس من الرؤساء والأبطال قد حملت ؟ وأية ابنة ورثت جمالها ؟ كيف عاشت ، كيف هامت ، كيف ماتت ؟ و إذا كانت قد نصب لها هذا التمثال الفخم ، الذى لم يجسر تراب مبتذل على الدخول فيه ؛ و إذا كانت قد لقيت كل هذا الإجلال ، أفلم يكن ذلك من أجل تخليد ذكرى مصير أسمى من مصير الفانين !

— ١٠١ —

أ كانت من ذلك النوع من النسوة اللائى لا يحببن إلا زوجهن ، أو كانت من هؤلاء اللائى يشتعلن بلهيب أزواج آخرين ؟ إن تاريخ روما يحدثنا أن العصور المتقدمة كانت قد عرفت هى الأخرى هـذا النوع وذاك الآخر . أفكانت لها من كورنليا[١] حكمتها ؛ أو كانت شبيهة بملـكة مصر الجميلة ذات اللهو والملذات ؟ وهل استسلم قلبها لميل عذب ، أو حاربته معتصمة بفضيلة راسخة وأبعدت الحب عنها بحكمة وفطنة باعتباره عدواً لها ؟ لأن العواطف على هذا النحو .

— ١٠٢ —

لعلها قد ماتت فى ريعان الشباب ؛ فلقد رماها القدر العاثر بسهم مسموم ، وعنت رأسها لعبء من الآلام أثقل من الضريح الذى يرقد فوق ترابها الرقيق . لقد تجمع السحاب فوق جمالها ؛ وأظلمت عيونها السود ، إرهاصاً بالمصير الذى تحتفظ به السماء لمحبوبيها ، ألا وهو : الموت المبكر[٢]. لـكن طلعتها كانت تشيع من حولها سحراً كسحر الأصيل ، وتضفى على خدودها الملتهبة

(١) كورنليا هى ابنة شيبون الأفريقى التى تزوجت سمپرونيوس جراكوس وكانت أم تيبريوس وكايوس جراكوس ؛ وكانت امرأة فاضلة استطاعت أن تبث مبادىء سليمة فى نفس ابنيها . وملـكة مصر هى كليوبتره .

(٢) إشارة إلى قول ميناندر : يموت شابا من تُحِبّه الآلهة » .

نوراً شاحباً يشبه لونُه لونَ حمرة أوراق الخريف ، كأنها نجمة مساء الموتى .

— ١٠٣ —

أو لعلها ماتت فى أرذل العُمُر ، وعاشت بعد زوال جمالها وموت أسرتها وأبنائها . وشعرها الفينان الأبيض كان لا يزال يذكِّر بشيء من أيام نضرتها وفتنتها ، بينما كانت غدائرها الرشيقة تبرز نصاعة بَشَرتها ، حتى كانت فتنة روما وبهجتها . لكن ، إلى أين يفضي بنا الحَدْس والافتراض ؟ نحن لا نعرف غير شيء واحد : هو أن قرينة أغنى الرومان ، ميتلّه ، قد ماتت . فانظر إلى غرامه أو افتخاره !

— ١٠٤ —

لست أدرى لماذا أرانى حينما أقف صامتا أمام هذا القبر ، يُخيَّل إلى أننى أعرف من ترقد فيه ؛ وإن ذكرى زمان قد مضي لتستيقظ فى نفسي على صوت انسجامٍ مألوف لدى ؛ ولكن اللهجة قد استحالت ، ولها من الروعة والجلال ما لصوت رعدٍ يُحتضَر وهو يفر بعيداً عن أجنحة ريح عاصفة . أفليس فى وُسْعى أن أتلبث عند هذا الحجر المغطى بالعُليق ، إلى أن أهب جسماً لهذه الأفكار الجديدة التى تلهمنى إياها هذه الأطلالُ المتفرقة التى تبدو كأنها بقيا غرَق عائمة ؟

— ١٠٥ —

وهل فى استطاعتى أن أبنى بالألواح المحطّمة التى تغطى الساحل زورقَ نجاة ؟ سأناضل من جديد مع المحيط ومع تلاطم الموج الهدّار المندفع على الشاطىء المهجور الذى شاهدت عليه فناءَ كل عزيز لدى . لكن ، وا أسفاه ! لو كان ما أبقى عليه الموج كافياً لتركيب زورق أياً كان ، فأيةَ ناحية أنتحى ؟ لم تعد تجتذبنى بعدُ دار ولا أمل ولا حياة ؛ ولم يعد يلذنى إلا ما هو ها هنا .

— ١٠٦ —

لكن دع الريح تعوى كما تشاء ! سيكون رنينها منذ الآن موسيقاى ، وسيضمّ البوم نعيبه إليه ؛ وهأنذا أسمع لهذا النعيب الآن وقد شحب النور على وُكنات هذه الطيور المصادقة لليل ؛ لقد تداعى بعضها بعضاً فوق جبل البلاتين ، وهى ترفرف بأجنحتها وتفتح عيونها النجل التى يتلألأ فيها ضياء كئيب أغبر . كم هى آلامنا بالنسبة إلى مثل هذا القبر لأمبراطورية ؟ لا تدعنى أعدّ آلامى .

— ١٠٧ —

ما هذا المكان الذى تتعانق فيه أشجار السرور والعُلّيق والأشواك والخِيرىّ الأصفر ، مكوّنة كتلة مختلطة ؟ هنا أكوام من التراب قد قامت مكان مواضع لعلها كانت من قبل مخادع

فاخرة ؛ أما هذه الاقواس المحطمة ، وهذه الأعمدة المهدّمة ، وهذه القباب المتهافتة والكهوف التي صارت سراديب رطبة معتمة ، يجد فيها البومُ وكره الليلى الأبدى ؛ أما هذا الخليط الهائل من الأطلال ، فمن ذا الذى يعرف ما ذا كان مكانه ؟ أهو معبد أو حمامات أو قصر ؟ إن العلم لا يكتشف فيه إلا أسواراً ، كما نفعل نحن . فتأمل الجبل الأمبراطورى ! هكذا تزول عظمة الأبطال (١) .

— ١٠٨ —

ذلك هو الدرس الأخلاقى المستخلص من كل أخبار الناس. وليس الحاضر إلا تكراراً للماضي : فى البدء تسود الحرية ، ثم يتلوها المجد ؛ فان ضاع هذا تلاه الثراء والرذيلة والفساد ؛ وأخيراً تسود البربرية . والتاريخ بكل أسفاره الضخمة ليست به غير صفحة واحدة ، تُقرأ خير ما تُقرأ هنا، حيث جمعت كبرياء الطغاة كلّ الكنوز وكل الشهوات . لكن ، دعنا من الكلمات ! اقترب !

— ١٠٩ —

تعالَ اعجب وتحمّس . تعال ابسم سخرية أواذرف العبرات:

---

(١) « إن جبل البلاتين كتلة من الأطلال ، خصوصا من ناحية الملعب . فالأرض مكونة من أنقاض أحجار ؛ ولا شيء مما قيل ومما يمكن أن يقال بقادر على آن يرضى معتقدات عالم الآثار الرومانى » (بيرن) .

فكل هذه العواطف تستطيع أن تتوالى فى هذه الأماكن .
وأنت ، أيها الإنسان المترجّح كالبندول بين الدمعة والابتسامة ،
إن العصور والممالك قد احتشدت فى هذا المكان . وهذا الجبل
الذى سُوِّيت قمته قد كان كهرم من العروش المكدّسة ، وكان
يتلألأ بزينات المجد وبهائه ، حتى إن الشمس قد بدت وكأنها
تستعير منه بهائه المزدوج . أين هى الآن هذه القصور ؟ وأين
الألى بنوها ؟

— ١١٠ —

لقد كان شيشرون أقل منك فصاحة ، أيها العمود بلا اسم
ولا قاعدة (١) ! ماذا يعنينى من أمر أكاليل الغار التى زينت
جبين قيصر ؟ إننى أريد أن أتوّج رأسي بالعلّيق الذى يغطى
أطلال قصره . وهذا القوس للنصر ، ما هو ؟ وما هذا العمود
الذى يتراءى أمام عينىَّ ؟ أهو عمود تيتوس (٢) ، أم عمود ترايان؟
كلا ، إنه عمود الزمان . فتوح وغنائم وأعمدة ، إن الزمان
يغير أسماءك باسما ، وتمثال وارث الرسل قد اكتسح ميدان
الإجّانة الأمبراطورية (٣) .

---

(١) هو عمود فوكاس ، أحد أباطرة الرومان ، ويقوم الآن فى الفورم.

(٢) قوس تيتوس الذى عمل تخليداً لسقوط بيت المقدس .

(٣) « وضع فوق عمود ترايان تمثال للقديس بطرس ؛ والقديس
بولس قد وضع تمثاله فوق عمود أوِرليوس » (بيرن) .

— ١١١ —

إن ما بها من تراب يرقد جليلاً ، مدفوناً فى الهواء ، هواء سماء روما القائمة الزرقة ، متجهاً بنظره إلى النجوم . لقد كانت تحوى روحاً جديرة بالمقام فى هذه المناطق السامية العليا ، روح آخر هؤلاء الذين بسطوا سلطانهم على المعمورة كلها ، حتى صارت أرضاً رومانية ؛ و بعده لم يقم أحد ليتابع فتوحه أو يحافظ عليها ، إنما خلفه من بدد انتصاراته وغزواته . لقد كان أ كثر من اسكندر ؛ وكانت فضائله السلطانية نقية طاهرة لم تشبها شائبة من دم أو فجور أو فسوق — إننا لا نزال نعبد اسم ترايان .

— ١١٢ —

وأين صخرة النصر[١] ، هذا المعبد الماجد الذى عانقت فيه روما أبطالها ؟ وأين صخرة تر پيا[٢] ، هذا الهدف الجيد لأبناء الخيانة ، هذه الصخرة التى كان يُداوى عليها كلُّ خائن من داء

(١) كانت موا كب الاحتفال بالنصر تسير حتى الـكاپتول ، وهومعبد مشهور وقلعة فى روما ، وكان القناصل وكبار القضاة يقدمون الضحايا فيه حينما يتولون مناصبهم لأول مرة .

(٢) صخرة ترپيا هى التى يقوم عليها الـكاپتول ، وكان يلقى بالخونة من فوقها ؛ وسميت بهذا الاسم نسبة إلى ترپيا ، ابنة ترپيوس ، حاكم قلعة روما ، التى وعدت بفتح أبواب القلعة للسابين المغيرين بشرط أن يعطوها أساورهم الذهبية ، فوافق تاتيوس ملك السابين ، ولما دخل القلعة ألقى على ترپيا أساوره ثم درعه الثقيل وتابعه أتباعه فماتت تحت دروع السابين .

الطموح ؟ أهنا ألق الظافرون برفاتهم ؟ أجل هنا ؛ فى هذا السهل الممتد تحتها ، ترقد عشرة قرون من النزاع والحروب . وهنالك السوق (الفورم) الذى كانت تلقى به خطب رنانة خالدة ؛ ولا يزال جَوُّه يعبَق بفصاحة شيشرون الملتهبة .

— ١١٣ —

ذلك مسرح الحرية والدسائس والأمجاد والمذابح . وهنا تنفست عواطف شعب متكبر ، منذ ميلاد الأمبراطورية حتى اللحظة التى لم يبق لدى روما فيها ما تغزوه . ومنذ عهد بعيد والحرية قد نقَّبت جبينها حينما رأت الفوضى تغتصب صفاتها ، وحينما استطاع كل جندى ، تجاسر على أن يضع نفسه فوق القانون ، أن يدوس بأقدامه أصوات مجلس الشيوخ الخرساء ، أو أن يشترى الأصوات المُرْتشية للمواطنين الداعرين .

— ١١٤ —

دعونا الآن نتأمل اسم آخر رجال روما . لقد فديتَ قروناً بأسرها من العار والظلام ، أنت يا صديق پترركه ، وأمل إيطاليا ، أى رينتسى[١] ، يا آخر الرومان ! طالما أنبتت شجرة الحرية ذات

---

(١) رينتسى : هو كولا دى رينتسى ، صديق پترركه الذى أقام الجمهورية فى روما ولكنها استمرت عهداً قصيراً ، من مايو إلى ديسمبر سنة ١٣٤٧ . وقد سقط فى فتنة شعبية قامت بعد ذلك بسنوات . وكان محبا للدراسات القديمة والمثل العليا اليونانية الرومانية .

الجذع المحطم أوراقاً جديدة ، فلتكن هذه الأوراق إكليلاً يوضع على قبرك ، أنت يا من كنت بطل الفورم ، وزعيم الشعب ، ونوماه[1] الجديد ؛ يا من كان مُلكك ، ويا للأسف ، قصيراً كل القِصَر !

— ١١٥ —

إيجريا[2] ؛ أيها المخلوق العذب لقلب فضل صدرك المثالى على كل صدر فانٍ كيما يُرْقد رأسه ! أيها الفجر الهوائى الشاب ، أيتها الحورية الخيالية لعاشق أوفى على اليأس ؛ أو لعلك جمال الأرض الذى تلقى أطيب الإطراء والثناء ! مهما يكن من أمر أصلك ، فقد كنتِ فكرة جميلة لها جسم فتان .

— ١١٦ —

إن طحلب ينبوعك لا تزال تُرْويه أمواجك البلورية

---

(١) نوما : هو نوما بومبليوس ، فيلسوف معروف تزوج تاتيا ابنة تاتيوس ملك السابين . وقد حكم روما بعد موت رومولوس ، ولم يكن ميالا للحروب ، إنما انصرف إلى تهذيب الشعب ، وتمكين الاعتقاد بالآلهة فيهم ، وتنظيمهم إلى طبقات . وقد شاع عنه أنه يتردد بانتظام على حورية اسمها إيجريا ؛ وشجع هو على رواج هذه الإشاعة لأنها يسرت له فرض القوانين التى أدخلها . وقد توفى بعد حكم دام ٤٣ سنة فى ٦٧٢ ق.م

(٢) إيجريا : حورية من أركوا فى إيطاليا ، ويذكر أوفيد أنها صارت زوجة نوما المذكور فى التعليق السالف ، كما يذكر أيضاً أنها حزنت على وفاة نوما إلى حد أنها ذابت فعلا من العبرات التى سكبتها عليه ، حتى تحولت إلى ينبوع بواسطة ديانا ، التى كانت تعبد فى تلك المنطقة .

الجديرة بأن تجرى فى جنات النعيم . و إن المياه الصافية التى يحميها كهفك قد أبقت عليها السنون ؛ و إنها لتعكس على سطحك المصقول جنّى المسكان الرقيقَ ، الذى لم تدنس مأواه الأخضَر أعمالُ الصناعة . و إن أمواجك الرقيقة لم يفرض عليها أن ترقد سجينة فى المرمر ؛ إنما هى تنبثق بصوت عذب من قاعدة تمثالك ، وتنساب هنا وهناك برقة ورشاقة فى المروج بين الأزهار والعليق الزاحف ،

— ١١٧ —

فى اختلاط عجيب : والروابى الخضراء قد تدثرت ببراعم مبكرة ؛ وخلال العشب يسمع للعَظاءة حفيف ؛ وطيور الربيع تحييك بأغاريدها الحُلْوة ؛ وآلاف من النبت العديد الأنواع يبدو كأنه يتوسل إليك أن تدع أزهاره الجديدة التى يحركها النسيم الرقيق كأنها تصاوير خيالية ! وزهرة البنفسج ذات عيون قاتمة الزرقة لها حلاوة وعذوبة ، ونسيم الصبا السماوى يقبّلها فتبدو ملوّنة بألوان السماء .

— ١١٨ —

هنا أقمتِ فى هذه الخميلة الساحرة ، أى ايجريا ! وهنا خفق قلبك وقد استشعر صوت وقع أقدام عاشقك الفانى ؛ والليل قد أرخى منصفهُ الأرجوانى نقاباً على هذه المقابلة السرية ، نقاباً وُشّى بالنجوم ؛ فجلست إلى جوار عشيقك . أواه ! ما كان أعذبك !

إن هذا الغار لم يخلق إلا من أجل استقبال إلٰهة عاشقة ؛ وها هنا حقاً صومعة الحب المقدّس ، أول الوحى !

— ١١٩ —

وحينما كنت تحببين عواطفه وتبادلينه غراماً بغرام ، ألم تضحّى قلباً سماوياً إلى قلبٍ فانٍ ؟ والحب ، الذى يموت زافراً كما يولد زافراً ، أفلا يدين لك بلمحات خالدة ؟ أفلم يكن فى وُسْعك أن تجعليها خالدة وتُشيعى صفاء السماء فى شهوات الأرض ، وتنتزعى السم من السهم دون أن تفَلّيه ، وأن تُبعدى الملاك الذى يقضي على كل شيء ، وتستأصلى الأشواك التى تجرح نفوسنا ؟

— ١٢٠ —

أواه ! إن عواطفنا الشابة سينضب معينها ، أو لن تُروى مياهُها إلا القفار التى لا تنبت فيها إلا الأعشاب المظلمة المؤتشبة ، هذه الأعشاب السريعة النمو كالدُّحْرَيجِ ؛ وإلا الأزهار النحيلة السيقان ، بالرغم من بهائها ، والتى لا يولّد عبيرها الوحشي غير الآلام ؛ وإلا هذه الشجيرات التى لا تقطر إلا السمّ الزُّعاف : تلك هي النباتات التى يولّدها الوجدان تحت أقدامه ، الوجدان الذى يجتاز رمال العالم القفراء ، ويتحرق فى غير طائل إلى الثمار السماوية المحرّمة علينا .

— ١٢١ —

أيها الحب ! لست من سكان هـذه الأرض ؛ أنت مَلَك

خفيٌّ نؤمن به ؛ وأنت دينٌ شهداؤه القلوب المحطَّمة ؛ لكن العين المجردة لم تركَ ولن تراكَ كما يجب أن تكون . إن روح الإنسان هي التي أبدعتك ، كما أبدعت عِلّيين ، بواسطة أحلام تخيلاتها وأهوائها . وهذه الصورة التي وهبتها فكرةً لا تزال تطارد الروح التي يعذبها لواحٍ فتّاك ويضنيها اللغوب ويعنيها العذاب.

— ١٢٢ —

إن النفس إذا عافت الجمال الطبيعي تخلق لنفسها في هذيانها عالماً من الخيال . فأين هي القَسَمات التي تُدرِكها عبقرية المثّال ؟ إنها في أحلامه وحدها . إذ هل في وسع الطبيعة أن تقدم لنا شيئاً له كل هذا الجمال ؟ وأين هو السحر والفضائل التي نستطيع أن نتصورها في الشباب ونتابعها في عهد النضوج ؟ أيها الفردوس الخيالي الذي نسعى إليه بأنسين ، أنت تغرّر بالقلم والريشة اللذين يريدان أن يصوراك في كل جمالك وبهائك .

— ١٢٣ —

من يحببْ يَهْذِ ، فان الحب هذيان الشباب ، وعلاجه أشق وأكثر مرارة . فكل يوم يمضي يسلب فتنةً من معبوداتنا ، حتى نكتشف أخيراً أنها ليس لها الميزة ولا الجمال اللذان زينا بهما صورها المثالية . ولكن السحر القاتل يظل مع هذا ، ويا للأسف ، يسيطر علينا ، ويظل يجرّنا إليه ، حاصداً الزوبعة من الرياح التي بذرناها مراراً ؛ والقلب العنيد الذي بدأ يجرب

كيمياءه كصاحب الصنعة ، يعتقد فى نفسه أنه قد قارب الظفر بمطلوبه وأنه قد صار غنياً فى اللحظة التى يكون فيها أشد ما يكون إملاقاً وفقراً .

— ١٢٤ —

إننا نذبل منذ عهد شبابنا ، ويتخوّننا السقم ويتخدّد لحمنا ؛ ويظل الدواء مجهولا لدينا ، ولا نستطيع أن نُرْوِى شفاهنا المحترقة عطشاً ، على الرغم من أننا أحياناً ، ونحن فى خريف حياتنا ، نرى خيالا يغرينا ، شبيهاً بذلك الذى نشدناه فى مستهل عمرنا . ولـكنه يأتى متأخراً جداً ، فنصير بائسين بؤساً مزدوجاً . الحب والشهرة والطموح والجشع — كلها سيان ، فـكل منها لا نفع فيه ولا غناء ، وكل منها شر وبلاء ؛ لأنها جميعاً شهب خدّاعة ذوات أسماء مختلفة ، والموت هو الدخان الأسود الذى يفنى فيه اللهيب .

— ١٢٥ —

قليل من الناس ، بل لا أحد يجد ما يحبه أو ما كان يمكن أن يحبَّه ؛ فعبثاً تَطرد الصدفة والتقارب الأعمى وضرورة الحب الصارمة ، عبثاً تطرد كل هذه الأشياء كلَّ أنواع الـكراهية لدينا ؛ إذ سرعان ما تعود وقد سمّمتها إهانات لا تغتفر ؛ والظروف ، هذا الإله غير الروحى ، هذا المشوِّه للخلق ، يصنع

ويُعين كوارثنا المقبلة بعصا يحيل لمسُها الأملَ إلى تراب — تراب قد وطئناه أجمعين .

— ١٢٦ — [(١)]

حياتنا جوهر زائف : إنها ليست تقوم فى انسجام الـكلّ .
فلماذا هذا القضاء الرهيب الذى قضي به علينا ؟ ولماذا هذه الوصمة التى لا تمحى ، وصمة الخطيئة ؟ إننا نستظل بدوحة هَدّامة ، دوحة أو ياس ذات غصون هائلة : أما جذرها فهو الأرض كلها ؛ وغصونها وأوراقها هى السموات التى تقطر وتصبّ على الإنسان مصائبها التى لا تنفد ، كأنها الندى المتساقط : فالمرض والموت والعبودية ، وكل الشرور التى نراها ، وأدهى منها ، كل الشرور التى لا نراها ، كلها تطارد النفس جياشةً لها إلى ألوان من العذب متجددة لا تنقطع أبداً .

— ١٢٧ —

لـكن دعنا نتأمل أنفسنا ومصيرنا بجرأة وجسارة ؛ إنه تخلٍّ شائن عن العقل أن نتنازل عن حقنا فى التفـكير ، وهو ملاذنا الوحيد الأخير ؛ وهو على كل حالٍ ملاذى أنا وسيظل كذلك أبداً . فعلى الرغم من أن هذه الملـكة الإلٰهية مغلولة معذبة ، قد ضيق عليهـا الخناق واعتقلت فى الظلام ، خوفاً من أن يشرق الحق بجلاء كبير على العقل غير المتأهب ، فإن الشعاع ينفذ مع

(١) فى هذه الفقرة كل فلسفة بيرن ، وفيها أصدق تعبير عن تشاؤمه .

ذلك ، لأن الزمان والذكاء يشفيان عمانا .

— ١٢٨ —

أقواس فوق أقواس ! ليخيّل إلى المرء أن روما قد حشدت كل غنائم محاربيها وجنودها وأرادت أن تصنع تمثالاً واحداً من كل أقواس نصرها ! إنه الكوليسيوم [١] . وها هي ذى أشعة القمر الفضية تتلألأ كأضوائه الطبيعية ؛ ويخيّل إلى المرء أنه لا يمكن أن يكون غير النور الإلٰهى هو الذى يستطيع وحده أن يضيء هذا الكنز من التأملات الذى لا ينفد . وإن الظلال الزرقاء لليلة من ليالى إيطاليا ، الظلال التى تحلّق فوق هذا البناء الفخم الرائع ، لتبدو كنقاب أُلقى على عظمتها .

— ١٢٩ —

هنا تبدو قبة السماء قد وُهبت القدرة على الكلام : فإنها تعلن الخلود . وأشياء هذه الدنيا ، التى طبعها الزمان بآثار أقدامه ، يحيا فيها نوع من العاطفة والشعور ؛ وحيث أهوى بيده ، وتحطم بمعوله الهدّام ، توجد قوة وسحر فى الشُّرفات الدارسة ، تفوق فخامة هذه القصور الفاخرة التى لا تزال تنتظر بائنة العصور والأزمان .

---

(١) بناء ضخم فى روما ، على هيئة مسرح هائل هو أكبر مسرح فى العالم ، كان يجرى فى ساحته الصراع بين الأسود وبين المصارعين والعبيد .

— ١٣٠ —

أيها الزمان ! يا من تزيّن ما مضي ، وتعبد الأطلال ، ولا تواسي القلب أو تأسو جراحه إلا بعد أن تنزف منه الدماء . أيها الزمان ! يا من تصلح أحكامنا حين تخطىء ، يا محكّ الحق والحب ، أنت وحدك الفيلسوف ، ومن عداك كلهم سوفسطائيون . أيها الزمان ! أيها المنتقم الذى لا يفقد شيئاً و إن تأخر ميعاده — إننى أرفع إليك يدىّ وعينىّ وقلبي وألتمس منك منحة :

— ١٣١ —

وسط هذه الأنقاض التى بنيت لنفسك فيها معبداً ومذبحاً تزيد الوُحدةُ الهائلةُ من قداسته ، أود أن أقدم ، بين القرابين التى هي أخلق بك ، قرباناً هو الثمار المُرّة لسنوات ، إن تكن قليلة ، فإنها مليئة بالكوارث . فإذا كنت رأيتنى منتفخ الأوداج من فرط الكبرياء ، فارفض أن تستمع إلىّ ؛ لكن إذا كنت متواضعاً فى عهد النعمة ، وإذا كنت قد احتفظت بأنَفَتى ضد الكراهية التى طاردتنى دون أن ترهقنى ؛ فاجعلنى لا أحمل هذا السهم عبثاً فى نفسى — فهل لن ينوح أعدائى ؟

— ١٣٢ —

وأنت يا إله الانتقام العظيم الذى لم تترك يدك ميزان مظالم بنى الإنسان ؛ أنت يا من دعا الفوريّات من أعماق الهاوية

وأمرتها بأن تطارد بحيَّاتها أورست [١] ، كيما تلومه على انتقام كان سيكون عادلا لو أن يداً أخرى هي التي أنجزته ! هنا فى هذا المكان الذى بَجّلك فيه الأقدمون ، وخصصوه لعبادتك ، هنا أدعوكِ اليوم . أولا تسمع صوت قلبي ؟ إننى أدعوكِ من التراب ، فاستيقظ ! ستسمع لى وعليك أن تفعل !

— ١٣٣ —

ليس هذا لأنى قد لا أستحق الجرح الذى أصاب قلبي ، بأخطائى أو أخطاء آبائى . ولو كانت اليد التى أصابتنى يداً عادلة ، إذن لما كانت قد سعيت إلى وقف دمى عن سيلانه . ولكنى لا أريد أن تبتلعه الأرض . إنما أهبه إياكَ ؛ وأنت الذى ستتكفل بالانتقام ؛ ولا يزال الوقت وقت إيجاده . وإذا لم أكن أنا قد سعيتُ إليه ، احتراما لِـ . . . دعنا من هذا ! إننى أنام ، ولكنك ستظل ساهرا .

— ١٣٤ —

وإذا كان صوتى قد انطلق ، فليس ذلك لأنى أرتعد من

(١) أورست ، هو ابن أجمنون وكليتمنسترا . ولما قتلت كليتمنسترا أباه ، أنقذته أخته إلكترا من خنجرِ أمـه ، وحمل سرّيا إلى قصر استروفيوس ، ملك فوكيس الذى كان زوج أخت أجمنون . فرباه هذا مع ابنه بيلادس ، مما ولد بينه وبين هذا صداقة نادرة المثال . ولما بلغ أورست أشده ، انتقم لأبيه بأن قتل أمـه كليتمنسترا وخليلها الزانى إيجستوس .

ذكرى ما تحملته من آلام : فليتكلم هـذا الذى رأى جبينى شاحباً ، أو شاهد قلبى قد خارت قواه فى حشرجاته القاتلة . ولـكننى أريد أن تـكون هذه الصفحة أثراً خالداً لذكراى ؛ وكلماتى لن تذهب أدراج الرياح ، حتى لو صرت تراباً ؛ وسيأتى اليوم الذى ستحقق فيه كل التنبؤات العتيقة التى أودعتها فى هذه الأشعار ، وستنصبُ أكداس لعناتى على رءوس أعدائى .

— ١٣٥ —

هذه اللعنات ستكون غفرانا . اشهدى يا أرض ، يا أمى ، واشهدى يا سماء ! أفلم يقدّر عَلَىَّ أن أناضل مع مصيرى ؟ أفلم أقاسِ آلاماً لا تستحق إلا الغفران ؟ أفلم يتحطم عقلى ويتمزق قلبى وتتبدد آمالى وتثلم سمعتى ، وأخان فى أعز ما أملك فى حياتى؟[1] وإذا كنت لم استسلم لليأس القاتل ، فذلك إنما كان لأنى لم أخلق تماماً من نفس الطين الذى جُبِلت منه نفوس أعدائى .

— ١٣٦ —

من أشنع الاضطهادات وأشدها قسوة وصرامة ، حتى أتفه الدناءات الخائنة ، أفلم أبصر كل ما يستطيع حقدُ النـاس أن يفعله ؟ فتارة كانت النميمة المُزْبدة غضباً تتهمنى بأعلى صوتها ؛ وتارة أخرى كان الحساد الجبناء يتهامسون باسمى ويقطرون سُمّا ناقعاً خفيا ؛ وكانت وجوههم المنافقة ، التى تبصر بعيون تفهم

(١) هنا إشارة إلى ما فعلته به زوجته .

الصمت ، تبدو مخلصة ، ولـكنها كانت بدون همس ولا حركة غير الإشارة أو الزفرة الزائفة تُبلغ وشايتها الخرساء إلى جماعة الحمقى السذج .

— ١٣٧ —

ولـكنى حَيِيت ، ولم أَخْشَ عبثا . فقد يفقد عقلى قواه ، ودمى حرارته ؛ وقد يفنى بدنى وأنا أصارع آلامى ؛ ولـكن ثمة فى نفسي شيئاً يتحدى العذاب والزمان ، و يظل حياً حينما أموت ؛ شيئاً إلهياً غير أَرْضِى،أشبه ما يكون بالذكرى التى تتركها الأصوات الأخيرة لقيثارة خرساء ، سينزل على قلوبهم بعد هدوئها ، هذه القلوب المتحجرة اليوم ، فتشعر حينئذ بندمٍ للحب متأخر .

— ١٣٨ —

وهأنذا قد ختمت على آلامى وشـكاتى. فسلاماً إليك الآن ، أيتها القوة[1] الرهيبة ، التى نجهل اسمها ، ولـكنها تـكشف لنا عن نفسها بواسطة سحر لا يمكن مقاومته ، حينما أجتاب فى ظلام الليل هـذه الأماكن فتلهميننى هدوءاً عميقاً لا يشبه مطلقا هـدوء الخوف ! إن مقامك حيث تبدو الأسوار الدارسة مغطاة برداء من العلّيق ؛ وهذا المنظر الرائع يأخذ عنك معنى عميقا قد بلغ من الوضوح حداً يجعلنا نصير بضْعة مما قد كان ، ونستشرف إلى الماضي شهوداً عليه غير منظورين .

(١) يمكن أن تكون الزمان أو الانتقام أو روح القِـدَم .

— ١٣٩ —

ها هنا ترددت جلبة الأم الطامعة التى كانت تعبر عن عطفها بهمس خافت ، أو تصفق تصفيقاً حاداً حينما يُذْبح الإنسان بواسطة أخيه الإنسان . ولماذا يُذبح ؟ لماذا ، لأن هذا كان قانون السِّرك الدامى ، ولأن هــذا كان يجلب السرور إلى قلب الأمبراطور ! ولِمَ لا ؟ فسيان صِرْنا قوتا للدود ، أو سقطنا فى ميدان القتال أو جُندلنا فى ساحة السرك ! فكلاهما ليس إلا مسرحاً يتعفّن فيه أهمّ الممثلين .

— ١٤٠ —

وها هو ذا المُسايف [١] يتراءى أمام ناظرىّ ، وقد أسند رأسه إلى يده ؛ وجبينه الفتىّ يدل على أنه قد قبل أن يموت ، ولـكنه يغالب الألم والحشرجة ؛ ورأسه تسقط إلى أسفل تدريجياً ؛ والنقط الباقية من دمه تفرّ من صدره المشقوق ببطء واتئاد ، وتسّاقط كما تساقط القطرات الأولى من المطر . وها هى ذى الساحة تدور من حواليه وتسبح ؛ وها هو ذا قد فارق الحياة قبل انتهاء التصفيق القاسي الذى حيا ذلك البائس الذى انتصر .

(١) تمثال مشهور موجود فى متحف الـكابتول ، يسمى عادة باسم : « المسايف المحتضر » وبيرن لا يصف التمثال ، إنما يصف هذا المسايف وهو يصارع فى ساحة الـكوليسيوم .

— ١٤١ —

لقد سمع له ، ولـكنه لم يحفل به ؛ فقد كانت عيونه فى قلبه بعيدة عن هذا المـكان . أما النصر وأما الحياة التى فقدها ، فلم يساويا شيئاً عنده ؛ لـكن خُيِّل إليه أنه يرى كوخه الوحشي على ضفاف الدانوب ، وأطفاله الصغار كلهم يلعبون ، وأمهم الدا كية[1] جالسة إلى جوارهم ، بينما هو ، أبوهم ، قد ذبح من أجل عيد فى روما — كل هذا امتزج بدمه . فهل يقضي نحبه دون انتقام ؟ ألا أيها القوط ، هبّوا ، وأطفئوا نار حميتكم !

— ١٤٢ —

ولـكن هنا حيث تنفّس القتلُ ريح الدماء ؛ وهنا حيث سدّت الأمم كلّ الشّعاب وزأرت وزمجرت أو همست كأنها سيل جبلى يندفع و يتواثب و يتلوى فى مجراه ؛ هنا حيث كانت الحياة والموت لعبـة ومسلاة للشعب الرومانى ، يتوقفان على أهواء الجمهور — هنا تردد صوتى وحده فى هذه اللحظة ، وأضاءت أشعة القمر الشاحبة الساحة المهجورة ، والدرجات المنهارة والجدران التى عَفى عليها الزمان ، والأروقة الأرضية التى أيقظ فيها وقعُ أقدامى الأصداء .

(١) نسبة إلى مقاطعة دا كيا ، التى يسكنها محاربون أشداء ، وتقع على الشاطىء الشمالى من الدانوب الأسفل ، وقد فتحها الرومان فى عهـد ترايان سنة ١٠٣ . وهى تشمل الآن مقاطعات فالاقيا وترنسلفانيا ومولدافيا . واليها ينسب بيرن هذا المسايف .

— ١٤٣ —

إنه طلل ، ولـكن أى طلل ! منه بنيت جدران وقصور وأنصاف مدن وأسوار ؛ غير أنك تتجول طويلاً فى هذا الهيكل العظمى الهائل ، وتندهش مما عسي أن يكون ما أخذ منه ووضع فيه من مكان . فهل سُطى عليه ونهب حقاً ، أم أزيلت منه هذه الأشياء لتكدسها فيه ؟ وا أسفاه ! حينما تفحص جيداً هذا الأثر الضخم ، يظهر لك الثلم واضحاً أمامك ، فلا يحتمل ضوء النهار ، لأن أشعة الشمس تضيء بكل وضوح الأشياء التى أعمل فيها الزمان والإنسان معولهما .

— ١٤٤ —

لـكن حينما يبدأ القمر فى الصعود إلى ذروة عُلاه ، ويتلبث فوقه برقةٍ وسكينة ؛ وحينما تلمع النجوم من خلال ثُغُرات الزمان ويتماوج نسيم الليـل العليل فى الجو الرقيق مع الغابة التى تغطى هذه الأسوار الغبراء ، كأنها الغار على رأس قيصر الأول الصلعاء[١] ؛ وحينما يتلألأ الضوء ساجياً غيرخاطف للأبصار —

(١) « يذكر سويتون أن مجلس الشيوخ قد سمح ، بصفة شخصية جداً ، لقيصر بأن يحمل على رأسه دائماً تاجاً من الغار . ولم يشأ قيصر بهذا أن يدل على أنه فاتح العالم ، إنما أراد به أن يخفى صلع رأسه . وكان من العسير جداً على الأجنبي أن يفهم الداعى إلى هذا ، لو أنه رآه فى روما ؛ ونحن أيضا ما كان فى وسعنا أن نفهم علة هذا ، لو لم يرشدنا إليها ذلك المؤرخ » (بيرن) .

حينئذ يستيقظ الموتى فى هذه الدائرة السحرية : لقد وطىء الأبطال هذا المكان ؛ وأنت تدوس الآن على ترابهم .

— ١٤٥ —

« حيث يقوم الكوليسيوم ، تقوم روما ؛ وحينما يسقط الكوليسيوم ، تسقط روما ؛ و إذاسقطت روما ، سقط العالم[١] » : بهذا كان يتحدث الحجاج من بلادنا وهم عند هذا البناء الشامخ فى أيام السكسون ، التى ندعوها باسم الأيام القديمة ؛ ولا زالت هذه الأشياء الثلاثة الفانية قائمة على أُسُسها ، لم يلحقها دثور ؛ روما ، وأطلال الكوليسيوم التى لايستطيع شيء أن يعيد بناءها ، والعالم ، هذا الكهف الواسع الذى يقطنه — لصوصٌ ، أو مَنْ شِئْتَ .

— ١٤٦ —

أيها البسيط ، الرائع[٢] ، القاسي السامى معاً فى عمارتك ، المُكرّس لكل القديسين ، أيها المعبد لكل الآلهة ، من چوبتر حتى المسيح — لقد أبقى عليك الزمان وبارك حولك . أنت تبدو هادئاً ، بينما كل ما حولك يترنح أو يسقط وينهار من

---

(١) كلمة قالها بيد المحترم ، وهو مؤرخ وراهب (٦٧٥ — ٧٣٥) .

(٢) هنا يصف بيرن البنثيون ، وهو معبد مشهور فى روما ، بناه أجْربّا ، فى أيام حكم أوغسطس ، وكمايدل عليه اسمه ، كان مكرساً لكل الآلهة . وقد أصابته صاعقة ، فتهدم منه جزء . فقام أدارن بإصلاحه .

أقواس وأمبراطوريات ، والإنسان يجرى دائماً إلى تراب قبره فى طريق معبّد بالأشواك . أيها البناء الماجد ، هل ستبقى أبداً ؟ إن منجل الزمان وصولجان الطغاة قد تحطما على أحجارك ، أنت معبد وملاذ للفنون وللدين ، أيها البنثيون ، أنت فخر روما !

— ١٤٧ —

أيها الأثر المتخلف عن زمان ملىء بالأمجاد وفنون بلغت ذروة النبل ؛ أصابك التهديم ، ولكنك لا زلت كاملا ، يستروح المرءُ فى حرمك قداسةً تهيب بكل القلوب . أنت نموذج للفن . ومن يَسعَ إلى روما نشداناً لذكرى الأجيال يخيلْ إليه أن المجد لا يُلقى شعاعه إلا من خلال نافذتك وحدها ؛ ومن ينشد التقوى ، يجد هنا مذابح يقدمون عليها صلواتهم ؛ ومن يأت للإعجاب بما أنتجته العبقرية ، يستطع أن يُريح عيونه على صور عظماء تزين تماثلُهم النصفيةُ هذا البناء .

— ١٤٨ — (١)

ولكن ها هنا سجن . فماذا أبصر فى ظلام محانيه ؟ لا شيء . تأمل ثانية : فها هما صورتان تتقدمان ببطء أمامى ؛ إنهما شبحان من نسج خيالى . كلا ، بل إنى أراهما حقاً أمامى كاملين : شيخ

(١) « فى هذه الفقرة والثلاث التالية إشارة إلى قصة الفتاة الرومانية التى يذكّر الرحالة بها مكانُ هذه الحادثة (أو المكان المزعوم لها) فى كنيسة سان نيقولا فى السجن » (بيرن) .

عجوز وامرأة جميلة شابة نضرة كأنها أمّ حانية على وليدها ، قد استحال دمها إلى تسنيم . ما ذا تفعل هنا ، بجيدها البلورى العارى ونهودها البيض البارزة ؟

— ١٤٩ —

إن هذا الينبوع الصافى العميق للحياة الشابة ينمو و يفيض ؛ إننا نأخذ أول قوتنا وأعذبه من قلب أمّنا وعلى قلبها نقتات ؛ ما أسعد الزوجة الشابة حينما ترى نظرة ابنها البريئة وتمتمة شفتيه الخفيفة اللتين تعبران عن طمأنينة وخلوّ من كل ألم ! إنها تفهم السرور الذى يخالج قلب رضيعها ! أما الرجل فلا يستطيع أن يتنبأ به ؛ وهى تتحلى بمنظر ابنها الحبيب وهو راقد فى مهده ، كأنها برعم من الورد يتفتح قليلا قليلا . من سيكون هذا الطفل ؟ لست أدرى ؛ فحواء قد ولدت قابيل .

— ١٥٠ —

لكن هنا تقدّم امرأة فتيّة هذا القوت الثمين إلى الشيخوخة ، لا إلى الطفولة ؛ إنها تعطى أباها الدم الذى تلقته منه مع الحياة . كلا ، إنه لن يموت طالما استمرت نار الصحة والإحساس البنوى المقدّس فى هذه الشرايين الحارّة الجميلة تغذّى نيل الطبيعة الكبرى ، الذى يفيض مجراه العميق بأعلى مما يفيض به نهر مصر . من هذا الصدر اشرب واحْىَ ، أيها اليَفَن الكبير ! فليس فى الجنة ما يشبه هذا الكوثر .

— ١٥١ —

إن أسطورة المجرّة فى السماء ليس لهـا من الصفاء ما لهذه القصة التى تلمع بشعاع عذب ، والطبيعة تنتصر فى هذا القلب لأوامرها وقوانينها ، أكثر من انتصارها فى الفراغ العالى الذى وضعت به عوالم رفافة بالنور . أيها الطّئر المبجّلة ! لن تضيع أية نقطة من اللبن الذى سيُحيي موات قلب أبيك ، ويرد له الحياة التى تلقيتها منه ! إن هذا اللبن إنما يعود إلى ينبوعه الأصلى ، كما تعود نفوسنا إلى حِضْن الـكون حينما تفرّ من قيود البدن .

— ١٥٢ —

لـكن ، لنصوّب الطرف إلى حجر هادريان[١] الذى يحاكى أهرام مصر العتيقة ، يحاكى هذه الـكتلة من التشويه . لقد شاء هوى أمبراطور أن يبحث عن هـذا النموذج الهائل على ضفاف النيل البعيدة ؛ وقضى على الفنان أن يعمل وكأنه يبنى لمردة عمالقة ، وأن يقيم هذا البناء كيما يضم يوماً ترابه التافه . وإن الناظر إليه ليبسم بسمة فلسفية عريضة وهو يبصر هـذا التصميم الهائل الذى انبثق من فـكر مثل هذا الكائن .

---

(١) حُوّل ضريح هادريان إلى قصر سنت أنجلو منذ سنة ٥٣٠ ميلادية ؛ وعلى قمته صورة ملاك ، ومن هنا جاء اسمه . وهناك ممر يربط بين هذا القصر وبين قصر البابا فى الفاتيكان .

— ١٥٣ —

لـكن تأمل ! فها هوذا المعبد [١] الواسع الرائع الذى تبدو عجيبة ديانا صومعة لو قورنت به . إنه معبدُ المسيح المقدسُ قد أقيم على قبر شهيده . لقد رأيت عجيبة أفسوس وتأملت أعمدتها المتناثرة فى الصحراء ، والضبعُ وابن آوى يرقدان تحت ظلاله ؛ ورأيت قبة أيا صوفيا ترتفع وتصّاعد كأنها كرة تتألق فى شعاع الشمس ؛ ودخلت هيكلها بينما كان المسلمون الذين استولوا عليها يؤدون فريضة الصلاة ؛

— ١٥٤ —

لا يمكن أن يقارن بك معبد أو مذبح قديم أو جديد ، أيها البناء الرائع الأقدس الأصدق ، الجدير وحده بالله . منذ خراب صهيون ، حينما تخلى العَلِيُّ القدير عن مدينته القديمة ، ما هو أجلّ بناء أقامه بنو الإنسان تقديسا له ؟ العظمة والجلال والقدرة والقوة والجمال — كلها قد جُمِعت فى هذا المعبد الخالد .

— ١٥٥ —

ادخل : فإن عظمته لن ترهقك أبدا ؛ ولماذا ؟ ليس هذا لأنه يتضاءل ؛ ولـكن عقلك يتسع بفضل روح هذا المـكان وينمو

(١) هنا يبدأ وصف كنيسة القديس بطرس بروما ، التى تعد أعظم كنائس الدنيا .

وعجيبة أفسوس هى معبد ديانا فى مدينة أفسوس بآسيا الصغرى ، وكان إحدى عجائب الدنيا السبع .

نمّوا هائلا ، ولا يجد بعد مأوى جديراً به فى غير هذا المعبد الذى وضعت فيه كل آمال الخلود . وسيقدر لك يوماً ، إن كنت جديراً بهذا ، أن تعاين الله وجهاً لوجه ، كما تعاين الآن قدس أقداسه ؛ ستعاينه دون أن تقضي عليك نظراتُه .

— ١٥٦ —

أنت تتقدم ، ولـكن أناقة هذا المعبد الهائلة تخدعك ، إذ يزداد نمواً واتساعاً كلما ولجت فيه ، كأنه جبل عال تبدو قمته كأنها تتباعد من خطوات مَن يصعدونه . وكلما نما ، ازداد ظهور الانسجام بين أجزائه الضخمة ؛ وتتبدى أمام عينيك المشدوهتين أنواع من المرمر الفاخر ، ولوحات ثمينة ، ومذابح تضيء فيها مشاعل من الذهب ؛ كما تتراءى القبّة السامية التى تنافس فى علوها أجمل الأبنية . فعلى الرغم من أن أسسها قد أقيمت على الأرض ، فإن السحب تتنازعها .

— ١٥٧ —

إنك لا تستطيع أن ترى كل شيء دفعة واحدة ، بل عليك أن تقسّم هذا الـكلَّ العظيم من أجل أن تتـأمل كل جزء بعد الآخر . وكما أن المحيط يكوّن سواحل تستحق منك أن تنظر إليها ، فاحشد انتباهك حول كل موضوع مفرد على حدة ؛ وركز فيه كل خواطرك وأفـكارك حتى تنقش فى ذاكرتك نِسَبه الأنيقة ، وتنشر تدريجياً اللوحة الرائعة التى لم يكن من

المستطاع أن تقدم كلها دفعة واحدة أمام عينيك اللتين لا تقويان على أن تستنفضها بنظرة شاملة .

— ١٥٨ —

وما الخطأ منها ، بل منك أنت : فحواسنا قد بُرِئت على نحو من شأنه أن يجعلها لا تدرك شيئاً إلا على درجات ، وما نشعر به من عواطف عميقة يتجاوز نطاق كل بيان . وهكذا ، فإن هذا البناء فوق طاقة إعجابنا : فعظمته الخارقة البراقة تتحدى حقارة طبيعتنا وضآلتها ، إلى أن نرتفع بنفوسنا وننميها إلى مستوى ما نتأمله .

— ١٥٩ —

قف قليلا واملأ روحك من فيض هذا النور . فها هنا أكثر من إرضاء الدهشة ، وها هنا أكثر من تلك العاطفة الدينية التى نتوجه بها إلى إله معبد ، أو مجرد الإعجاب بالفن و بكبار الفنانين الذين استطاعوا أن يقيموا تمثالا أعظم من كل ما أبدعه الأقدمون . و إن ينبوع السموّ ليجد هنا أعماقه ، ومنه يقود عقلَ الإنسان رمالَه الذهبية ، ويتعلم كل ما يمكن إبداعه من أفكار وروائع .

— ١٦٠ —

أو دعنا نذهب إلى الڤاتيكان كيما نشاهد الألم وقد مجّده عذاب لاؤكون (١) : حب والد وحشرجة فانٍ يحتملها صبر إله .

(١) تمثال لاؤكون تمثال فى الفاتيكان . أما لاؤكون فابن بريام ، وكان كاهنا لأپولون ، كلفه أهل طروادة بأن يقدم قربانا إلى نپتون، إلـه البحر،=

عبثا يناضل ! عبثا يتوتر ذراع شيخ عجوز ضد الثنيّات الملتوية التى يحوكها التنّين من حوله : إن هذه السلسلة الحية تأسره فى حلقاتها المسمومة ؛ والوحش الهائل يزيد فى تعذيبه ثم يقضي على زفراته المختنقة القضاء الأخير .

— ١٦١ —

أو تأمل الإله[1] الذى يَقذف قوسُه سهاماً قاتلة محتومة ، إله الحياة والشعر والنور : هذا الشمس فى صورة الإنسان . لقد

= من أجل أن يعينهم. لكن حدث أثناء تقديمه القربان أن خرجت عليه من البحر حيّتان عظيمتان ، هاجتا ابنيه اللذين وقفا إلى جوار المذبح . فحاول أبوهما أن يردهما عنهما ، غير أن الحيتين انقضتا عليه وعصرا جسمه بين التواءاتهما المخيفة ، حتى مات وهو يعانى أشد أنواع الألم والحشرجة ، وكان هذا عقابا له عن محاولته اقناع الطرواديين بعدم أخذ الحصان الخشبي الذى عمله اليونانيون حيلة وخدعة . وقد ساهم فى نحت هذا التمثال ثلاثة نحاتين من رودس هم بوليدورس واجيساندروس وأتينودورس ، وقد أثار من حوله الكثير من الجدل ، فى المانيا فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن الماضى ، بين كبار النقاد الفنيين . راجع كتابنا « شوپنهور » ص ١٨٦ — ص ١٨٨ ، القاهرة سنة ١٩٤٢ .

(١) هو أپولون، إله الشعر والنور، وله تمثال مشهور ، حينما كتشف وجدت يده اليسرى ناقصة ، فأكمله أحد الفنانين من أتباع مدرسة ميكلنچلو . وهذا التمثال ، المعروف بأپولون بلفدير ، يمثل أپولون بعد أن أصاب پيثون (وهى حية مشهورة قتلها أپولون بسهامه) ؛ ويمتاز بالبساطة والعظمة معا ، وفى وجهه تعبير عن الانفعال والغضب والاحتقار غير أنه يعوزه شيء من الحياة .

أضاء جبينَه النصرُ الذى أحرزه : فالسهم قد انطلق يتلألأ فيه انتقام كائن خالد ؛ وفى عينيه وفى حركة أوداجه تعبير عن احتقار جميل ؛ وفى وجهه صولة وجلال يبرقان أجمل بريق ؛ وفى نظرته وحدها ما ينبىء عن إله .

— ١٦٢ —

لكن فى شكله الرقيق الأنيق يتبدى حُلم الحب ، الذى تصوره حورية متوحّدة يشتاق قلبها إلى عاشق سماوى ، ويصيبها الجنون من هذه الرؤيا الفاتنة . فى شكله إذن تعبير عن كل ما بارك حوله الجمالُ المثالى فى نفس شاعت فيها أنبل العواطف التى تسمو على الانسان ، حينما تكون كل فكرة من أفكارها وحياً من السماء ، ونوراً خالداً يرسل من بعيد بريقاً إلهياً فيه تحقيق لصورة الله .

— ١٦٣ —

وإذا كان حقاً أن بروميثيوس قد اغتصب من السماء النار التى نستدفىء بها ، فقد كوفىء من أجل هذا بفضل هذا الفنان الذى استطاع أن يضفى على هذا المرمر الشّعرى كمالاً خالدا . فإذا كان هذا من عمل كائن فانٍ ، فليست الفكرة من ابتكار إنسان ، لأن الزمان نفسه قد عدّها مقدسة فى عالم الخلود ، ولم يُحِلْ غدائرها إلى تراب ؛ إنها تتلوث بغبار السنين ، ولا تزال تتنفس اللهيب الذى أشرف على تكوينها .

— ١٦٤ —

لـكن ، أين هذا الرحالة الذى أتغنى به فى أشعارى هذه ، هذا الذى أعان إلهامى فى الماضي ؟ يخيّـل إلىّ أنه قد تورّك وأتى متأخرا . لقد مضي ، وهذه آخر أنفاسه . لقد انتهت جولاته وتبددت رُؤاه ، ولم يَعُدْ بعدُ شيئا مذكورا . لئن كان قد كان شيئاً آخر غير خيال ، وإذا كان من الممكن عدّه واحداً من الأشباح التى تحيا وتتألم — فليكن هـذا ، ولـكن شبحه يفنى الآن فى هاوية الخراب والعدم .

— ١٦٥ —

هنا حيث تلتقى الظلال والجواهر والحياة وكل ما نرثه منه فى صورتها الفانية ؛ وحيث نشر قناع شامل من خلاله يصير كل شيء شبحا ؛ والسحابة التى تفصل بيننا قد زالت فيها هى وكل ما برق وتلألأ حتى يأتى المجد نفسه فيصير أصيلاً وغروبا ، ناشراً هالة من الحزن على شفا الظلام ، هي شعاع أشد كآبة من أشد الليالى كآبة ، لأنه يُلْهِى أنظارنا ،

— ١٦٦ —

ويرغمنا على تأمل أعماق الهاوية ، نشداناً لما عسي أن نصير إليه يوماً ما ، حينما يُلْقَى بنا إلى ما تحت وجودنا البائس . ومع هذا ، فلا نزال نحلم بالمجد ! ونود أن يضيء هذا الاسم الزائف الذى لن نسمعه بعد . يا لها من فـكرة مواسية ! ليس فى وسعنا

أن نصير ما نحن عليه فى جوهرنا . أفلا يمكن أن نكون قد احتملنا مرةً الأثقال التى أبهظت نفوسنا ؟ نفوسنا التى فاض عليها العذاب ، وقلوبنا التى كان عرَقُها دماً جاسداً .

— ١٦٧ — (١)

صه ! فإن صوتاً قد ارتفع من أعماق الهاوية ، إنه زمزمة بعيدة رهيبة ، كأنه صوت أمّة أصابها جرح بالغ مميت . وفى وسط الزوبعة والظلام ، تنشقّ الأرض وتنتحب : والهاوية غاصة بالأشباح : منها ما يتبدى فى صورة مَلِكةٍ ، على الرغم من أن جبينها لم يعُد بعدُ مكلّلا بالتاج . وعلى الرغم من شحوبها ، فلا تزال جميلة ، تضم إليها طفلها بألمٍ أمومى ، وعبثاً تحاول أن تقدم إليه ثديها .

— ١٦٨ —

أيها الفرع الأخير لأصلاب من الملوك ، أين أنتِ ؟ أيها الأمل لعدة أمم ، هل توقفتِ عن الحياة ؟ أولم يكن فى وسع القبر أن ينساكِ ، ويختار بدلا منك رأساً أقل عظمة وأضأل مكانة ! أيتها الأم للحظة عابرة ، وا أسفاه ! فى وسط هذه الليلة

---

(١) هنا يبدأ بيرن رثاءه للاميرة شارلوت ، التى توفيت فى نوفمبر سنة ١٨١٧ ؛ وكانت ابنة الوصى على العرش ، الذى صار من بعد جورج الرابع . وكانت محبوبة من الشعب الانجليزى حبا كبيراً ، بعكس أبيها . وتزوجت الأمير ليوپولد ، أمير ساكس كوبرج (الذى أصبح فيما بعد أول ملك لبلجيكا) ؛ غير أنها توفيت وهى تلد ، بعد ثمانية عشر شهراً .

الحزينة : بينما كنتِ تنوحين على طفلك ، أتى الموت فأنهى كل آلامك ! و بموتك ماتت سعادتنا الحاضرة ، وتلك التى أملت فيها فى المستقبل الجزرُ الأمبراطورية .

— ١٦٩ —

إن الفلاحة تلد دون أن يقتضيها الميلاد فقدان الحياة . أما أنت فقد كنت سعيدة يعبدك شعبك ؛ وهؤلاء الذين لا يبكون على الملوك [1] سيبكون مع ذلك عليكِ أنت ؛ وإن قلب الحرية الدامى قد توقف عن تكديس أحزانه على فرد واحد ؛ لأن الحرية قد أطلقت دعواتها إليك ومن أجلك ، ورأت قوس قزحها قائماً فوق رأسكِ . وأنت أيضاً ، أيها اللورد المتوحّد ، أيها الزوج البائس المكروب ! هل بنيت بها عبثاً ! لقد كنت زوجاً لعام ، وأباً لطفل لم يَعِشْ !

— ١٧٠ —

أواه ! لقد كان ثوب زفافك رداء حدادك ؛ وثمرة زواجك لم تكن إلا تراباً . آه ! لقد رقدتِ فى التراب ، تراب اللحد ، يابنة الجزر الشقراء ، محبوبة ملايين رعاياها ! كم من الثقة وضعنا بين يديها ، الثقة بمصيرنا ومستقبلنا ! وعلى الرغم من أن هذا المستقبل لم يكن عندنا غير ليلة القبر ، فقد لَذّ لنا أن نُفكِر أن أبناءنا سيبذلون لابنها طاعتهم وقيادهم ، وسيباركون الأم بذريتها

---

(١) من أمثال بيرن .

المطلوبة . لكن ! ويا أسفاه ! قد كان هذا الأمل لنا مثل نجمة الرعاة المحبوبة — ولكنها لم تكن إلا شهاباً .

— ١٧١ —

وا حسرتاه علينا ، لا عليها ، لأنها ترقد ناعمة بأطيب رقاد . فماذا كانت سترى على العرش ؟ الدخان الواهى الناشيء عن نفخ الحماسة الشعبية ، والنصائح الخداعة تُسديها عصبة من المتملقين ، وهذا الوحى الزائف الذى يُلْقَى فى آذان الملوك والأمراء منذ أن قامت الملكية ، إلى أن تتسلح الأممُ المحمومة بحماسة جنونية . يا له من مصير عجيب يثل عروش أكبر الملوك ، ويضع فى الكفة المضادة ثقلاً مخيفاً لا يلبث أن يحطِّم هؤلاء ، إن عاجلا أو آجلا [١] .

— ١٧٢ —

لقد كان من الممكن أن يكون هذا مصيرها . لكن كلا ، فإن قلوبنا تأبى أن تصدق هذا . فقد كانت شابة ، جميلة ، طيبة من دون تكلف ، عظيمة من غير أن يكون لها أعداء . ثم صارت

---

(١) « قتلت مارية على المقصلة ؛ واليصابات ماتت غما وكداً ؛ وشارلكان مات راهبا ؛ ولويس الرابع عشر مات مفلسا من المال والمجد ؛ وكروموبل مات من القلق ؛ وأعظمهم جميعا ، نابليون ، يحيا سجينا . وفى وسع الانسان أن يضم إلى هذه القائمة من الملوك والأباطرة قائمة طويلة بأسماء أخرى شهيرة وشقية بائسة معا » (بيرن) .

عروساً ثم أُمّاً . واليوم ! كم من روابط مَزقتها تلك اللحظة الرهيبة الكالحة ؟ من قلب أبيك حتى قلب أحقر رعاياك ، تمتد السلسلة الكهربية لذلك اليأس الذى كانت صدمته زلزالا ، حتى ساد الحدادُ هذه البلادَ التى تَنافس أبناؤها فى حبك .

— ١٧٣ —

سلام عليك يا نيمى[١] ! لقد قبعت فى وسط الروابى المجللة بالغابات ، إلى حد أن الريح الصرصر العاتية التى تستأصل شجرة البلوط من جذورها والتى تحمل المحيط على تخطى حدوده ، وتقذف بأمواجه المزبدة إلى أعلى السماء — تُضْطَرّ إلى احترام المرآة البيضاوية لبحيرتك البلّورية . إن سطحها الهادىء هدوء الكراهية المنافقة ، يحمل مظهراً من البرود العميق الساكن الذى لا يستطيع شيء أن يعكِّر صفاءه ؛ وأمواهها تدور حول نفسها ، كأنها حيَّة راقدة .

— ١٧٤ —

وبالقرب منها ، تشع من الوادى المجاور أمواج ألبانو الساكنة ؛ ومن بعيد ينساب تيار التقره ، والمحيط الواسع يرحض

---

(١) « كانت قرية نيمى بالقرب من خميلة إيجريا ، وقد احتفظت إلى اليوم باسم الخميلة ، نظراً إلى الأشجار التى كانت تظل معبد ديانا . ونيمى لا تبعد عن ألبانو الفاخرة إلا بمسافة قصيرة تقطع على الخيول » (بيرن) .

شاطىء لا تيوم حيث قامت الحرب التى تحدثت عنها الملحمة[(١)]
التى تبدأ بهذا المطلع : « السلاح والرجال ... » ، التى طلع نجمها
على أمبراطورية ؛ وعن يمينك مكان التجأ إليه شيشرون نشداناً
للراحة من ضوضاء روما ؛ ومن تلك الناحية التى تحول فيها الجبال
دون الرؤية الواضحة ، كانت تُفْلَح مزارع السابين، التى تفيّأ فيها
الشاعر (هوراس) ظلالَ الراحة .

— ١٧٥ —

ولكنى نسيت أن رحالتى قد بلغ غايته ، وعليه وعلىَّ
أن نرحل فيفترق كلانا عن أخيه . لقد انتهى كلانا من أداء
واجبه أو كاد . لكن دعنا ننظر مرة أخرى إلى المحيط . إن
أمواجه ترف أمام عيوننا المشدوهة ؛ وها نحن نبصر الآن من
فوق جبل ألبانو صديقَ شبابنا، ألا وهو المحيط الذى تتبعناه من
قبل منذ صخور كاليه حتى المِنْطَقَة التى فيها يحيط البحر الأسود
بسمپليجادس الزرقاء .

— ١٧٦ —

لقد مرت سنوات طوال — طوال ، وإن لم تكن عديدة —
منذ ذلك الحين ، وأنتجت أثرها فى كلينا . وبعض من الآلام
والعبرات قد خلَّفتنا فى نفس المكان تقريباً الذى منه بدأنا .

---

(١) هى الانيادة لفرچيل ، التى تروى مغامرات اناس ، الأمير الطروادى الذى أبلى فى حرب طروادة وذهب إلى صقلية وإيطاليا ؛ ثم قتل فى معركة مع الاترورين .

ومع هذا فإننا لم نقض أعمارنا عبثا ؛ بل حظينا بجزائنا ، حظينا به فى هذا المكان . أجل ، ما أجمل هذه المكافأة ، ألا وهي أن نستشعر الغبطة فى شعاع الشمس ، ونحصد من الأرض والبحر ثمار سرور له من النفاسة ما يجعلنا ننسي أن ثمة أناسا لتعكير صفوه علينا .

— ١٧٧ —

آه ! ألا ليت الصحراء مقامى ، ومعى روح ملائكية تشاركنى فى وُحدتى ، حتى أستطيع أن أنسي جميع الناس ، ولا أعشَق غيرها ، دون أن أكره أحدا . وأنت أيتها العناصر ! أليس فى وسعك أن تهبينى مثل هذا الكائن ، أنا الذى أشعر بأسمى الوجد فى حضرتك النبيلة ؟ أواهمٌ أنا حين أظن أن أمثال هذه الأرواح تسكن أكثر من مكان ؟ وإن كان من النادر جداً أن يتاح لنا التحدث وإياهم .

— ١٧٨ —

فى الغابات الطاهرة (التى لم يدنِّسها إنسان) إغراء ، وعلى الشاطىء المهجور سحر وفتنة ، وعند البحر العميق جماعة لم يعكر صفوَها قَدَمٌ ثقيل ، وفى هدير أمواجه موسيقى عذبة . لكن هذا لا يقلِّل من حبي للإنسان ؛ إنما أعشق الطبيعة أكثر منه ، فى هذه اللحظات التى أخلو فيها إليها وأجاذبها أشهى الحديث ، ناسياً كلَّ ما يمكن أن أكونه ، وكلَّ ما كنته من قبل ،

كيما أتحد بهذا الوجود ، فأشعر بما لا أقدر على التعبير عنه ، و إن
كنت لا أقوى على إخفائه كلّه .

— ١٧٩ —

ألا فلتهدر بأمواجك ، أيها المحيط الأزرق الداكن العميق !
إن آلاف الأساطيل تجوب طرقاتك الطويلة دون أن تبلغ أطرافك .
وهذا الإنسان ، الذى يملأ الأرض بآثار تخريبه ، يقف سلطانُه
عند الساحل ، لا يستطيع تجاوزه إليك ؛ وما يجرى على سهلك
المائى من كوارث إنما أنت فاعله ، ولا يبقى عليه أدنى ظلٍ لتدمير
الإنسان ، اللهم إلا ظله هو حينما يسقط فى لحظة كأنه قطرة مطر
فى أعماقك وهو يعوى و يصيح ، يهوِى فيك ، دون قبر ولا كَفَن
ولا تشييع ناقوس ، منسياً من الجميع .

— ١٨٠ —

لا أثر لأقدامه فوق طُرُقاتك ، ومساحاتك ليست من
ممتلكاته وغنائمه ، إذ لا تلبث أنت أن تنهض وتردّه عنك .
والقوة الدنيئة التى يستخدمها من أجل تخريب الأرض لا تثير
عندك إلا الاحتقار والازدراء . إنك تقذف به من أحضانك إلى
أعلى السماء ، وترسل به ، وأنت تلهو وتمزح ، إلى آلهته فى تلك
الأماكن التى وضع فيهـا أعز آماله ، ثم تلقى به على الأرض مرة
أخرى — وهنا تدعه يرقد .

— ١٨١ —

ما هذه الأسلحة الرهيبة التى تصعق أسوار المدن المبنية من الصخر ، وتخيف الأمم ، وتجعل الملوك فى عواصمهم يرتعدون ؟ وما هذه القلاع المتحركة ، الشبيهة بالحيتان الضخمة ، والتى يصل الزهو بأصحابها وبانيها إلى حدّ أنهم يتخذون لأنفسهم لقب سادة البحار ، سادتك أنت أيها المحيط ، والمتحكّمين فى مصائر الحروب ؟ ما قيمة هذه الأشياء كلها فى نظرك ؟ إنها مجرد ألعوبة فى يديك ، تذوب ، كما يذوب زَبَدُك الأبيض ، فى مرارة أمواجك ، التى قضت إنْ على كبرياء الأرمادا أو على غنائم طرف الغار .

— ١٨٢ —

إن سواحلك أمبراطوريات ، كلها تحول وتفنى ، وتظل أنت باقياً أبداً . فأين ذهبت آشور واليونان وروما وقرطاجنة ؟ لقد كانت أمواجك ترتطم على حدودها فى أيام الحرية ، ومن بعد إبان الطغيان ؛ وإن سواحلهم اليوم لتذعن للغريب ، وشعوبها بين عبيد أو برابرة . وإن مصيرهم البائس قد أحال ممالك إلى صحراوات . أما أنت ، فلم يُصبك من هذا شيء . لقد بقيت ثابتاً لم يتغير فيك شيء اللهم إلا ألعاب أمواجك الوحشية ؛ والزمان لم يرسم على جبينك الأزرق أية غضون ؛ فأنت لا زلتَ تجرى الآن كما كنت يوم أن أبصرك فجرُ الخليقة .

— ١٨٣ —

أيتها المرآة الرائعة التي يلذ للعلىّ القدير أن يتأمل نفسه فيها إبان العواصف . في كل آن — سواء كنتَ ساكناً أو هائجاً ، فيك النسيم أو الريح الصرصر أو العاصفة ؛ وفى كل مكان — عند القطب المتجمّد ، أو فى المناطق الحارّة ذوات الأمواج الداكنة — أنت دائماً بلا حد ولا نهاية . أنت رائع جليل ، صورة للسرمدية ، وعرش للخفى المستور ؛ من حَمَأك المسنون خُلِق حيوان الأعماق الهائل ؛ وكل بقعة من بقاع الأرض تدين لك بالطاعة ؛ وإنك تجرى قُدُماً ، رهيباً متوحداً ، ليس فى وسع شيء أن يسبر أغوارك .

— ١٨٤ —

وأنا قد أحببتك دائماً ، أيها المحيط ! وأجمل ملذات شبابى كان عندى أن أُحمَل على صدرك ، وأن أضلّ شارداً فى أحضانك مثل حَبَبك . ومنذ أن كنت طفلا ، كنت ألعب بأمواجك المتكسرة عند الشاطىء ، شاعراً بلذة لاتعدلها لذة . وحينما كان البحر يزيدها إرهاباً وتخويفاً ، كنت أشعر بخوف سارّ لذيذ لأنى كنت كواحد من أبنائك ، فكنت أسلم نفسى باطمئنان إلى أمواجك هنا وهناك ، وكنت أداعب غدائرك بأناملى — كما أفعل هنا الآن .

— ١٨٥ —

الآن أديت رسالتى ، وانقطع إنشادى ، واستحالت ألحانى إلى أصداء . وقد أَنَى أن يُقطع هذا الحُلْم الطويل ؛ ولا بد من إطفاء المصباح الذى أضاء لى إبان الليالى . وما قُدِّر ، قُدِّر . ألا ليتنى أحسنت عملى ! لكنى لم أَعُدْ بعدُ مَنْ كنته قبل ؛ ورؤاى تُرَنِّق الآن أمام عيونى بوضوح أقل ؛ والشعلة التى أضاءت روحى تترنح وتَضْوى ويُغِذُّ إليها الهُمود .

— ١٨٦ —

وداعاً ! يا لها من كلمة لا بد أن تقال ، يرن فيها رنين الأسي والحزَن . وداعاً مع هذا ! وداعاً إليكم يا مَنْ تَصصْتم أثر رحّالتى حتى آخر الشوط ! إذا كانت ذاكرتكم تعى فكرة من أفكاره ، وإذا كانت إحدى ذكرياته تطوف بنفوسكم ، فإنه لم يلبس إذن فى غير طائلٍ نعالَ الطريق وقَلَنْسُوة السفر المزَيَّنة بالقواقع والأصداف . وداعاً مرة أخرى ! ولندع له وحده الأسف ، إن كان له منه نصيب ؛ ولكم أنتم العِظة الحسنةَ من هذه الأناشيد .

جورج جوردون بيرن
لوحة حياته

١٧٨٨ : ولد جورج جوردون بيرن فى لندن فى ٢٢ يناير سنة ١٧٨٨ من أسرة عريقة فى النبالة ، إذ ترجع نبالتها إلى أيام وليم النورمندى ، المعروف بوليم الفاتح (١٠٢٧ — ١٠٨٧) ، كما ترجع فى أصلها إلى النورمنديين الذين كانوا يقطنون فى المقاطعة المعروفة باسمهم فى شمال فرنسا . وكان من أسلافه من اشترك فى الحروب الصليبية . ولما أمر هنرى الثامن (الذى حكم من سنة ١٥٩٠ — سنة ١٥٤٧) بحل الأديرة ، منح أحد آل بيرن دير نيوستد فى مقاطعة نوتنجهام . ونظير ما أسدوه من مساعدة للملكية إبان الحروب الأهلية فى انجلتره ، منح شارل الأول (١٦٠٠— ١٦٤٩ ، وتولى الحكم فى سنة ١٦٢٥) لقب اللوردية إلى أحد أبناء الأسرة ، فكان أول لورد بيرن . وخامس لورد كان معروفاً بسوء الخلق ، وعلى العكس من ذلك كان أخوه الاونورابل چون بيرن ، الذى كان بحاراً مغامراً ، ارتفع إلى مرتبة أمير البحر . وكان له ولدان ، أكبرهما كان وسيم الطلعة كثير الإغراء ، ولكنه لم يكن صاحب مبادىء ، حتى كان يسمى باسم « المجنون چاك بيرن » وقد تزوج مرتين ؛ وزوجته الثانية هى أم شاعرنا ، وهى من أصل أسكتلندى ، ومن أسرة عريقة تحمل فى شرايينها دم آل استيورت الذين حكموا انجلترا لعهد

طويل ، غير أنها كانت شرسة الطبع قليلة الحظ من التهذيب .

١٧٩١ — ١٨٠٩ : وفى سن الثالثة فقد أباه ؛ ولما بلغ السادسة توفى ابن عمه ، فأصبح وارث اللقب ، فمنحه وهو فى سن العاشرة .

وتلقى تربيته الأولى على يد أمه ، وهى على ما ذكرنا من غرابة الطبع ؛ فأساءت إليه ، لأنها كانت تارة تدلّله إلى حد الإفساد ، وتارة أخرى تزيد فى تعنيفه إلى درجة تعييره بالعاهة التى ولد بها ، ونعنى بها أن كعبى قدميه كانا سيئ التكوين إلى حد أنه لم يكن فى وسعه أن يرتكز بهما على الأرض ، إنما كان مضطراً إلى المشي على مقدّم القدم ، مما كان يصور فى مشيه شيئاً من العرج القليل . كما تلقاها أيضا على يد مربيته الأسكتلندية ، وقد كانت بروتسنتية متطرفة ، حببت إليه « العهد القديم » من الكتاب المقدس ، مما سيظهر أثره فى « أشعاره العبرية » .

ثم لما بلغ الخامسة التحق بمدرسة أولية فى أبردين ، ثم فى دولوتس . ولكنه تلقى دراسته التى أثرت فيه أكبر التأثير فى مدرسة هرُو ؛ فقد أمضي بها سنوات ، وإن تكن الأولى منها بائسة ، فإن الأخيرة كانت أسعد شطر فى حياته ، حتى إنه فكر فى أن يسمى هذه الملحمة التى بين يدى القارئ باسم « اتشيلد أف هرو » ، وأخيرا اتخذ اسما أقرب هو «اتشيلد هارولد» .

وبعد أن أتم دراسته فى هرو ، التحق بكلية الثالوث

(ترنتى كولدج) فى جامعة كمبردج . وهو إن لم يكن قد أعجب كثيراً بالدراسة فيها ، فإنه استطاع الاطلاع بحرية إبان هذه الفترة ؛ واستمر فى قرض الشعر (الذى بدأه فى هرو) ، وسرعان ما نشر ديوانا صغيراً بعنوان : « ساعات الفراغ ، تأليف لورد بيرن ، القاصر » . غير أنه هوجم فى « مجلة ادنبره » مهاجمة قاسية ؛ فرد على الهجوم بقصيدة بعنوان : « الشعراء الإنجليز والنقاد الاسكتلنديون » ، سنة ١٨٠٩ .

و إبان هذه الفترة التى تعد عهد الطلب بالنسبة إلى بيرن ، وقعت له مغامرات غرامية مبكرة جداً فى سن الثامنة ، والثانية عشرة ، والسادسة عشرة ؛ وكان حبه فيها عنيفاً عنف طبيعته فى كل شيء .

١٨٠٩ — ١٨١١ : ولما بلغ الحادية والعشرين دخل مجلس اللوردات ؛ غير أنه قوبل مقابلة باردة أثرت فى نفسه إلى درجة أنه عزم على الرحيل من انجلترا فغادرها بعد بضعة أيام من دخوله المجلس . وهنا بدأ عهد التنقل ، إذ ارتحل أولا إلى أسبانيا ، حيث كان الإنجليز بقيادة ولسلى (دوق ولنجتون فيما بعد) يساعدون الأسبان على طرد نابليون من شبه الجزيرة الإيبرية . ومن أسبانيا ارتحل إلى بلاد اليونان وألبانيا . وهذه الرحلة إلى أسبانيا واليونان وألبانيا هى التى وصفها فى النشيدين الأولى والثانى من هذا الكتاب الذى بين يديك . ثم سافر إلى تركيا ، حيث

زار أزمير واستامبول ، غـير أنه لم يضمّن هذه الرحلة فى هذا الـكتاب إلا إشارة ؛ إنمـا استعان بها فى قصيدته الـكبرى : « دون چوان » .

وقد استغرقت هذه الرحلة قرابة سنتين ، فكان لها فى شعره ونفسه أ كبر الأثر ، مما هو ظاهر بوضوح فى هذا الـكتاب .

١٨١٢ — ١٨١٦ : وفى سنة ١٨١٢ نشر بيرن بعد عودته إلى انجلترا النشيدين الأول والثانى من « اتشيلد هارولد » ، فلقيا رواجاً هائلاً ، حتى قال هو : « لقد استيقظت ذات صباح فوجدت نفسي مشهورا » . وهذا النجاح العظيم يعزى أولا إلى روح العصر التى كانت روح روسو فى « هلويزا الجديدة » و « أحلام المتريض المتوحد » ، وجيته فى « ڤرتر » قد أثرتا فيه ؛ وثانياً إلى كون البلاد التى وصفها فى قصيدته هاتيك كانت هدف انتباه العـالم آنذاك ؛ وثالثاً إلى الروح الجديدة الغريبة التى ظهرت فيها .

ثم تلاها بنشر « عروس أبيدوس » ، فى سنة ١٨١٣ ؛ و « القرصان » و « لارا » ، فى سنة ١٨١٤ ؛ « وحصار كورنثوس » و « پَرِيزينا » فى سنة ١٨١٦ . وهى أقاصيص شعرية تدور غالباً حول الشرق و بلاد اليونان ؛ وفيها هذه الألوان الشرقية الزاهية التى استهوت روح العصر كله فى ذلك الحين .

وفى مستهل سنة ١٨١٥ تزوج بيرن مس إيزابلاّ مِلْبانك ، وكانت فتاة باردة ، متزمتة ، متحذلقة ، تغلب عليها نزعة إلى التقوى

المغالية ، وإن كانت مهيبة الطلعة والجمال ؛ وهي صفات على النقيض تماماً من صفات بيرن ، فكان طبيعياً أن يكون الزواج غير موفق إطلاقاً . فافترقت باختيارها عنه ، بعد أن ولدت منه ابنة هى أدا ، فى ١٠ ديسمبر من نفس العام ؛ وكان فراقها له فى منتصف يناير سنة ١٨١٦ . ولكى تبرر انفصالها عنه ، راحت ، شأن لداتها من النساء ، تكيل التهم لزوجها : فاتهمته أولا بأنه مجنون ؛ ولما ثبت أنه عاقل ، ادّعت أن بينه وبين أخته غير الشقيقة ، أوجستا ، صلات غير شريفة ؛ وذهبت تعلن هذا الاتهام فى المجتمع الإنجليزى ، دون أن يزعها وازع من شرف أو ضمير ، أو حتى من عطف حتى لو افترضنا أنه اتهام صحيح ؛ ولكنه انتقام المرأة الرهيب قد جار بها عن كل سبيل قويم . فأثارت بهذا ثائرة المجتمع الإنجليزى ، المتزمت بطبعه ، الناقم على بيرن لأسباب أخرى ؛ فلم يستطع بيرن البقاء بانجلترا ، فغادرها إلى غير رجعة فى ٢٥ أبريل سنة ١٨١٦ .

ومسألة هذا الاتهام من المسائل التى أثارت من حولها أكبر الجدل ، ولازالت تثيره ، حتى بعد نشر « مراسلات لورد بيرن ، خصوصاً مع ليدى ملبورن وغيرها » سنة ١٩٢٢ ، التى اتخذ منها البعض وسيلة لترجيح صحة الاتهام ، بل حتى لتوكيده . لكن السر لا يزال يكتنف هذه المسألة من كل نواحيها ؛ وعلى كل حال فليس المجال هنا مجال تفصيل القول فيها والإدلاء برأى

قاطع ، وإن كنا نميل إلى نفى هذا الاتهام .

١٨١٦ — ١٨٢٤ : غادر بيرن انجلترا إذن إلى غير رجعة ؛ فارتحل إلى بلچيكا أولاً ، حيث زار ساحات القتال فيها ، خصوصاً ساحة معركة ووترلو ، بعد أن مضي على هذه المعركة سنة . ثم غادر بلچيكا إلى جنوب ألمانيا ، حيث تمتع بمناظر الرين الرائعة التى أبدع وصفها فى النشيد الثالث من « اتشيلد هارولد » ؛ ومن هنا تابع هذا النهر حتى منابعه فى سويسرة ، حيث أقام مدة عند بحيرة چنيف (ليمان) . وهنا التقى بشلى ، طريد المجتمع الانجليزى هو الآخر ، فنعما سويا بصحبة الطبيعة الفاتنة فى هذا الإقليم الساحر ؛ مما كان له أثره فى شعر بيرن وحبه للطبيعة ، خصوصاً بتأثير شلى فيه .

ولما قضي من سويسره وطره ارتحل إلى إيطاليا . فسافر أولا إلى البندقية ، حيث أمضي هنا حياة مطلقة من كل قيد ، فيها من العربدة والمجون وانتهاب أعنف اللذات الشيء الكثير . ثم سافر من بعد إلى راڤنا ، حيث أقام فى صحبة الكونتيسة جو يتشيولى ، وقضي عهدا عامرا بأعنف الغرام وأعمق الشهوات والأحساس ؛ ولم يقتصر تأثيرها فيه على الناحية الفنية ، خصوصاً فى اختيار موضوعاته ، بل امتد أيضا إلى الناحية السياسية ، فشارك فى الحركات السياسية التى كان يقوم بها الزعماء الوطنيون فى إيطاليا من أجل طرد النمساويين ، حتى لفت إليه أنظار رجال الشرطة .

وفى تلك الأثناء نشر النشيد الثالث من « اتشيلد هارولد » فى سنة ١٨١٦ ، والنشيد الرابع فى سنة ١٨١٨ ؛ كما نشر « سجين اتشيلون » ، سنة ١٨١٦ ؛ و « مَنْفِرِد » ، سنة ١٨١٧ ؛ و « بپو » ، سنة ١٨١٨ ؛ و « مازپا » سنة ١٨١٩ ؛ وابتدأ « دون چوان » الذى أكمله فى الفترة ما بين سنة ١٨١٩ — سنة ١٨٢٤ ؛ كما نشر فى سنة ١٨٢١ « نبوءة دانته » ، وفى سنة ١٨٢٣ ، « الجزيرة » ؛ كما كان قد نشر « شَكاة تسّو » سنة ١٨١٧ . ثم نشر مسرحياته : «قابيل» ، و«مارينو فَلْيپيرو» و « سردانا پال » ، و « الفوسكاريان » سنة ١٨٢١ ؛ و« ڤرنر» سنة ١٨٢٣ ؛ و « السماء والأرض » ، سنة ١٨٢٤ .

وتنقل فى ربوع شمال إيطاليا ، مقيماً فى پيزا وچنوة ، وهو على اتصال مستمر بشلى الذى كان يقيم فى إيطاليا فى ذلك الحين أيضا ، وشهد احتفال موته ، هذا الاحتفال شبه الوثنى .

وكان قد شارك فى السياسه كرديكالى ضد الهوج ، لأنه كان يميل إلى الجمهورية ضد ملكية بيت هانوڤر ؛ كما كان معجباً بناپليون كل الإعجاب ، إلى حد التقديس ، بينما كان يبغض دوق ولنجتون ، فلا يكاد يدع فرصة تمضي دون مهاجمته والنيل منه . وحين سقط ناپليون رثاه بهذا الرثاء الرائع الموجود فى النشيد الثالث من هذا الكتاب . ولما يئس من السياسة فى وطنه شارك ، كما قلنا ، فى السياسة الايطالية ، لأنه كان يدافع عن قضية

الحرية فى كل مكان . فلما أخفق الكاربونارى ، هذه الجمعية الايطالية السياسية ، فى كفاحهم ضد النمساويين ، انصرف عن قضية إيطاليا إلى قضية اليونان فى كفاحها ضد تركيا طلباً للاستقلال . فعاون زعماء اليونان—وإن اختلف مع بعضهم — مادياً وأدبياً ؛ وأخيرا ذهب بنفسه إلى بلاد اليونان لكى يحارب هو نفسه فى صفوفهم ضد الأتراك ، فى مدينة مِسُّولنجى ؛ غير أن الحالة الصحية فى هذه المدينة كانت سيئة ، فأصيب بالحمى ، ومات فى ١٩ أبريل سنة ١٨٢٤ ، شهيداً من شهداء الحرية والاستقلال لوطن غير وطنه .

نشرات ومراجع

نشرت مؤلفات بيرن عدة نشرات لاسبيل إلى حصرها . وأهمها :

Poetry, ed. by E. H. Coleridge, 1905.
Letters and Journals, ed. by Prothero, 1898—1904.

أما أهم نشرات « اتشيلد هارولد » فهى :

J. Darmesteter : *Childe Harold*, avec des notes en français, par J. Darmesteter, Paris, 1882 ;

A.Mommsen : *Childe Harold*, erläutert von August Mommsen, Barlin, 1885 ;

W. Rolfe : *Childe Harold*, with notes by william J. Rolfe, Boston, 1886 ;

H.F. Tozere ; *Childe Harold*, with notes by H.F. Tozer, Oxford, 1885

E.E. Morris : *Childe Harold*, ed. with notes and an introduction by Edward E. Morris, London, Macmillan, 1903 ; 4th ed. 1908.

أما عن حياة بيرن فيراجع :

Thomas Moore : *The Life, Letters and Journals of Lord Byron*, London 1831.

كما يراجع حياته بقلم Galt ، سنة ١٨٣٠ ؛ ونويل Noel ، سنة ١٨٩٠ ؛ و ا . ماين E. C. Mayne ، سنة ١٨٩٧ ؛ و م . بلامى M. Bellamy ، سنة ١٩٢٤ ؛ وأندريه موروا A. Maurois ، سنة ١٩٣٠ ؛ ويراجع أيضا :

Medwin : *Conversations with Byron*, 1824 ;
Trelawny : *Recollections*, 1858.

أما عن قصة بيرن مع زوجته فيراجع :

Harriet B. Stowe : *Lady Byron vindicated*, 1870 ;
Lord Lovelace : *Astarté*, 1905 ;
Edgcumbe : *Byron, the last phase*, 1920 ;
Sir J. Fox : *The Byron Mystery*, 1924 ;
Lord Byron's *Correspondance, chiefly with Lady Melbourne, etc.*, 1922.

وكدراسات عن بيرن ، يراجع :

W. Hazlitt : *The Spirit of the age*, 1825 ;
Swinburne : *Essays and Studies*, 1875 ;
Matthew Arnold : *Essays in criticism*, 2nd series, 1888 ;
G. Brandes : *Hauptströmungen*, Vol. IV ;
Otto Schmidt : *Rouseau und Byron*, Leipzig, 1890 ;

وعن تأثير بيرن :

Otto Weddigen : *Lord Byron's Einfluss auf die europaïschen Litteraturen der Neuzeit*, Hannover, 1884;
W. Axon : *Stray chapters in Literature*, London, 1888,
Ed. Estève : *Byron et le romantisme français*, 1907 ;
S.C. Shew : *Byron in England, his fame and after-fame*,1924.

منهاجنا فى الترجمة

هذا الكتاب هو فى الأصل ملحمة مقسمة إلى فترات مرقومة بالأرقام كما هنا ؛ وكل فقرة مكونة من ثمانية أبيات ، على طريقة فقرة اسپنسر Spenserian stanza ، لأنه حاول تقليد اسپنسر فى طريقة نظمه وفى لغته أيضاً ، لذا جاءت لغته عتيقة ، فيها الكثير من الإهمال وسوء نظم الكلم والانحراف عن قواعد النحو والصرف ، بل وسوء أو عدم فهم الألفاظ .

وقد فضلنا فى هذه الترجمة أن تكون نثرا ، اللهم إلا الأغانى ، فقد ترجمناها نظماً ؛ وذلك إلى أن نتوصل إلى إيجاد فقرة كفقرة اسپنسر فى الشعر العربى . كما حاولنا أن نجعلها أوضح ما يكون حتى نزيل غموض الأصل ، كل هذا مع التقيد بالأصل الانجليزى قدر المستطاع ، اللهم إلا فيما يستلزمه الوضوح وسلامة التركيب وجمال الإسلوب .

خطأ وصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٢	١٩	المحدثون	المحدثين
٢٦	٨	الأهرجان	لأهوجان
٥٥	١٦	سيفه	سيده
٦٧	٦	(٢)	تحدف
٨٠	١	السون	العيون
١٢٩	٧	أن تـخـضع	أن تَـخْـضَع
١٣٣	٨	النسوة	النشوة
١٣٤	١٣	ظن	ظن أن
١٣٧	٧	انفاء	الغناء
١٨٢	٣ من أسفل	فهو	فهو عطيل
١٨٤	٥	رفاق	رفاقى
١٨٥	١٠	ملكية	ملكة
١٨٧	١١	حين كان	حين كانت
٢٠٣	٩	العاصمة	العاصفة
٢٠٧	٣ من أسفل	ميكلملر بوزوتى	ميكلنچلو بونروتى
٢١٩	٥	أفلا	ألا
٢٧١	٩	١٥٩٠	١٥٠٩

الروائع المائة

العشر الأولى

١ — أيشندورف : من حياة حائر بائر (ظهر)

٢ — فوكيه : أندين (ظهر)

٣،٤ — جيته : الديوان الشرقى (ظهرا)

٥ — بيرن : أسفار اتشيلد هارولد (ظهر)

٦ — هيلدرلن : هيپريون

٧ — نيتشه : الفجر

٨ — جيته : الأنساب المختارة

٩ — شوپنهور : حكمة الحياة

١٠ — جيته : المسرحيات

خلاصة الفكر الأوربى

ظهر منها :

١ — نيتشه

٢ — اشپنجلر

٣ — شوپنهور

٤ — ربيع ا[illegible]

٥ — أفلاطو[illegible]

٦ — أرسطو[illegible]

٧ — خريف الفكر اليونانى

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر لصاحبها محمود الخضرى